Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

٦٨٤٨
٦٨
PT6 Madam
13/6/45
C
249

وزارة المعارف العمومية

المكافأة

لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب

صححه وضبطه وشرحه

أحمد أمين — على الجارم بك

الطبعة الأولى

حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لقراءة طلاب
السنة التوجيهية بالمدارس الثانوية

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٤١

893.7Ah54
T1

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

تقـــديم

أحمد بن يوسف مؤلف هذا الكتاب كان أحد كتّاب الدولة الطولونيّة التى حكمت مصر من (٢٥٤هـ—٢٩٢هـ) بعد أن اقتطعتها من الدولة العبّاسيّة . و كان مؤسّسها أحمد بن طولون ذا عقل جبّار، ورأى مسدّد ، وضع لها نظمها الماليّة والسياسيّة على أساس متين ، ورتّب خراجها ، ونظّم رِيّها ، وحدّد ضرائبها ، ولم تَخْفَ عليه محاولة العبّاسيّين استرجاعها ، ودسّ الدسائس فى إثارة أهلها . فكان يأخذ بالظّنّة، و يعاقب بالريبة، ويخشى مَن لهم اتصال برجال الدولة العباسيّة ، و يعمل على الفتك بهم ومصادرة أموالهم .

وكان أصل أحمد بن يوسف من العراق . رحل أبوه إلى مصر بعد أن خدم مولاه إبراهيم بن المهدىّ، ولازمه حتّى مات، فانتقل إلى مصر ، واشتغل فيها بالعلم والأدب والمال . ولكنّ اتصاله القديم بالبيت العبّاسىّ جعل ابن طولون لا يركن إليه ، ولا يأمن شرّه . لذلك نرى فى تاريخه، أنّ أحمد بن طولون قد حبسه وكاد يقتله لولا شفاعة

أتباعه[1] . ولمّا مات يوسفُ أمر ابن طولون أعوانه فهجموا على داره، وحملوا صندوقين من أوراقه، مقدّرين أن يجدوا فيها شيئا يدلّ على صلةٍ له بمن ببغداد[2] .

ونشأ ابن مؤلّف هذا الكتاب على نمط أبيه : فهو مثقّف ثقافة واسعة ، وهو كاتب كما يدلُّ عليه كتابه هذا ، وهو شاعر يُنْقَل ديوان شعره إلى العراق[3] ، وهو عالم بالحساب والهندسة والفلك، كما تدلّ عليه ترجمة "ياقوت" له ، وهو آخذ بحظّ من الفلسفة كما يظهر ذلك فى ثنايا كتبه .

ولم يكن أحمد بن يوسف من هؤلاء الأدباء والعلماء الذين ينقطعون لأدبهم وعلمهم ، ويعتمدون فى ذلك على ما يمنحهم الولاة والأمراء من منح، أو يتزهّدون فيكتفون بمالهم من عقار يُغلُّ عليهم بعض المال . إنّما كان كأبيه، ينغمس فى الدنيا وفى الحياة الواقعة، ويصرف جزءا من وقته فى تدبير المال والقيام عليه وإنمائه،

---

(١) انظر القصة الثالثة عشرة .

(٢) انظر القصة الخامسة .

(٣) انظر القصة الثالثة والعشرين .

كان أبوه يدبّر أموال إبراهيم بن المهدىّ ويقوم على أراضيه ، فاكتسب بذلك خبرة ماليّة كبيرة، فلمّا جاء إلى مصر استخدم مقدرته الماليّة، فاستغلّ بعض الأراضى المصريّة من الدولة الطولونيّة: ويتقبّل الأرض (يلتزمها) ويستأجرها . وأحيانا يملكها ويزرعها ويتاجر فى محصولاتها . ونحا ابنه (مؤلف كتابنا) منحاه، فكان أديبا عالما ماليّا معا ، يؤلّف الكتب ، ويقول الشعر ، ويستغلّ الأرض .

والمهارة الماليّة التى من هذا القبيل كان لها مزايا وكان لها مضار ، فأهم مزاياها : أنّ صاحبها ينغمس فى غمار الناس فيعرف حياتهم ، وتفاصيل سلوكهم ، ونوع عقليّتهم ، ويخبرُ الدنيا خبرة تامة . وأهمّ مضارّها: أنّها كانت تعرّض صاحبها فى كثير من الأحيان إلى الأهوال والأخطار، فلم تكن الحكومات فى ذلك العصر قائمة على ما نعرف من العدل وحفظ الأمن على المال والنفس ، بل كانت المعاملات وخاصّة ما اتصل منها بالحكومات عرضة للظلم والفساد . فكثرت المصادرات ، وكثر قتل الأنفس للاستيلاء على الأموال إلى غير ذلك من ضروب العسف. وتقرأ تاريخ مصر وتاريخ العراق فى ذلك العصر ، فترى اضطرابا وفسادا من هذه الناحية لا حدّ له ، وقلّما تقرأ سنة من سنى التاريخ فى تلك الأيام من غير أن يُسجَّل فيها ظلم بيّن وشَرٌّ بيّن .

وكلا الأمرين يتجلّى فى حياة أحمد بن يوسف: عارفٌ بالدنيا خبير بشئونها ، معرّض من حين لآخر لمصادرة أمواله ، وضياع ثروته ، لولا احتماء بوالٍ أو أمير ، أو مكافأة على جميل .

فى وسط هذه المظالم الفتّاكة والمفاسد المنتشرة ، كانت تصدر من بعض أشخاص نبلاء أعمال نبيلة تلمع فى هذا الجو الحالك ، وتخفّف على الناس ويلاتهم ومصائبهم ، وعلى قدر هذه الشدائد، تكون الإشادة بالمحامد. ففقر العرب فى الجاهلية،وبؤس أهلها،جعل الكرم يحلُّ أسمى مكان بين الفضائل،فامتلأ أدبهم بالتمدّح بالكرم،وإطعام الطعام ، ونحر الجزر ، وقرى الضيفان وما إلى ذلك .

وفى عصر مؤلّفنا هذا ، كانوا يتشوّفون فى ظلام الظلم إلى الأنوار القليلة المضيئة من أعمال النبل: كإغاثة ملهوف،ونجدة بائس،وإعزاز كريم ذلّ ، وإمداد غنىّ افتقر .

وقد كان أحمد بن يوسف وأبوه يوسف بن إبراهيم ممتازين من هذه الناحية، كلاهما مع غناه وثروته ذو مروءة ونجدة، يشعر أنّ المال غادٍ ورائح ، وأنّ المرء عرضة فى كل وقت للفقر ، فلا بدّ من أن يتسلّح بالمروءة ، ينقذ بها البائس من بؤسه، لعلّه يكون يوما فى مثل

حالته ، فيجد من ينجده . فيحدّثنا "ياقوت" عن يوسف بن إبراهيم أنه "كان ذا مروءة تامّة" وتدلّ بعض القصص فى هـذا الكتاب على أنّه كان له أتباع يتعصّبون له ويفدّونه بأنفسهم، لما يسديه إليهم من خير، ويقدّم لهم من معروف، وابنه أحمد بن يوسف نفسه كان كذلك كريما نبيلا . يحدّث — مثلا — أنه رأى تاجرا كُسِر مركبه وغرِق فيها ما يملكه، فيواسيه أحمد بن يوسف ويبثّ من يغوص على مركبه ليستخرجوا مافيه، ثم يعوّضه عمّا فقده بنفسه وبرجاله .[1] ومثل هذا فى الكتاب كثير .

رجل مثل هذا جديرٌ بأن ينمو عنده الشعور بالإحسان، وأن يُرْهَف حسّه لأعمال المروءة ، وأن يدعوه ذلك لأن يفكّر فى قصص النبل وحسن المكافأة .

وقد علّل ذلك تعليلا بديعا فى أول كتابه ، فذكر أنّ الناس سلكوا لاستدرار المال من الممدوحين سبيل التنويه بذكر الكرماء وما منحوا، والعظماء وما أعطوا ، وحثّوهم من طريق خفىّ على أن يعملوا عملهم ويعطوا عطاءهم. ولم يستحسن أحمد بن يوسف ذلك. ورأى أنّ خيرا منه، أن يشاد بذكر من أُحْسِن إليهم ، فكافئوا بالإحسان إحسانا فإنّ

---

[1] انظر القصة الثالثة عشرة .

هذا أدعى إلى الكرم . وأبعث على المحاكاة . ولا شكّ أنّ هـذا فى مسالك النفس أفعـل ، لأنّه يُفهم الكريم من طريق خفىّ كذلك — أنّ فى ذلك نفعه الشخصى فإنه سيلقى جزاء ما يقدّمه من خير مهما كان قويا ، ومهما كان المحسَن إليه ضعيفا . بل طلب فى خاتمـة الكتاب أن يبلغ المكافئ مبلغا من السموّ لا ينتظر معـه مكافأة ولا جزاء ، فيكفيه شعوره الجميل بأنّ له ديونا يتحمّلها خيار الناس ولو لم يؤدوها .

وقد قصّ علينا فى هذا الباب إحدى وثلاثين قصّة ، وقع بعضها فى مصر فى عهد المؤلف ، وبعضها فى غير عهده ، وبعضها فى الشام ، وبعضهـا فى العراق ، إلى غير ذلك . وقد جمعها كلَّهـا حول محور واحد : هو حسن الصنيع بالمكافأة على الجميل بالجميل .

ثم أتبع ذلك بقسم آخر عنوانه "المكافأة على القبيح" وهو يتضمّن إحدى وعشرين قصّة تدور حول مكافأة القبيح بالقبيح . وهو مكمِّل للقسم الأول . فاذا كان القسم الأول يستحثّ الإنسان على فعل الخير توقعا للمجازاة بالخير ، فالقسم الثـانى يحذِّر من فعل الشرّ خوفا من سوء المجازاة بالشرّ .

أمّا القسم الثالث فاسمه "حسن العقبى" ويشتمل على تسع عشرة قصّة . وهى كالمكمِّلة للقسمين الأولين . فانّها تدور حول من وقع فى شدّة ثم خلُص منها ، وكان عرضة لضياع ماله أو فِقدان نفسه فردّ إليه ماله ، ووهبت له نفسه ، كما كان أو خيرا ممّا كان .

هذه إحدى وسبعون قصّة فى هذا الكتاب موزَّعة على ثلاثة أبواب ، كلها تدعو إلى الخير وتنفّر من الشرّ .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة أدبيّة وأخلاقيّة وتاريخيّة .

فأما الأدبيّة ففى أسلوب المؤلف فى عرض القصّة . فهو أسلوب جزل رصين، يحكم التعبير عن المعنى فى أوجز عبارة وأمتنها وأقواها، تجد فى كل قصّة جملا تستوقف النظر ، سواء من ناحية جزالة لفظها أو قوة معناها . حتى لو شاء معبِّر أن يؤدى غرضها لاستوجب منه ذلك أضعاف ألفاظها ، أنظر مثلا إلى قوله فى القصّة الثالثة : "أيحسن بشيخ مثلى أن يتزيّج فى المعروف ؟" وقوله : "إنّ عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف". وقوله فى القصة الثانية والعشرين : "استصفى ماله بالسوط وعظيم الإخافة" وفى القصة السادسة والعشرين : "تسلّمت منه قوما تشهد لهم القلوب

بالفضل فآنست وحشتهم ، وفسحت رجاءهم" وهكذا فى كلّ قصّة نجد بدائع يحسن الوقوف عندها وتذوّقها وترديد الإعجاب بها . لم يقصد فيه مؤلّفه إلى سجع ولا إلى توشية بأنواع من البديع ، وإنما قصد أن يؤدى المعنى من أوجز طريق وأيسره ، فكان ذلك محمدة الكتاب ، إذ لم يصرف الناظر عن المعنى الجميل باللفظ المزوَّق .

قد يؤخذ عليه أنَّه إذا عرض للقصص أوضح فى أسلوبه وأبان . وأمّا إذا خرج عن القصص غمض واعتراه شىء من الخفاء ، كما ترى فى مقدّمة الكتاب وخاتمته وآخر القسم الأوّل منه . ولعلّ عذره فى ذلك ، أنَّه يعمد إلى معان فلسفيّة وشرح حالات نفسيّة يعالجها على نمط الفلاسفة إذ كان متأثّرا بهم ، مثقّفا ثقافتهم ، فهو إذا تفلسف غمض ، وإذا تأدّب وضح .

وأمّا ناحيته الأخلاقيّة ، فقد التزم فى الكتاب عرض قصص تدلّ على النبل والمروءة ، وعلى مجازاة الحسن بالحسن ، والقبيح بالقبيح . والحثّ على الصبر عند الشدائد ، فإنّها ستنفرج لامحالة . وهذا ضرب من ضروب التعليم بالمثل ، جرى عليه كثير من مؤلفى العرب والفرنج ، كما ترى فى هذا الكتاب وكتاب " المستجاد من فعل الأجواد " وكتب سميلز بالانجليزية ونحوها .

ومزيّة هذا الكتاب أنّ موضوعه خلقيّ معروض العرض الأدبيّ ، فهو رائع فى شكله ، رائع فى جوهره . تُعجَب عند قراءة كلّ قصّة بمغزاها ومبناها معا .

وأمّا الناحية التاريخيّة للكتاب، فقيّمة من ناحية أنّ فيه قصصا تاريخيّة توضّح بعض ما جاء فى كتب التاريخ . وقصصا مصريّة طولونيّة، تدلّ على نواح كثيرة من النواحى الاجتماعيّة والاقتصاديّة فى مصر فى ذلك العصر ، هذا إلى ماله من قيمة فى تاريخ الأدب فالكتاب عظيم القيمة من ناحية دلالته على الأسلوب الأدبيّ فى العصر الطولونىّ ، وعلى ما كان يستعمل من عبارات مصريّة أدبيّة هجر بعضها وبقى بعضها، فأنت ترى فيه كثرة شيوع الاستفهام من غير أدوات الاستفهام ، كما هو الشائع فى مصر الآن . وواجد فيه التعبير ببراءة الساحة كما نعبّر اليوم ، كما أنّه يعبّر تعبيرات غير مألوفة فى أسلوبنا اليوم كقوله " واستدعى الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونيّة " يريد عمّالها. وهكذا فى الكتاب مجال فسيح لهذا النوع من البحث فى التاريخ الأدبيّ .

وكان الكتاب — مع الأسف — قد وصل إلينا مملوءا بالتحريف والأخطاء، فبذل بعض من تقدمونا الجهد فى تصحيح بعضها، وبذلنا نحن جهدنا فى تصحيح بعضها ، وأعنّا القارئ بتفسير غامضه والتعريف برجاله . والله المسئول أن ينفع به .

أحمد أمين　　على الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمدٍ عبدُ الله الفَرْغانيُّ . قراءةً مِنّي عليه . قال : أخبرنا أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ يوسفَ الكاتبُ [1] ، قراءةً منّي عليه . قال :

سدّد اللهُ فكرَك ، وأحسن أمرَك ، وكفاك مُهمَّك . إنّ أشدَّ على الممتحَن من مِحْنتـه ، عدولُه فى سعيه عن مصلحته ، وتنكُّبه الصوابَ فى بُغْيَته ، ولكلِ وجْهَـةٍ من الجَدْوَى مَأْتًى يُستَنزَلُ به عوائدُها [2] ، ويقرُب معه ما استُصْعِب منها ، يستثيره حسنُ الرَّوِيَّة ، [ويقرِّب إليه] صالحُ التوفيق .

---

(١) هو أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم . كان يلقب بابن الداية لأن أباه كان ولد داية ابن المهدىّ ،

وقد عرف أحمد بالأدب والطبّ والحساب ، وألّف سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه خُمارويه .

ومات بُعَيْد سنة ٣٣٠ هـ .

(٢) العوائد . جمع عائدة : المنفعة .

وقد رأيتُك لا تزيدُ من رغبتَ[١] إليه فيما تحدوه على بِرِّك ، وتحثُّه لما أغفل من أمرك ، على نصِّ مكارمِ مَن سلف . وترَى أنه يَهِشُّ[٢] إلى مساجلتهم[٣] ، فلا تبلغُ فى هذا أكثرَ من إحراز الفضيلةِ للمرغوب إليه ، ولا توجِدُ فى الراغب[٤] فضيلةً تحثُّه[٥] على شفيع قصده[٦] . ولو عدلتَ عن مكارمِ مَنْ رُغب إليه ، إلى حُسْنِ مكافأةِ من أُنْعِمَ عليه ، لكانت لك ذرائعُ يَمُتُّ بها الراغبُ ، ويُوجِدُ المرغوبَ إليه سبيلاً[٧] إلى الإنعام ، ويُفْسِح أمَله فى مُواترة[٨] الإحسان . ولم يُؤْتَ الجودُ من مَأْتًى هو أغمضُ من مغادرة حُسْنِ المكافأة . ولو أنعمتَ النظرَ فيها[٩] لوجدتها أقوى الأسباب فى منع

---

(١) من رغبت إليه : من توجهت إليه نفسك طمعا فى إحسانه ومعروفه .

(٢) هشّ : (من بابى ضرب وفتح) نشط وخفّ وارتاح .

(٣) المساجلة : المباراة والمفاخرة .

(٤) الراغب : طالب البرّ والمعروف .

(٥) تحثه : ضمير المفعول يعود إلى المرغوب إليه .

(٦) على شفيع قصده : على حقّ المرغوب إليه فى المكافأة الذى يشفع لما يقصد إليه من الإحسان والبر .

(٧) أوجد فلانا الشيء : أظفره به .

(٨) مواترة : متابعة .

(٩) فيها : الضمير يعود على مغادرة حسن المكافأة .

القاصد[١] ، وحيرةِ الطالب. ولو كانت توجد[٢] مع كلِّ فعل استحقّها ، لآثرَ الناسُ قاصديهم على أنفسهم ، ولجرَوْا على السُنَن المأثورةِ عنهم .

[وإنّى أثبت] فى هـذه الرسالة أخباراً فى المكافأة على الحَسَن والقبيح تُنْعِمُ[٣] الخاطر ، وتُقَرِّبُ بُغْيَةَ الراغب ، ممّا سمِعناه ممّن تقدمَنا ، وشاهدناه بعصرنا ، وبالله التوفيق .

---

(١) القاصد : قاصد البرّ ومريده ، ومنعه : رفض إعطائه .

(٢) توجد : أى المكافأة .

(٣) تنعم الخاطر : تريح النفس وتُمتعها .

المكافأة على الحسن

حدّثنى أبو محمد يحيَى بنُ الفضل ، عن عبدِ العزيزبنِ خالدٍ الأَمويِّ . عن أبيه خالدٍ . قال :

أخبرنى مُحاربُ بنُ سَلَمَةَ . كاتبُ خالدٍ القَسْرىِّ [١] : أن ديوانبانَ [٢] خالد أخرج مِن ديوانه وثيقةً على بعض المتضمِّنين [٣] ، فدفعها إليه بِبِرٍّ تَعَجَّلَهُ منه [٤] ، فدعا به خالد وأمر

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسيد القسرى ، نسبة إلى قسر بن عبقر ، بطن من بجيلة . ولى خالد العراقين لهشام بن عبد الملك . وكانت أمه نصرانية . وكان معدودا من خطباء العرب وأجوادهم . مات مقتولا سنة ست وعشرين ومائة بالحيرة .

(٢) ديوانبان : القائم بشئون الديوان . وكلمة "بان" بالفارسية معناها : القائم على الشيء المشرف عليه . ومن أمثال الديوانبان : الدربان للبوّاب ، والديدبان للحارس . وفى الأصل "الديوانيان" بالياء .

(٣) المتضمنين : تضمّن المال عن فلان : التزم دفعه عنه ، فالمتضمن : الضامن .

(٤) دفع الديوانى للضامن الوثيقة التى تثبت الضمان ، لأن الضامن كان قد عجّل إلى الديوانى برّا وأسدى إليه معروفا .

بقطع يده بين يديه . فقال له : استبقِنى (أصلح الله الأمير[١]) . فقال : وما يكونُ من مثلك؟ فقال له : إنْ لم يُقَدَّرْ فى الزمان رفعتى إلى منزلتك فلا تأمَنه على حَطِّك إلى منزلتى ، فيكونَ منّى ما تحمَدُه . فقال خالد : أطلقوه ففيه عظيمٌ[٢] !

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى ورد العراقَ يوسفُ[٣] بنُ عمر متوليا لعمله ، فحبسه فى حُجْرة من ديوانه ، ووَكَّل بباب الحجرة جماعةً ، فتدسّس الديوانُ حتّى دخل فى جملتهم ، وتلطّف للجماعة حتى رأسها[٤] بالخبرة وحسنِ المداخلة . وتحرّم[٥] خالدٌ طعامَ يوسفَ

---

(١) تتضمّن العبارة ما يعود على الأمير من الخير إذا استبقاه ولم يعاقبه ، بدليل سؤال خالد التالى .

(٢) ففيه : أى فى مَسْكه خُلق عظيم أو روح عظيم .

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود الثقفىّ . ولى اليمن لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، ثمّ تولّى العراق سنة ١٢٠ بعد خالد بن عبد الله القسرى ، ومات فى السجن سنة ١٢٦

(٤) رأسها . عظم شأنه فيها .

(٥) تحرّم من الشىء بحرمة : تمنّع ، وقد ضمّن الفعل معنى تجنّب .

ابنِ عمر ، خوفاً من أنْ يكونَ مسموماً فطَوَى[١] ، وتأمّل[٢] فى ذلك الديوانبانُ ، فجعل فى مِنديل نظيفٍ ما يُكفُّ جَوْعَته من طعام قد تأنّق فيه ، ودخل إليه كالمتجسِّس عن حاله ، فقال له : أنا الديوانبانُ الذى عفوتَ عنه ، وهذا طعامٌ تأْمَنُ فيه ما تخافه فى غِرَّةٍ . فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمة والفواكه ما يَنْسَى به وحشتَه ، ويكُفُّ فاقته ، ثم دخل إليه فقال : ليس هذا الذى أفعلُه مقدارَ ما يقتضيه إحسانُك إلىّ ، وقد استأجرتُ الدارَ التى فى هذه الحجَرة[٣] ، وأحضرت قوما أثِق بهم من حُذّاق النقّابين حتّى نقبتُ سَرَبا[٤] إلى موضعك ، ولم يبق إلّا أنْ تركُض[٥] بعضَ بلاطِ هذا المجلِس رَكْضةً فتُفضِى إلى السَرَب . وقد أعددتُ فى الدار نجيبين ، أحدُهما لك والآخرُ لى . فلمّا صلّى الديوانبانُ العصرَ أغلق البابَ ومضى إلى الموضع المُكْتَرَى . وركَض خالدٌ الموضعَ وخرج من

---

(١) طوى (كرضى) وأطوى فهو طاو وطوٍ وطيّان ، فان تعمّد ذلك فطوى (كرمى) وهى طيّا وطاوية .

(٢) تأمّل : فكّر مليّا . وفى الأصل : تأمل من .

(٣) الحجرة : الناحية .

(٤) السرب : الحفير تحت الأرض .

(٥) الركض : الدفع بالرجل .

السَّرَب ، وركبا نجيبيهما، وحثّا المسيرَ، فما فُطِنَ بخالد إلّا فى غد ذلك اليوم ، فطلبته الخيلُ والنُّجُبُ ففاتها . ولم يزلْ يُوضِعُ [١] فى البلاد حتى لحِقَ مَسْلَمَةَ بنَ عبد الملك [٢]، فشفَع له إلى هشام [٣] وردّه إلى عمله .

* * *

وحدّثنى هارونُ بنُ مَلُّولٍ [٤] قال :

كنت عند أحمدَ بنِ خالدٍ الصَّرِيْفِيِّ (وهو يتولّى الخراجَ بمصر) ووُجوهُها عنده . وقد أكبَّ على حاصِلِ ما آستُخرِج فى أمسه، وهو

---

(١) أوضع : أسرع فى السير .

(٢) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، يكنى بأبى شاكر، حارب يزيد بن المهلب، وولى العراق بعدقتل يزيد سنة ١٠٢، ثم عزله أخوه عنها بإغراء حاسديه . وقد تمت على يديه فتوح كثيرة. ومات فى عهد الوليد بن يزيد .

(٣) هو هشام بن عبد الملك . بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك فى شوال سنة ١٠٥ هـ . وكان هشام شديدا قاسيا وسياسيا ماهرا ، يجمع الأموال ويستجيد الخيل ، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس . وكان أحد سواس بنى أميّـة الثلاثة وهم : معاوية وعبد الملك وهشام . توفى بالرصافة سنة ١٢٥ هـ . وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

(٤) كان من كبار التجار وأصحاب الأموال فى عهد أحمد بن طولون . روى عنه المؤلف فى هذا الكتاب عدة أخبار .

يُقابل به ثَبَتَ[١] المصادرة[٢] . فقال لصاحب حمَالته[٣] : ما أرى اسمَ فلانٍ المتضمِّنِ فى هذا الحاصل[٤] ، وقدصادَرَنا[٥] بالأمس على خَمسمائةِ دينار ! فقال : ما صحّ له شىء[٦] . فقال : أبعَثْ إليه من يسحبُه صاغرًا حتى يحملَه على خُطَّة المطالبة[٧] . فقال له رجل من المتضمِّنين يُعرفَ بما شاء اللهُ بنِ مرزوق : الخَمسُمائةِ (أيّدكَ اللهُ) تصِحُّ لهذا الرجل فى هذه العَشيّة (إن شاء الله) إنْ أُغْفِيَ ممّا قد أمرتَ به فيه . فقال[٨] : هى عليك ؟ فقال : نعم . فتقدّم إلى صاحب الحمَالة ألّا يعرِضَ له . فالتفت إلىّ[٩] ما شاء اللهُ فقال : تعرِف هذا الرجل ؟ فقلتُ : نعم ، ومن العَجَبِ ألّا نَعرِفَه . فقال : يا أخى!

---

(١) الثبت : فى اصطلاح كتّاب ذلك العهد : الدفتر .

(٢) المصادرة ، صادره على كذا : طالبه به .

(٣) الحمالة بالفتح : الكفالة ، وصاحب الحمالة هو الذى تكفّل بجمع الخراج .

(٤) فى هذا الحاصل : أى فى القائمة التى يقرؤها ، وقد جمعت أسماء من دفعوا الخراج ومقدار ما دفع .

(٥) صادرنا : فارقنا متّفقا معنا .

(٦) ما صح له شىء : لم يتيسر له الحصول على شىء من المال .

(٧) يقول : حتى يجشمه مشقة طريقة المطالبة من العنف والإذلال .

(٨) فقال : أى أحمد بن خالد .

(٩) إلىّ : إلى هارون بن ملول .

أَمَرَ[١] فى رجلٍ يجرِى مَجْرانا فى معاشنا بما لم أُطِقْ واللهِ احتمالَه ، وعندى ضِعْفُ ما طُولب به ، وكانت صيانتُه أحبَّ إلىَّ مما حويتُه . فإذا لَقِيتَه فعرِّفه أنّى أُورِدُ المالَ عنه لئلّا يُورِدَ المالَ مُضَعَّفا . وانصرفتُ[٢] من مجلس أحمدَ بنِ خالد ، فلقِيتُ الرجلَ فى طريقى ، وهو محدود[٣] ، فسألته عن خبره وأخبرته الخبرَ . فقال : يا أخى ! وما فى هذا من الفرج ؟ إنما انتقلتُ من غمّ إلى رِقٍّ !! ومتى أقضِى إلى هذا الرجلِ إحسانَه إلىّ ؟ واللهِ لوددْتُ أنَّ أمْرَ السلطانِ نفَذ فىّ ، ولم أتحمَّلْ هذه العارفةَ منه .

قال أحمدُ بنُ يوسف : فقال لى هارون : وحضرتُ [بيتَ] ما شاء اللهُ بنِ مرزوق بعد هذا بأربع سنين فى الوقت الذى تُوُفِّىَ فيه ، فاتّفق أن كان إلى جانبى رجلٌ قد ألقَى بعضَ رِدائِه على وجهه وهو يَعِجُّ[٤] بالبكاء والشهيق . ثم كشف وجهه فكان الرجلَ الذى أورد ماشاء اللهُ عنه الخَمْسَمائةِ الدينار . فقال : مَن الوصىُّ من

---

(١) أمر : أى أحمد بن خالد ، ويصحّ أن تقرأ بالبناء للمفعول .

(٢) وانصرفت : المتحدث هارون بن ملول .

(٣) المحدود : من سدّ عنه الرزق ومنع الخير . وفى الأصل مجدود .

(٤) يعج : عجّ من بابى ضرب وفتح : رفع صوته .

جماعتكم ؟ فقال له الوصىُّ : هأنذا . فقال : عندى لهذا الرجلِ (رحمه الله) ألفا دينارٍ وَخَمْسُمائة دينار . فقلت له : حدثتْ بينكما معاملةٌ بعدى [1] ؟ فقال : لا والله ! ولكنّها الخمسُمائة الدينارِ صرتُ بها إليه عند تيسُّرِها ، فقال : وما [أعمل بها] ؟ تكونُ عندك إلى أوانِ حاجتى إليها . فسألتُه فى شَغْلها [2] . فقال : هو مالُك آعْمَلْ به ما شِئْت . فلم تَزَلْ تنمى وتزيد حتى بلغتْ هذا المقدارَ . فقال هارون : ووجدتُ ما خلّفه ما شاء اللهُ لبناتٍ كُنَّ معه شيئا نَزْراً ، فجبرهنّ اللهُ بذلك المالِ .

* * *

وحدّثنى أحمدُ بنُ دُعيمْ [3] (وكان من خاصّة قوّاد أحمدَ ابنِ طُولون) بعد أن ترك الديوانَ وحسُنَ آنقطاعه إلى الله ، قال : قلّدنى أحمدُ بنُ طُولون الصعيدَ الأوسطَ [4] ، وخرج عليه

---

(١) بعدى : بعد الحادثة التى أعرفها وهى أنه أدّى عنك خمسمائة دينار .

(٢) فى شغلها : فى الآتجار بها .

(٣) قائد من قوّاد أحمد بن طولون — كان أحد من روى عنهم ابن الداية سيرة ابن طولون . وقد ترك الديوان بعد موت ابن طولون وتزهّد .

(٤) الصعيد الأوسط — يطلق على الجزء من الصعيد الذى يقع بين أخميم والبهنسا (عن معجم البلدان) .

سَوّارٌ [١] أبو عبد الرحمن العُمَرىّ ، فكتب إلىّ يستخبرُنى عن حاله ، فأعلمتُه ضَعْفَ يده وانتشارَ أمره بقلةِ المال . وقبضتُ على رئيس من الأعرابِ اتّهمتُه بمكاتبته ، وأنهيت خبرَه إليه . فكتب إلىّ أحمدُ بنُ طولون يأمرنى بحمل الأعرابىّ (وقيادةِ) ما قدَرت عليه من النُجُبِ ، والشخوصِ إليه ليقفَ من مشافهتى على مالا تبلغُه المكاتبةُ ، فامتثلت أمره فما سِرتُ مَرْحَلةً [٢] حتّى لحِق بى وجوهُ

---

[١] ورد اسمه فى سيرة أحمد بن طولون للبلوىّ مرّة : عبد الحميد بن عبد الله ابن عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ويكنى أبا عبد الرحمن ، ومرّة عبد الرحمن العمرى ، وجاء اسمه فى اليعقوبى هكذا : عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفى خطط المقريزى هكذا : أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، وذكر فى مكان آخر من هذا الكتاب خاليا من اسم (سوّار) . وكان سبب خروجه أن البجة كانوا قد هجموا على المسلمين فى مصلاهم يوم عيد لهم فقتلوا ونهبوا ثم رجعوا ، فكان لهذا العمرى معهم معارك ثأر للمسلمين منهم فيها ودخل بلاد البجة ولما علم ابن طولون بأمره خاف ازدياد شوكته فبعث إليه أحد قوّاده لإخضاعه . وحاول العمرى إفهام القائد أنه غير خارج فلم يسمع منه ، ووقعت بينهم معركة انتصر فيها العمرى . ثم أهمل ابن طولون أمر العمرى مدّة . حتى حضر إليه أعرابيان يحملان رأس العمرى وكانا من جند العمرى . فلم يرض ابن طولون بفعلتهما وقتلهما . هذا ، وأول بلاد البجة من قرية تعرف بالحربة بينها وبين قوص ثلاث مراحل . وآخرها أول بلاد الحبشة .

[٢] فى الأصل : رحلة ويصعب توجيهها ، وفى سيرة ابن طولون للبلوى فما سرت إلا مرحلة .

تُجّارِ العمل[١] ، ومعهم شابٌّ أعرابىّ . وقالوا لى : جئناك فى أمر هذا الأعرابىِّ المحمولِ ، فإنّ معنا من يبذُل فى إطلاقه خمسمائة دينارٍ . فقلتُ لهم : قد أنهيت أمرَه إلى الأمير . فقال الأعرابىُّ الذى معهم : نخذ الخمسمائةٍ على أنْ تجعلَنى مكانَه . قلت : أفعَلُ . فأحضرتُ الأعرابىَّ ، وكان من عشيرتى ، فقلت له : واللهِ لقد كنتُ مغموما بك حتّى سَرَّنى خلاصُك . قال : بماذا تخلّصتُ ؟ فقلتُ : بذل لى رجلٌ خمسمائةِ دينار على أنْ يكونَ بمكانك وأُطْلِقَك . فقال : ومَنْ هذا الرجل ؟ فأحضرتُه إيّاه ، فلما رآه قال امضِ لشأنك . ثم التفتَ إلىّ فقال : يحسُن بشيخ مثلى أنْ يتربَّحَ فى المعروف[٢] ؟ هذا رجلٌ لقِيتُه وقد أكبَّتْ عليه خيلٌ لتسلُبَه ثيابَه وما كان معه ، ففرّقتُها عنه حتّى تخلَّص ، فرام أن يُخلِّصنى بحصوله فى موضع لايخرُجُ منه أخرَى[٣] الليالى ، وغُرْمٍ[٤]

---

(١) العمل هنا : جزء من المملكة أو الولاية يحكمه حاكم من قبل الخليفة أو الأمير ، يسمى عاملا .

(٢) يتربح الخ : يطلب الربح من وراء ما يبذل من معروف .

(٣) أخرى الليالى : أبد الدهر .

(٤) وغرم : معطوف على بحصوله .

ثقيل على مثله، وهذا[١] ممّا لا أقبلُه ولا أركَنُ إليه . فقلت له : انصرِفْ فى حفظ الله فقد رَضِىَ الرجلُ . فقال : واللهِ لَئِن أمضيْتَ هذا لألحَقَنَّكَ ولأُخبِرَنَّ الأميرَ بصنيعك ! فتوقّفتُ ؛ وبكَى الأعرابىُّ[٢] فقال : إذا كان محبِس الأمير على ماتصِفُ وليس ترجو خلاصًا منه ، فما أعملُ فى عارفتك عندى ؟ وأنا أَنشُدُك اللهَ لمّا[٣] قبِلتَ منّى ما بذلتُه وأعظَمَ منه ، وأزلتَ هذه العارفةَ عن عنقى ! فانّ عارًا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دينٌ من ديون المعروف . فقال له : إذا رأيت رجلا أحاطت به خيل تُريغُ[٤] سَلَبَهُ فذدتَها عنه فقد كافأتَ عارفتى ، آنصرِف مُصاحَبًا[٥] .

فعرض عليه مامعه من المال . فقال : مابى إليه حاجةٌ فأكبَّ على رأسه ورجليه يقبِّلُها ويبكِى . فأبكَى جماعتَنا .

---

(١) فى الأصل : وليس هذا ، وهو تحريف .

(٢) الأعرابىّ : الذى حاول أن يفتدى الأعرابىّ الآخر بنفسه .

(٣) لمّا : إلّا . قال تعالى إن كل نفس لمّا عليها حافظ .

(٤) تريغ : تريد وتطلب .

(٥) انصرف مصاحبا : تعبير شائع فى هذا العهد وما قبله يراد به مصاحبا بالخير والبركة ، أو بمعونة الله أو نحو ذلك .

فلمّا دخلتُ على أحمدَ بنِ طُولون ، شافهته من خبر العُمَرِىِّ بما سرّه . وعرضتُ عليه النُجُبَ ، فقال : حسنةٌ واللهِ! فقلت معى أيّها الأميرُ ماهو أحسنُ من هذا ، وحدّثتُه الحديثَ ، فأحضر الأعرابىَّ وخلَع عليه ، وأثبته فى ديوانه[١] ، وأمرنى بإنفاذ رسولى معه فى [حَمْل][٢] الأعرابىِّ الآخَر . فلما وافَى خلع عليه وأثبته ، فلم يزالا فى خاصّته إلى وفاته .

* * *

وحدّثنى موسَى بنُ مُصلح المعروفُ بأبى مصلح[٣] (وكان هذا من الثِقات عند أحمدَ بنِ طُولون) :

---

(١) وأثبته فى ديوانه : أى أثبت اسمه فى دفتر خاص بمن يجرى عليهم رزق الأمير ، أو الذين يمنحون عطاء فى المواسم والأعياد ونحوها .

(٢) الزيادة التى بين القوسين من البلوىّ .

(٣) سمّاه البلوىّ فى سيرة أحمد بن طولون : موسى بن صالح ، ثم روى هذه القصة مع كثير من التغيير والتصرف .

أنّ أحمدَ كان يُراعِى أمرَ المحبوس حتّى يمضِىَ له حَوْلٌ ، فإذا جازه لم يذكره . وكان يقول لى سِرّا : إذا تبيّنتَ من رجل براءةَ ساحةٍ فسهِّلْ عليه واستأمِرْنى ، فإنى أستعملُ التشدُّدَ للضرورة إليه.

قال موسى بنُ مصلح : وكان فى الحبس رجلٌ قد زاد على سنتين ، منقطعا إلى الله برغبته ، لايسألُنا شيئا من أمره ، وهو يُكبُّ على الصلاة والتسبيح والتضرُّع إلى الله .

فقلت له يوماً : الناسُ يضطربون فى أمورهم ، ويسألوننى إطلاقَ الرُّقْعَةِ إلى ذوِى عناياتهم[١] ، وأنت خارجٌ عن جُملتهم[٢] ! فجَزّانى[٣] خَيْرًا . ورقَّ قلبى عليه ، وكُبر فى نفسى محلُّه ، فخلوت به وقلت له : لو استجزتُ إطلاقَك بغير إذْن لفعلتُ ، ولكن استعِن بى فى أمرك. فقال : والله ما أعرِفُ فى هذا البلدِ غيرَ أبى طالب الخليج (وكان

---

(١) عناياتهم : يريد العناية بهم . وفى سيرة أحمد بن طولون للبلوىّ . ويسألون الخلاص مما يقاسونه بكتب رقعة بشفاعة من يعتنى بأمرهم .

(٢) خارج عن جملتهم : لاتشبههم ولاتفعل فعلهم .

(٣) لم نجد هذا الفعل فى المعجمات ، وإنما قسناه على فدّاه : قال له : جعلت فداك .

هذا الرجل يتولّى شُرْطَتَىْ [١] أحمدَ بن طُولون بمصر) . ولو وصلتُ إليه سرّا أو برسالة ممن يفهَم لرجوتُ سهيلَ أمرى . فقلت له : والله لآتِيَنَّ فى أمرك ما أُخطِر به نفسى [٢] . أنا أُطلِقُك سرّا على أن تُوثقَنى بأيْمانٍ مُحْرِجَة [٣] أنّك لا تهرُبُ عنّى ، ولا تُخْفِرُنى [٤] .

---

(١) كان لأحمد بن طولون شرطتان هما : الشرطة السفلانية ، و يظهر أنها كانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس . والشرطة الفوقانية، و يظهر أنها كانت خاصة بأحوال الطبقة العليا من القواد والجنود والعلماء وعظماء رجال المملكة. وفى سيرة ابن طولون للبلوى : وحدّث نسيم الخادم قال : قلد مولاى الشرطة السفلانية قائدا من قواده ، وقال له : ارفق بالرعية وانشر العدل عليهم واقض حوائجهم وأظهر إكرامهم وصيانتهم وتفقد مصالحهم فإنى أسير بالليل فى محالّهم ، و كل موضع أمرّ به لا يخلو من قارئ أو متهجد أوداع أو ذاكر الله عز وجل ؛ فوفّر علينا دعاءهم لنا واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا .

و يقول لمن يقلّده الشرطة الفوقانية : تشدّد عليهم وأرهبهم منك ولا تكن لهم واغلظ عليهم فانى أسير فى محالّهم فما أمرّ بموضع فأسمع فيه إلا غناء أو سكران معربدا قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر .

وكان لا يقلّد شرطة أسفل إلا الثقات من وجوه قوّاده — وأما تشدده على قوّاده وغلمانه فمشهور .

(٢) فى الأصل : ما أخطر به على نفسى . وأخطر نفسه جعلها خطرا ، والخطر ما يتراهن عليه وقد يخسره صاحبه . وعبارة البلوىّ : والله لأخاطرن فيك بنفسى .

(٣) محرجة : موقعة فى الحرج وهو الإثم ، أى عند الحنث فيها . أو محرجة بتشديد الراء المكسورة أى مضيقة على الحالف السبل للتخلص من يمينه .

(٤) أخفرت الرجل : نقضت عهده وذمامه ، وخفرته أجرته وحفظته .

فقال: إذا كنتُ عندك بمنزلةِ مَنْ يُشَكُّ فيه، فلا حاجةَ لى بإخراجك إيّاى . فوافقتُه من غير يمين ارْتَهَنْتُه بها على أن يُقيم ثلاثةَ أيام ، فأطلقتُه ليلةَ الجُمُعة، وفارقتُه على أن يصيرَ إلىَّ ليلةَ الاثنين. فلمّا كان سَحَرُ يوم السبت وافانى كما [١] فتحتُ بابَ السجن . فلما دخل سجَد وحمِد اللهَ. وقال لى : بعثتُ إلى أبى طالب الخليج امرأةً من أهلنا، وطَوَيْتُ عنه إطلاقى ، وسألتُه أن يَلْطُفَ فى أمرى ، فوعد بذلك، وخلَّفَ المرأةَ حتى ترجِعَ إلىَّ بالجواب ، وركب إلى الأمير عشيَّةَ الجُمُعة ، فأقام إلى قريبٍ من العَتَمَة ، ثم انصرفتْ إلىَّ المرأةُ فقالت: وافَى أبو طالب الأميرَ ، وهو مغموم [٢] ، فقال لى: كلّمتُه ، فقال : واللهِ لقد أذْكرتنى رجلا يحتاج إلى عقوبة ! ثم تقدَّم إلى رجل يصيرُ بك إليه عند جلوسه فى يوم السبت ، ووجّه إلىّ [٣] أن ارْجِعْ

---

(١) يستعمل المؤلف فى هذا الكتاب "كما" بمعنى حينما، وفى سيرة ابن طولون للبلوىّ : لمّا فتحت باب السجن .

(٢) وافى أبو طالب الخ : المراد قابل أبو طالب الأمير وعاد إلى وهو مغموم، والأولى حذف كلمة "الأمير" ، وعبارة البلوى : وافى أبو طالب وهو مغموم. فقال لى . وهى واضحة .

(٣) ووجه : أى أبو طالب الخليج .

إلى الله عزّ وجلّ فى أمرك ، فليتنى لم أتكلّم فيكَ ! فسحَرْتُ [١] مع ما تيقّنتُه فى أمرى ، خوفا ان يأتيَك رسولُه فلا يجدَنى فيَلْحَقَك مكروهٌ منه ، ورأيتُ كلَّ ما يُوعدنى به اسهلَ علىَّ من أن أُخفرَ ظنَّك بى ، وتقديرَك فىّ . فما ترجَّلَ النهارُ [٢] حتى وافَى الرجلُ ، فتسلّمَه منّى . وحضرتُ الدارَ [٣] ، وقد أحضره أحمدُ بنُ طُولون ، ومجلسُه بين الخاصّ والعامّ ، فلمّا رآه بكّتَه بالإجلاب [٤] عليه فى الثغر [٥] . فاعتذر بعذر قَبِلَهُ ولقيَه بالرأفة بضدِّ ما خِفْتُه عليه ، وأطلقه . فكان من آثَرِ إخوانى عندى إلى أن فرّقَتْ الأيامُ بينى وبينه .

* * *

---

(١) سحرت : بكرت فى وقت السحر .

(٢) ترجل النهار : ارتفع .

(٣) الدار : دار الملك حيث يجلس أحمد بن طولون .

(٤) أجلب عليه : جمع الجموع لقتاله وكاد له وتوعّده .

(٥) الثغر : ثغر المملكة : المكان الذى منه يخاف هجوم أعدائها .

وحدّثنى عمّى إسحـاقُ بنُ إبراهيمَ [١] . قال :

انتظرت أبا عبد الله الواسطىّ [٢] . كاتبَ أحمدَ بنِ طُولون فى داره حتّى رجَع من عند أحمـدَ بنِ طُولون ، فأوصل إليه بعضُ الحُجّاب ثَبَتَ مَنْ وقف بالباب [٣] ، فراى فيـه إسماعيلَ بنَ أسباطٍ ، فسأل عنه . فقيل له : وقفَ بالباب طويلا وانصرَف . فقال : إنّ هـذا الرجلَ ممَّن عَمَدَ [٤] هذه المنزلةَ [٥] مدةً طويلة ، ولستُ أشُكُّ أنّ مجيئَه

---

(١) كان من رجال ابن طولون وكبار خاصّته . روى عنـه البلوىّ طرفا من أحوال ابن طولون .

(٢) هو أحمد بن محمد الواسطىّ أبو عبد الله كاتب أحمد بن طولون ، أحد من روى عنهم ابن الداية تاريخ ابن طولون . ولمـا تنكّر الأتراك للمستعين وخلعوه ونفوه إلى واسط ، وقع اختيارهم على ابن طولون ليصحبه فى منفاه ، فعهد بذلك ابن طولون إلى الواسطىّ .

ولمـا حضر ابن طولون إلى مصر نائبا عن باكباك حضر معه الواسطىّ وكان متصلا به جدا . ولمـا وشى ماجور بابن طولون عند الخليفة وكتب الخليفة إليه بطلبه ، أرسل ابن طولون فى هذه المهمة الواسطىّ بهدايا كثيرة فبلغ ما أراد مولاه وثبّت أمره . ولم يكن فى كتّاب أحمد بن طولون أحد أعرف بخدمته ولا أصبر عليهـا من الواسطىّ .

(٣) ثبت من الخ : قائمة بأسمـاء من يطلبون مقابلته .

(٤) عمد : ساد ورأس ، ومنه عميد القوم سيدهم : ورئيسهم ، ولم نجد هذا الفعل فى المعجمات بهذا المعنى ، ولكنّ استعماله صحيح كما رأيت .

(٥) هذه المنزلة : أى المنزلة التى يشغلها الواسطىّ ، وهى شدة اتصاله بابن طولون وما يتبع ذلك من النفوذ والسيطرة .

لحاجة له ، ومن الجميل أن أركَبَ إليه فأقتضِيَه حوائجَه ، وأبلغَ فيها محبّتَهُ. ثم ركِب وسرتُ معه حتى دخلنا دارَ إسماعيلَ بنِ أسباط (وهى التى ملَكها الشيرُ بعده) فرأينا داراً عارية من الستور والفرش ، وتأملْنا مَن فيها من الحَشَم على حالٍ سيئة ، فاستقبله إسماعيلُ بالشكر والدعاء له . فقال له الواسطىُّ : إنّه لا فرقَ بينك الساعةَ عندى فى المرتبة التى كنتَ فيها [1] . ومن جَمالنا فيما أُفضِيَ إلينا أنْ نُحسنَ خلافةَ من تقدَّمنا ، وأن نراهم كالآباء المستحِقّين البِرَّ من أولادهم . وسأله عن حاجته . فقال : أُخبِرُك بها بعد أنْ أُحدِّثَك بشىءٍ يدلُّ على أنَّ المعروفَ ينفعُ عند مُستحِقّه وغيرِ المستوجبين له .

كانت لى (أيّدك الله) دارُ خيل نحو المَنْظَر [2] ، وكنتُ أركَب إليها فى غداة الليلة التى أُعاقِرُ فيها إخوانى [3] ، فرِكبتُ إليها يوماً فألفيتُ

---

(١) إنه لا فرق الخ : الأسلوب السائغ الواضح أن يقال : إنه لا فرق بينك عندى فى الحال التى أنت بها ، والمرتبة التى كنت فيها . أى إنّ فقره لا يقلل مما كان يكنه له الواسطىّ من الإجلال فى أيام عظمته .

(٢) المنظر : بناء فخم أقامه ابن طولون أمام ميدان سباق الخيل ليشاهد منه السباق ، قال القضاعى : وكان عرض الخيل بمصر من عجائب الإسلام .

(٣) أعاقر فيها إخوانى : ألازمهم ، والمراد ملازمتهم فى مجلس الشراب .

فى الصحراء جَمْعًا من العـامّة ، وقد ضاقت بهم ، ومعهـم عاملُ المَعُونة[١] . واستقبلتنى امرأةٌ قد هتكت سِتْرَها ، وكشفتْ شعرَها . فقالت : يا سيِّدى ! أخى وواحدى وكافلى يُعْرَضُ على القتل الساعةَ . فعدَلتُ إلى صاحب المعونة ، وسألتُه عن حال الناس[٢] . فقال : اجتمعنا لضرب خَنَّاقٍ بالسَّوْط . فقلت له بحضرة النـاس : ما حقُّ هـذا إلّا الإحراقُ بالنار ! وأنا أكتُبُ فيه إلى السلطان[٣] . فأعلن الجميعُ بالدعاء لى[٤] ، وانصرفوا . فسألته البَعْثَةَ بالخَنّاق إلىّ ، فوعدنى بذلك فى المَساء .

فلمّـا صلّيْتُ العِشاءَ الآخِرةَ[٥] أنفذ إلىّ منه شابّا مُكْفَهِرَّ الوجه ، لا تخفَى قسوتُه . فقلت له : أَمَا تستحِى من الله

---

(١) المعونة هنا : حفظ الأمن .

(٢) حال الناس : سبب اجتماع الناس .

(٣) أراد بذلك إسماعيل بن أسباط أن يرضى العامّة بإيهامهم أنه سيشدد عليه العقوبة ، وأن يؤجل ضربه بالسياط لينظر فى أمر خلاصه إرضاء للمرأة التى استنجدت به .

(٤) يقال : أعلن الأمر وأعلن به .

(٥) فى الأصل : عشاء الآخرة . ويقال لصلاتى المغرب والعشاء : العشاءان فاذا قيل : العشاء الاخرة تعينت صلاة العشاء .

وتخافه فى طُعْمَتِك [١] ؟ فقال : ياسيِّدى ! أنا أُشْهِدُ الله أنّى لا أُعاود هذا الفعلَ أبداً . فأوصيتُه بخير ، وأضفتُ إليه من أخرجه عن البلد فى حال سَتْر ، وأقمنا بعد ذلك سنين . وتقاصرتْ أمورُنا وتغيّرت أحوالُنا بتقليد إسحاقَ بنِ تميمٍ علينا .

فلما بَلَحْنا [٢] بما نُطالبُ به أشخصنى وأخى أحمدَ إلى الحضرة [٣] فطالبَنا الوزيرُ بما لفّقَهُ ابنُ تميم علينا ، فشكونا إليه شِدّةَ آختلالنا . فقال : فلانُ ! فوافاه رجلٌ بمنزلةٍ أثيرةٍ [٤] عنده ، غليظُ الطبع ، كريهُ الوجه ، تتأملُ الشرَّ فى سجاياه . فقال : استخرِجْ من هذين مائةَ ألفِ دينار اليومَ . فانتزَعَنا من بينِ يديه بفظاظة ، أيْقَنَتْنا بالهَلَكَة ، ثم صار بنا إلى حُجرة له فى دار الوزير . فسألَنا عن بلدنا ونِسْبَتِنا ، فلمّا سمِع "أسباط" سكَن فَوْرُه [٥] ورقَّ قلبُه . وقال : مَن

---

(١) الطعمة : الرزق .

(٢) بلح الرجل : كمنع . بلوحا : أعيا وكلّ .

(٣) الحضرة : دار الخلافة بالعراق .

(٤) أثيرة : مقربة مختارة .

(٥) فوره : ثورانه ، غضبه .

تكونون من إسماعيل ؟ فقلتُ : أنا إسماعيلُ ! فبكَى وانكبَّ على رأسى ورجلى . وقال لى : ياسيدِّى ! أتعرِفنى ؟ قلت لا . قال : أنا الخنّاق الذى أطلقتنى بمصر . ووالله ما خنقت أحدًا بحمد الله بعد إطلاقى ، ولكنَّ شراسةَ طبعى عدلت بى عن الزهادة إلى مادون الخنق ، وهو استخراجى للوزير الاموالَ بالتعذيب ، وقد وجد عندى فيه[1] مالم يجدْه عند غيرى . ثم طعن فى تلك الحجرة[2] فأخرج إلىّ صُندوقا يحملُه غلامان[3] . فقال : فى هذا من المال والحُلِىِّ مانكتفى به ، فقوموا بنا حتى نهرُبَ لئلّا يقعَ بكم بأس . فأعلمتُه أنّا نخافُ فى الهرب تَتَبُّعَ الولد والأهل . فرجع إلى الوزير يبكى بين يديه ، ويحدِّثُه محلَّنا كان[4] ، وما أولَيْناه . فعجِب الوزيرُ من رقّتِه علينا لِما وقف عليه من فظاظته . وكان — شهِد اللهُ — أقوَى الأسباب فى دفع المطالبةِ عنّا .

---

(١) فيه : فى استخراج الأموال بالتعذيب .

(٢) فى تلك الحجرة : فى أحد مخابئ تلك الحجرة .

(٣) يريد صندوقا ثقيلا لا يقوم غلام واحد بحمله .

(٤) محلّنا كان : تعبير شائع فى هذا العهد ، أى ويحدثه خبر ما كان لنا من عظيم المحلّ ورفيع المنزلة .

ثم سأل أبا عبد الله الواسطىَّ بعد هذا الحديث حوائجَ وقَّع بها فى مجلسه ، ووكّل بها متنجِّزًا من خاصّته[١] ، ولم تزَل ألطافُه تعتادُه إلى أنْ تُوُفِّى .

* * *

وحدّثنى يوسفُ بنُ إبراهيم والدى[٢] . قال : حدّثنى إبراهيمُ بنُ المهدىّ[٣] عن إسحاقَ بنِ عيسى بنِ علىّ بنِ عبد الله ابنِ العبّاس[٤] عن أبيه :

---

(١) أى ووكل بهذه الحوائج بعض خاصته لإنجازها وقضائها .

(٢) هو يوسف بن إبراهيم أبو الحسن ، وكان من جِلّة الكتّاب بمصر وكان له مروءة تامة ، وكان فى خدمة إبراهيم بن المهدى ثم رحل إلى دمشق سنة ٢٢٥هـ ، ونزل فيها على عيسى بن حكم الدمشقى الطبيب النسطورىّ ، وروى عنه وعن غيره مثل إسماعيل بن سهل بن نوبخت وجبرائيل بن بختيشوع . وقد غضب عليه ابن طولون وسجنه ثم أفرج عنه . (معجم الأدباء) .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهدىّ بن المنصور ، أخو هارون الرشيد . برع فى الغناء والموسيقا وكان أسود اللون ، لأن أمّه كانت جارية سوداء واسمها شكلة (بفتح الشين المعجمة وكسرها) . بويع له بالخلافة ببغداد بعد المائتين ، وأقام خليفة نحو سنتين ثم خلع . وكانت ولادته سنة اثنتين وستين ومائة . وتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين (ابن خلكان) .

(٤) إسحاق بن عيسى بن على : من ولاة المدينة أيام هارون الرشيد . ولمّا خرج الحسين بن على بن عيسى بن ماهان ودعا إلى المأمون . كان إسحاق من المحرّضين على المأمون (النجوم الزاهرة) .

أنّه كان مع أبي عبد الله محمدِ بنِ علىٍّ [١] أبي الخلفاء برُصافة هشام[٢]، بعد وفاةِ أبي محمدٍ علىِّ بنِ عبدِ الله ، وأنّه أقام ثلاثةَ أشهرٍ برُصافة هشام لا يأذَنُ له هِشامٌ عليه ، إلى أن بلغ أبا عبد الله إجماعُ مَسْلَمَةَ القدومَ علَى هِشامَ ، فتلقّاه على أميال من الرُصافة ، وشكَا إليه جَفْوَةَ هِشام وتأخيرَه الإذنَ عليه . فقال له مَسْلَمَةُ: أرجو أن يزولَ هذا بقدومى، وأمره أنْ يُقيمَ بباب هشام إذا دخل عليه مَسْلَمَةُ، ولا يريم[٣] ما أقام مَسْلَمَةُ عنده ، فأقام أبو عبد الله إلى وقت زوال الشمس .

قال عيسى بن علىٍّ : فخرج مَسْلَمَةُ إليه . فقال له : قوِّضْ رَحْلكَ[٤] أبا عبد الله ! فما لك عنـد الرجل من خَيْر، لأنّى خاطبتُه فى أمرك

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الله بن العبّاس . كان من أجل الناس وأعظمهم قدرا. وكان بينه و بين أبيه أربع عشرة سنة، ومات سنة ١٢٢ هـ وقيل سنة ١٢٥ بالشراة من أرض الشام، وهو ابن ستين سنة . والخلفاء العباسيّون من ولده (المعارف لابن قتيبة) .

(٢) رصافة هشام : فى غربىّ الرَقة ، بينهما أربعة فراسخ ، على طرف البرّية. بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام . وكان ينزلها فى الصيف . وقيل إنها كانت قبل الإسلام بزمن ليس بالقصير ، وإن هشاما إنما عمرها وبنى بها أبنية لسكناه . (معجم البلدان) .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

(٤) قوض رحلك : الرحل المسكن . يريد ارحل فلا فائدة ترجى من هشام .

بعد ما تقضّى سلامى عليه : محمدُ[١] بنُ علىٍّ بنِ عبد الله على شابكةِ[٢] رحِمِه برسول الله (صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) يُقيمُ ثلاثةَ أشهر ببابكَ فلا يؤذنُ له عليك ؟. فقال : آلَهُ عنه ، أبا سعيد . فأمسكتُ حتى حضر الطعامُ ، فأعلمتُه أنّى لا أستجيزُ الأكلَ ، وإنه قائمٌ على الباب. فغضِب غَضَبًا زاد به حَوَلُهُ . وقال : يُسمّى ابنيه عبدَ الله وعبدَ الله ويرجو بهذا أنْ يَليا الخلافة ثم يطمَعُ فى خيرٍ منى ؟ واللهِ لولا ماسَّةُ رَحِمِه برسول الله (صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) لقطعتُ من وَسَطِه شِبْرًا .

ثم عانق أبا عبد الله . وقال : رسولى إليك صائرٌ ، فرجَعَ أبو عبد الله إلى رَحْلِه فقوّضَه وبقِىَ فى حَيْرَةٍ لعجزه عما يُنهِضُه[٣] ، ووافاه رسولُ مَسْلَمَةَ يقول : لم أُقدِّرْ فى سفرى هذا طولَ اللَّبْث . وأُشهِدُ الله أنى ما حملتُ معى إلّا ألفًا وثلثمائةِ دينار ، وقد وجّهْتُ إليك بالألف وخلّفْتُ الثلثمائة لنفقتى .

---

(١) محمد بن على الخ أى قائلا : محمد بن على بن عبد الله الخ .

(٢) شابكة رحمه : اتصال قرابته .

(٣) ينهضه : يكفى مؤنة سفره ورحيله .

قال إبراهيم بنُ المهـدىِّ : فَحُـدِّثَ بهذا الحديث الرشـيدُ [١] فى حَديثَةِ المَـوْصِلِ [٢] فبكَى . وقال : وَصَلَتْ أبا سعيدٍ رَحِمٌ [٣] ! . واللهِ لا دخلتُ الرَقّةَ [٤] حتى أقْضِىَ عارفتَه عندنا . فلما وافينا حِصْنَ مَسْلَمَةَ أحصَى مَنْ فيـه من وَلَدِه الذكورِ والإناثِ فوجدهم أربعين ، فأمر لهم بأربعينَ ألفِ دينار .

* * *

---

(١) الرشيد : أحد عظماء الخلفاء العباسيّين ، بويع فى ربيع الأول سنة ١٧٠ ، ومات بطوس فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . وكان عمره أربعا وأربعين سنة وأربعة أشهر (مروج الذهب) .

(٢) حديثة الموصل : مدينة على طرف دجلة . وكان مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية أول من ألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديوانا ونصب عليها جسرا وهيأ طرقاتها وبنى عليها سورا (معجم البلدان) .

(٣) وصلت أبا سعيد الخ : يقول : يجب أن تصل أبا سعيد القرابات وتعطف عليه كما وصل رحم أبى عبد الله .

(٤) الرقة : مدينة على الفرات من الجانب الشرقى بينها وبين حرّان ثلاثة أيام . ويقال لها الرقة البيضاء . وكان بالجانب الغربى مدينة أخرى تعرف برقة واسط ، كان بها قصران لهشام بن عبد الملك كانا على طريق رصافة هشام .

وهناك أيضا الرقة السوداء : وهى قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة . (معجم البلدان) .

وحدّثنى أحمدُ بنُ وَليـد . قال :

ودَّعْتُ إسحاقَ بنَ نُصَيْرٍ العبادىَّ[١] فى بعض خَرَجاتى إلى بَغْداد ، فأخرجَ إلىَّ ثلاثةَ آلافِ دينار وقال : إذا دخلتَ بَغْداد[٢] ، فادفع ألفَ دينارٍ إلى ثعلب[٣] وألفَ دينار إلى المبرِّد[٤] وصِرْ إلى قصر وَضّاح[٥]

---

(١) هو إسحاق بن نصير النصرانى . كان من كتّاب الخراج فى عهـد ولاية عيسى النوشرى على مصر سـنة ٢٩٢ هـ . وكان رئيس ديوان الخراج حينئـذ الحسين بن أحمد المـاذرائى . (النجوم الزاهرة) .

(٢) وتسمى مدينة السلام ، وأول من أنشأها ومصّرها أبوجعفر المنصور ، وهى إلى الآن عاصمة العراق .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيبانى البغـدادى أبو العباس ثعلب ، إمام الكوفيين فى النحو واللغة — ولد سنة ٢٠٠ وله من التصانيف : المصون فى النحو ومعانى القرآن ، ومعانى الشعر ، وغيرها .

وثقل مسمعه بآخرة ثم صم . وقد دهمته دواب من خلفه وهو لا يسمع فوقع على الأرض ، ثم حمل إلى منزله فمات . وكانت وفاته سنة ٢٩١ هجرية .

(٤) هو محمـد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدى البصرى ، أبو العبـاس المبرد إمام العربية ببغداد . كان فصيحا مفوّها أخباريا صاحب نوادر وطرافة ، وله من التصانيف : الكامل ، والاشتقاق ، وإعراب القرآن ، وغيرها ، وكان مولده سنة ٢١٠ ، ومات سنة ٢٨٥ (بغية الوعاة) .

(٥) قصر بُنى للمهدىّ قرب رصافة بغداد . وقد تولّى النفقة عليه رجل من أهل الأنبار يقال له : وضاح ، فنسب اليه ، وقيل : الوضاح مولى من موالى المنصور ، ويقـال إن قصر وضاح بالكرخ ، وإنه منسوب إلى الوضاح بن شبا الذى كلّفه المنصور بناءه . قال على بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزّه ... إلى قصر وضّاح فبركة زلزل

فانظر إلى أولِ دُكّان للورّاقين [١] فإنك تجدُ صاحبَها (إنْ كان حيّاً لم يمُت) قد شاخَ ، فاجلسْ إليه وقل له : إسحاقُ بنُ نُصَيْر يَقْرأُ عليك السلامَ، وهو الغلام الذى كان يقصِدُك كلَّ عَشِيَّةٍ راجلاً من دار الروميّين بدُرّاعةٍ [٢] وعمامة ونعل رقيقة ، فيستعيرُ منك الكتابَ بعد الكتابِ، فاذا اقتضيتَه كراءَ ما نَسَخَ منه، قال: اصبِرْ عليَّ إلى الصُنْع [٣]، فاذا استقرّتْ معرفتى فى نفسه دفعتَ إليه هذه الألفَ الدينارِ وقلتَ له : هـذه ثمرةُ صبرك علىّ .

قال لى أحمد بن وليد : فلما دخلتُ بغـدادَ ودفعتُ الألفى دينارٍ إلى ثعلبٍ والمبردِّ ، مضيتُ [٤] إلى قصر وضّاح فألفيتُ الدكّان التى وَصَفَ لى قَفْراً ليس فيه [٥] كتاب . ورأيتُ فيها الشيخَ الذى وصَفَه لى فى حال رثّة . وثيابٍ خَلَقَةٍ [٦]، وقد أفضَى به الأمرُ إلى التوريق

---

(١) للوراقين : لباعة الكتب . أو من يسمحون للناس بنسخها بأجر .

(٢) الدراعة : ثوب الى نهاية الظهر من صوف .

(٣) الصنع : الفرج وتيسّر أسباب الرزق .

(٤) فى الأصل : ومضيت .

(٥) فيه : الضمير يعود إلى " قفرًا " .

(٦) خلق الثوب : كنصر وكرم وسمع خلوقة وخلقا (محركة) بلِى ، و الخلق (محركة) : البالى يوصف به المذكر والمؤنث .

للناس [١] فجلستُ إليه وسألتُه عن حاله . فقال : يا أخى ! ما ظنُّك بحالٍ ما تتأمَّلُه فىَّ أَحْسَنُ ما فيها ؟

ثم خرجنا من [٢] المَسْألةِ إلى أشياءَ كان فيها خبرُ إسحاقَ بنِ نُصَيْر . فقال : قد كان يجيئُنى من دار الروميينّ غلامٌ (وَوَصَفَهُ) فأسمَحُ له بالنُسخة بعـدَ النسخة، يقال له : إسحاقُ ، وكان يَعِدُنى فى كلِّ شىء يأخذُه إلى الصُنْع ،وأُخبِرْتُ أنّه وقع بنواحى مِصر ، وماحصل لى منه شىءٌ ! فأخرجتُ الألفَ الدينار وقلتُ له ، يقول لك : "هذه ثمرةُ صبرك" . فكاد واللهِ يموت فرحًا . فقلت له : ليست دراهمَ وهى دنانيرُ ،وانصرفت عنـه وهو أحسنُ مَن فى سوقه حالاً .

قال لى أحمـدُ بنُ وَلِيدٍ : واجتزتُ بعد ذلك فرأيت دُكّانه معمورةً وهو متصدِّرٌ فيها على أحسن حال وأوفاها

*
* *

---

(١) التوريق للناس : نسخ الكتب لهم بأجر .

(٢) من : فى الأصل " إلى " .

وكان بنحو دار العُنقود شيخٌ يتنخّسُ[١] فى الدوابِّ ، يُعرف بابنِ الزنَق قد لحِقَ بمصر أكابرَها ، ورأيتُه فى أيام أحمدَ بنِ طُولون قد علَتْ سِنُّه ، وضعُف عن التصرُّف ، وكان له ابن أخت خفيفُ الرُوح مقبولُ الصورة ، حُلْوُ الألفاظ ، يتنخَّس فى الدوابِّ . فخفَّ على قلب القاسم بنِ شُعبة . (وكان شعبةُ من أكابر أصحاب أحمدَ ابنِ طُولون، ومات فى طاعته ،فردّ إلى القاسم ابنِه إحدى الشُرْطَتَيْن بمصر[٢]) فانصرف ابنُ أختِ ابنِ الزنَق من عند القاسم، وقد خلَع عليه دُرّاعةَ خَزٍّ من تحتها جُبَّةُ مُلْحَمٍ[٣] . فنظر إليها خالُه ابنُ الزنَق . فقال : ماهذه الخِلعةُ الرائعةُ ؟ فقال : خلَعَها علىَّ القائدُ (يريدالقاسمَ ابنَ شُعْبة) . فقال : يابُنَىَّ إنْ كنتَ تصبِرُ على التدلّى[٤] معه فى محَنِه، كما تَدَلَّى[٥] فى نِعَمِه ، وإلّا فاعتزِلْه ولا تفضَحْنا بالقعود عنه

---

(١) النخّاس بياع الدوابّ والرقيق ، من نخس الدابة (كنصر وجعل) والاسم النخاسة (بالكسر والفتح) ولم نجد " يتنخس " فيما بأيدينا من المعجمات .

(٢) انظر صفحة ١٧ .

(٣) ملحم : نوع ثمين من الثياب .

(٤) التدلى معه : الهبوط معه .

(٥) كما تدلى : أى تتدلى ، حذفت منه تاء المضارعة ، والتدلى هنا : التدلل و إظهار العظمة .

فى نوائبه . فقال : أرجو أن يصونه الله وما أنعم عليه به من نائبةٍ تلحقُه ، أو مكروهٍ يقعُ به . فقال : وأنا أرجو هذا أيضاً له ، ولكن ينبغى ألّا تنسى نصيبه [1] منك فى الشدّة ، كما عُنِىَ بك فى النعمة . واتصل بأحمدَ بنِ طُولون عن القاسم بنِ شُعْبَةَ شىءٌ أنكره ، فحبسه ووكّل بداره جماعةً ، وآختفى النخّاس فى دار خاله ، فسأله بعد يومين عن سبب ملازمته المنزلَ . فقال : وجدت علّةً . إلى أن آتّصل الخبرُ بالشيخ ، فدخل إلى ابنِ أخته فقال : قَبَحَك الله ! سَرَقْتَ معروفَ هذا القائدِ ، وخلّيْتَه يُقارع شَجْوَه بِمِحْنَتِه ! وأسرَجَ حِماراً له وركبه ، وجيرانُه يُناشدونه اللهَ ألّا يفعلَ . فقال : واللهِ القتلُ أحسنُ مما أتَى به هذا الوَغْدُ ! ثم قصد دارَ القاسِمِ بنِ شُعْبَةَ وعليها جماعةٌ من المُوَكّلين وأصحابِ الأخبارِ [2] . فوقف على الباب فقال : كيف حالُ القائدِ ابى محمدٍ أيّده اللهُ ؟ فقالوا : اِمْضِ يا شيخُ . فقال : ما أمضى حتّى أُبْلِىَ [3] عُذْراً ، هذا رجل قد لَزِمَتْنى له عارفةٌ ، وهذا أوانُ قضائِها .

---

(١) الا تنسى نصيبه منك . أى فضل القاسم عليك .

(٢) أصحاب الأخبار : الجواسيس ، وقد كثروا جدا فى عهد ابن طولون لشدّة رغبته فى معرفة أحوال الناس وتعقب أعدائه .

(٣) أبلى الرجل عذرا : أدّى ما عليه من الواجب فارتفع عنه اللوم .

فوقع خبرُه إلى أحمدَ بنِ طُولون فأحضره ، وقال : ما كنتَ تعملُه للقاسم بنِ شُعْبَةَ ؟ قال : أَوْلانى فى بعض أقاربى جميلاً ، فانتصبْتُ الساعةَ لما يَحتاج إليه . وما أحقَّ الأميرَ أنْ يَفْضُلَنى بحسنِ المكافأة عن طاعة والده له ، فقد كان مشهورا بها !

فحدَّثنى أبو العبّاس الطَرَسُّوسى. أنّ أحمدَ بنَ طُولون قال له فى هذا المجلِس : ما أحْسَنَ ما اهتدى هذا الشيخُ إلى إذكارى بحقِّ قاسم وعَطْفى عليه ! . ثم أحْضَرَ القاسمَ بنَ شُعْبَةَ وخلَع عليه خِلْعَةَ رضًا ، وصرفه إلى منزله .

وعَدَلَ الشيخُ ولم يدخلْ معه دارَه، وانصرف إلى بيته وقد قام بما قعد عنه ابنُ أُخته .

***

وحدّثنى هارونُ بنُ مَلُّول . قال :

لمّا مات أبى ورِثْتُ منه مالاً جَمًّا ، ومُسْتَغَلَّاتٍ نفيسةً ، وكان يقصُرُنى على زِىِّ التُجّار ، ويمنعُنى من التخرُّق [1]

---

[1] التخرق : كثرة البذل والتوسع فى الإنفاق .

والسَرَف فى الهيئة ، فعمَدتُ إلى أثوابِ وَشْيٍ سعيديٍّ [١] كانت فى المتاجر التى خلّفها والدى فقطعتُها . وقطعت لخدمٍ أرتبطُهم [٢] للتجارة من المُلْحَم [٣] والدِيباج [٤] مالا يتسمَّحُ به أحد من أبناء الترفُّه . وجلستُ فى الوَشْى ، وقام الغلمانُ بين يدىّ فيما قطعتُه لهم .

ووافانا إسحاقُ بنُ إبراهيم مُفْتَقداً ، فتأمّلنى فقال : لقد سرّنى بُعْدُ قيمتك [٥] ، وحُسنُ زِيّك ، بارك الله عليك ، وأحسن إليك . ثم وافانى جماعةٌ من إخوان أبى وأصفيائه ، فو اللهِ ما أنكر علىّ واحدٌ منهم ماخرجتُ إليه [٦] من زِىٍّ أسلافى . فلمّا كان فى عَشىٍّ ذلك اليومِ وافانى رسولُ إسحاقَ بنِ إبراهيم بنِ تميم :

---

(١) الوشى السعيدى : نوع من الوشى ثمين يصنع باليمن .

(٢) أرتبطهم : أحتجزهم وأخصّصهم .

( ) الملحم : انظر الصفحة ٢٨

(٤) الديباج : ضرب من الحرير منقوش .

(٥) بعد قيمتك : ارتفاع منزلتك ، وفى الأصل كتب هكذا " تيمتك " فاستظهرنا أنّ رأس القاف قد محى .

(٦) ما خرجت إليه : المعروف : خرج على كذا : عاداه وحاربه :

عندى[١] مَنْ لاتحتشمُه فتُؤنِسُ جماعتَنا بحضورك ، فقد أعجبنى اليومَ حُسْنُ زِيِّك" . فزدتُ فى الخِلْعَة وركِبت. فلمّا دخلتُ إليه لم أفقِد عندَه أحداً من إخوان والدى[٢] ، فلمّا توسّطتُ الصحنَ ابتدرنى الغِلْمانُ ، وصاح بى إسحاقُ : "تتوهَّم يا جاهلُ أنّ أباك مضَى واسترحتَ ! ولا تعلم أنّ أباك خلّف لك هؤلاء الآباءَ[٣] بأَسْرِهم يردُّونك عن الخطأ بأليم العقوبة ، ولا يَشفعون فى مصلحتك من عظيمٍ ما كان أبوك يَرِقُّ عنه فيك[٤] ! " . ثم بُطِحْتُ فى وَسْطِ الدار ، فصِحتُ بهم : يا ساداتى ! والله ما قُرِعْتُ قطُّ بِمقْرَعة ! فقال إسحاق : ولا أتيتَ بمثل هذا الفعلِ ! وضُرِبت ضرباً مُبرِّحًا ، ولم تُرفَعِ المِقرعة عنّى حتى حلَفتُ لهم ألّا أزيدَ على مَعْرِض والدى واقتصاده . فأقمتُ على هذا إلى اليوم .

وما زال عنه إلى أن تُوُفِّى .

* * *

---

(١) عندى الخ : أى قائلا عندى الخ، وقد سبق للمؤلف مثل هذا الأسلوب .

(٢) لم أفقد الخ : أى إنه رأى عنده إخوان والده جميعا .

(٣) هؤلاء الآباء : يقصد إخوان أبيه وأصفياءه .

(٤) ولا يشفعون إلخ : أى ولا يتسامحون لأجل مصلحتك فى ذنب عظيم لم يكن أبوك ليتجاوز عنه فى سبيل إصلاحك .

ولمّا استفحَلَ أمرُ ابنِ الخليج [١] انحاز عنه جيشُ مصر إلى الإسكندرية، وخلا الفُسطاط [٢] منهم، وكنت بمدينة أَهناس [٣]، واضطربتِ النواحى، واحتجتُ إلى مشاهدة الفُسطاط. فتَخَفَّرتُ بأربعة نفرٍ من القَيْسِيّة [٤]، دفعتُ إليهم عشرين ديناراً، وخرجتُ معهم فأحسنوا العشرة وأجملوا الصُحْبة. وكنّا لا نجتاز بحىٍّ ولا جماعة

---

(١) هو محمد بن على، يسميه بعض المؤرخين مرة بالخلنجى، ومرة بالخليجى، وثالثة بالخليج. كان من جنود مصر نخطر له، بعد زوال الدولة الطولونية، أن يظهر النصرة لهم، فتبعه جماعة، وحارب والى مصر عيسى النوشرى، فانتقل عيسى إلى برا الجيزة، فبقيت مصر بلا وال، وأصبحت مأكلة للغوغاء يهجمون على البيوت وينهبون الأموال. ودخل مصر سنة ٢٩٢ ثم فتح الاسكندرية ثم جاء جيش من العراق فأدبر أمره وانهزم وقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣

(٢) كان عمرو بن العاص عند غزوه مصر قد نصب له فسطاطا قبل الحصن، فلما تمّ له فتح مصر واستأذن عمر بن الخطاب فى السكنى، قال له عمر: لا تنزل بالمسلمين منزلا يحول بينى وبينهم فيه نهر ولا بحر، فاستشار عمرو أصحابه. فقالوا: نرجع إلى فسطاطك فنكون على ماء وفسطاط. فرجعوا فسميت البقعة بالفسطاط وهى حول مسجد عمرو بالمكان المعروف بمصر العتيقة.

(٣) مدينة أهناس "بالفتح": مدينة قديمة على الشاطئ الغربىّ من النيل قريبة من الفسطاط.

(٤) أعراب القيسيّة: كان بمصر صنفان من العرب: يمنيّة، وأكثر القادمين على مصر لفتحها كانوا من اليمنيّة. وقد ورد على مصر بعد ذلك قوم من القيسيّة من مضر فى خلافة هشام بن عبد الملك، ثم تتابع وفودهم إلى مصر.

إلّا كَفَوْنا مُؤْنَةَ كلامهم ، وصدَفوا [١] عنا بأسَهَمْ . ولم يزَل كذلك دأْبُنا حتى بلغنا قصرَ الجيزة . فأقبلت رَعْلةٌ [٢] من الأعراب قدّرتُها برأْى العَيْن خمسين فارسًا ، كانت من غير حَيِّهم . فصمَّمَتْ نحوَنا برماحها ، وعمِلت على نهْبِنا وقتلِنا ، ورأيتُ الموتَ فى أسنَّتِهم . وأحسن الأربعةُ الذين تخفَّرْنا بهم لقاءها والتَضرَّعَ إليهم ، وناشدوهم ألّا يُخْفِروا ذِمّتَهم [٣] ، وأَجملوا التأتِّىَ [٤] حتى انصرفوا . وجدَدْنا فى السير حتى انتهينا إلى حىِّ المُخفِّرين [٥] لنا . فقال المُخفِّرون : قد بلغتَ إلى من تأمَنُه فحُطَّ رحلَك ، فما تستقلُّ [٦] دوابُّك الزيادةَ على هذا السير . فنزلتُ وتقدّمتُ إلى الغلمان فى إطعامهم ، ولم أجِدْ

---

(١) صدفوا : صرفوا .

(٢) رعلة : قطعة قليلة من الخيل كالرعيل ، أو مقدّمة الخيل ، أو قدر العشرين أو الخمسة والعشرين ؛ جمعها رعال وأرعال وأراعيل .

(٣) يخفروا ذمتهم : يكونوا سببا فى نقض عهدهم .

(٤) التأنى : فى الأصل : التأنى .

(٥) المخفرين : خفّره بالتشديد : خفره .

(٦) تستقل : تطيق .

للطعام مَساغاً من فَرْط مالحِقنى من الرَّوْع . وعمِلت فى المُخفِّرين هذه الأبيات :

جزَى الله خيراً مَعْشراً حَقَنُوا دَمِى ... وقد شُرِعَتْ نحوى المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

دَراهِمُهُمْ مبـذولةٌ لضعيفِهم ... وأعراضُهم من دونها الغَفْرُ[1] والسِّتْرُ

إذا ما أغاروا واستباحوا غَنِيمةً ... أَغار عليهم فى رحالِهم[2] الشُّكْرُ

وإنْ نزلوا قُطْراً من الأرض شاسِعاً ... فما ضَرَّهُ ألّا يكونَ به[3] قَطْرُ

فلحَظَنى واحدٌ منهم، وأنا أكتُبها ، فظنَّ أنّى أكتُبُ إلى السلطان، فأَشْتَكِى ما كان من الفُرْسان الذين لَقُونا بقصر الجيزة . فقال : قد سلَّمك اللهُ من أولئك القوم ، وقد أحسنوا إلينا فى حُسْنِ الإجابة لنا، فلا تكْتُبْ فيهم بشىء . فقلت واللهِ ما كتَبْتُ فيهم ولا فى غيرهم إلى السلطان بشىء ! فقال لى شيخ من المُخفِّرين (وقد قَرُبَ منى) : فما تكْتُب ؟ قلت : أكْتُبُ أبياتا مَدَحْتُكم فيها . فقال : وإنّك

---

(١) الغفر : السَتر . وأغلب الظن أنه يريد بالأعراض هنا النساء .

(٢) أغار عليهم الخ : أى هجم عليهم شكر الناس من كل مكان لأنهم يبذلون ما نالوه من غنائم .

(٣) به : فى الأصل بها ، ويمكن توجيهه .

لتقرِضُ الشِعر ؟ قلت : نعم . قال : أنشِدنى على اسم الله . فأنشدته إيّاها . فقال : بَرَكَ اللهُ ووصَلَكَ ! ثم صاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا أنشدهم إيّاها فما خَرَمَ — شهد اللهُ — حَرفاً واحداً ، فعجِبتُ من حِفظِه لها ، ولم أُعِدْ عليه حرفا منها . وتَبَيَّنْتُ الفرحَ فى سائِرهم ، وحفِظوها بأجمعهم . ثم صاح بهم الشيخ : ما تنتظرون ؟ ارْحَضوا [1] السَوْأَةَ عنكم ! فأدخلوا أيديَهم فى جيوبهم ، وجمعوا شيئا أخذه الشيخُ منهم . ثم قال لى : قد شكرنا صنيعتَك ، واللهِ لا نجمَعُ بين شِعْرِك ووَفْرِك ! ووضع العشرين الدينار بين يديه ، فأكبرتُ ذلك وأعظمتُه . فقالوا لى : الصوابُ ألّا يعلمَ بها عشيرتُنا فيرجِعَ عليك منها أكثرُ مما خِفْتَه ممّن لَقيَك بقصر الجيزة [2] ، وركِبْتُ فسرتُ مع جَمْعٍ كثير منهم ، وهم يُنْشِدون تلكَ الأبياتَ . فالتمستُ أن يقبلَوا منى بِرًّا فلم أصِلْ إلى ذلك ، ورأوْا أنّ الشِعْرَ أحسنُ مَوْقِعا مما مَلَكْتُه .

* * *

---

(١) ارحضوا : رحض القذر كمنع : غسله وأزاله . كارحضه ، والكلام على المجاز ، يقول : أزيلوا عنكم العار وهو أن تحرسوا مالِ شاعرا قال فى مديحكم شعرا .

(٢) الصواب ألا يعلم الخ . نصحوه بألا يذيع أنه عرض عليهم مالا لحراسته وإلا آذته عشيرتهم لو علموا بذلك بعد أن شاع مدحه لهم فان مجرد عرض المال عليهم بعد مدحهم يعدّ أكبر مذمّة لهم .

ونزل فى حارتنا غُلامٌ أَمْرَدُ تأخُذُه العَيْنُ [١] ، وكنتُ أُسَلِّمُ عليه إذا اجتزْتُ به كما أفعلُ هذا بغيره من جيرتى . فانصرفتُ يوماً إلى منزلى ، فوجدتُه قائما على بابه ، فدفع إلىَّ رُقْعَةً يذكُر فيها أنّه عَبّاسىّ من ولد المأمون ، ويسألُنى فيها بِرَّه . ودخل مَنْ كان معى بدخولى ، فقضيت شُغْلى بالجماعة حتّى انصرفوا ، ووُضِعَتِ المائدةُ بينى وبين العبّاسىِّ فأكلنا ، وهو يتأمَّلُنى فلا يجِدُ فىّ شيئا قَدَّره . فلمّا غسَل يدَه دفعتُ إليه ثلاثةَ دنانيرَ ، واعتذرت إليه من تقصيرى فى حقِّه وانصرف ، وقد رأيتُ تجيلى فى حَماليقِ [٢] عينيه .

فلمّا كان بعد ذلك بسُنَيّاتٍ [٣] ، وأنا فى ضِياع تَقَبّلْتُ [٤] بها ، ولى فيها غَلّةٌ بمال جسيم ، نِفِقْتُ أن أدخُلَ الفُسْطاطَ

---

(١) تأخذه العين : تتجه إليه فى إعجاب اشدّة جماله .

(٢) حملاق العين بالكسر والضم : له معان منها بياض المقلة .

(٣) سنيات : سنوات قليلة .

(٤) قبل العامل بالعمل كنصر وسمع وضرب قبالة (بالفتح) تكفّل به وضمن إنجازه ، وقبّلت العامل العمل فتقبّله طلبت إليه أن يكفل إتمامه . فقبل الكفالة وتعبير المؤلف (تقبل به) والقبالة فى هذا العهد كانت أن يأخذ الرجل أرضا من السلطان أو غيره على أن يؤدى كل سنة كذا قنطارا أو كذا إردبا .

فَتَخْرَبَ الضِياع وتتعطّلَ عِمارتها ، فكنت أكمُنُ نهاراً فى بعض منازل الفلّاحين ، وأظهَرُ ليلًا فأعقدُ [١] منها ما تهيّأ لى عَقْدُه .

فإنّى لكامنٌ فى يوم من الأيام حتّى سمِعتُ رجّةً شديدةً ، فدخَل إلَىّ بعضُ غِلمانى . فقال : دخل أصحاب دَمْيانةَ [٢] الضَيْعَةَ وعمِلوا على نَقْلِ الغَلّاتِ . وأيقنْتُ بتلف أكثرِ ما أملِكه ، ثم سَكَنَتْ أصواتُهم ، ودخل إلىّ غلام لى . فقال لى : يا مولاى ! كانت هذه الضِياعُ قد أشْفَتْ [٣] على نقل ما فيها ، حتى نَظَر إلىّ العَبّاسىُّ الذى كان فى جِوارنا . فقال لى : ألستَ غُلامَ أحمدَ بنِ يُوسُف ؟ قلت : نعم . قال : فهذه ضِياعُه ؟ قلتُ : نعم . فصاح بالجماعة التى دخلتْ من أصحاب دَمْيانةَ : " اخرُجوا بأسْرِكم عَنْها " فخرجوا

---

[١] أعقد : أجمع من حاصلها .

[٢] هو دميانة البحرى ، غلام يازمان . كان من القواد البحريين استدعاه محمد بن سليمان الكاتب أن يقفل بمراكبه إلى مصر فى ولاية شيبان بن أحمد بن طولون . فوصل إليها فى ثمانية عشر مركبا حربيا مشحوناً بالرجال والسلاح ، وذلك فى صفر سنة ٢٩٢ و بعد أن دمّر كثيرا من قراها ونهب كثيراً من أموالها أمره عيسى النوشرى بالانصراف والرحيل عنها (النجوم الزاهرة) .

[٣] أشفت : أشرفت وأوشكت . يقول : كاد أصحاب دميانة ينتهون من نقل كل ما فى الضياع من الغلة .

ثم قال لى : قل لمولاك يا سيِّدى محلّى عند الأمير دَمْيانَةَ مَحَلَّ الأخ، فاظْهَرْ واركَبْ إليه فقد آمَنك اللهُ على نفسك ومالك .

فسألت الغلام ما كان زِيُّه؟ فقال : كان عليه كساءُ صوفٍ مما يُنام فيه، وتحته خُفْتانٌ[1] فأحضرتُ بعضَ مشايخ الضَيْعَة ، وحملت إليه دُرّاعة خَزٍّ حُلِيَّةً ومُطْرَفَ[2] خَزٍّ وخمسين دينارًا، وسألتُه أن يقبَل مايحتاجُ إليه من ناحيتى. فَقَبِل الدُّرّاعةَ الخَزَّ وردَّ المُطْرَفَ والدنانير. وقال لرسولى : واللهِ لَثلاثةُ الدنانير التى وهبها لى لِشَرَفى لا لشىء مما ظننتُه به أحسنُ مَوْقِعًا عندى مما رددتُه إليه ! فكثَّر اللهُ فى الناسِ مثلَه !

فلم يزَل عَضُدًا لى وسِترًا علىّ حتى آنصرف دَمْيانَةُ عن الناحية .

* * *

وحدثنى يحيَى بنُ الفُضَيْل[3] عن يحيَى بن نجة (وكان هذا الرجل حسن الكتابة) . قال :

---

(١) خفتان : ثوب كانت تلبسه الجنود عادة . جاء فى سيرة البلوىّ : وعليهم الخفاتين والمناطق .

(٢) المطرف بصيغة اسم المفعول : رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٣) شاعر مصرى قال فى هجاء عنبسة بن إسحاق الذى ولى مصر سنة ٢٣٨ :

خارجيًا يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعا صوابا

تردّدتُ إلى عُمَرَ بنِ فَرَجٍ الرُّخَجِيِّ[١] مدةً ، فدخلت عليه فى يوم من الأيام . فقال : قد أنضيناك[٢] ! قد استَتَمَّتْ فى هـذا اليومِ سنةٌ ! ووقّع لى بتقليدِ عَمَلٍ سَنِيٍّ . واضطربتُ فيما أحتاج إلى التجهُّزِ به . فلمّـا لم يَبْقَ علىَّ إلّا نَصُّ رِكابى[٣] بَرَّزْتُ ظهـرى[٤]

---

(١) هو عمر بن فرج بن زياد الرخجى ، والرخجى : نسبة إلى رخج ، كورة ومدينة من نواحى كابل بأفغانستان . وكان زياد جد عمر من سبى معن بن زائدة فى غزوة رخج ، كما كان أبوه فرج مملوكا لحمدونة بنت الرشيد ولحق ولاؤه بالرشيد فولّاه الأهواز ثم عزله عنها وكان عمر وأبوه فرج من أعيان الكتّاب أيام المـأمون إلى أيام المتوكل ، وكان عمر واليا على دمشق للمعتصم بن الرشيد . ولمـا توفى الواثق وتولى المتوكل أمر بحبس عمر هذا سنة ٢٣٣ . وفى هذه السـنة توفى عمر (الوزراء — معجم البلدان) .

(٢) أنضيناك : سببنالك الهزال من طول ما سعيت وترددت علينا فى طلب عمل لك .

(٣) نص ركابى : نص الرجل ناقته : استخرج أسرع ما عندها من السير . والركاب : الإبل واحدتها راحلة : يقول إنه تجهز ولم يبق إلا الإسراع بالسفر إلى مكان عمله .

(٤) الظهر : الإبل .

وثَقَلى [١] ووقفتُ على بابِ دار أميرِ المؤمنين المنتصرِ [٢] أنتظرُ توديعَ عُمَرَ والخروجَ إلى عملى ، فرأيت غِلمانَ عُمَرَ يتسلّلون ، فسألتُ عن السبب فقيل لى: سخِط أميرُ المؤمنين على عُمَرَ ، فحَزِنْتُ وخِفتُ أنْ أرجِع إلى منزلى فأخسرَ جَميعَ ما أنفقتُه ، فانّى لفى تلك الحَيْرةِ حتّى خرج عُمَرُ بنُ فَرَج ومعه رجلٌ من شِيعة بنى العبّاس . فقال لى : [٣] أين كُلُّ مَنْ كان معى ؟ فقلتُ : تسلّلوا للحادث ! فقال : وقد وُكِّل بى هـذا الشِيعىُّ على أنْ يَنفِيَنى إلى بلاد الترك ؛ ولم أُعِدّ شيئا ولا أجدُ منْ يُعِدُّه لى . قلت : هـذه قُبّةٌ [٤] وظَهْر [٥]

---

(١) الثقل : متاع المسافر وحشمه .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جعفر المنتصر . بويع له بالخلافة بعد قتل المتوكل فى شوال سنـة ٢٤٧ وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة . ومات سنة ٢٤٨ . وكانت خلافته ستة أشهر . ومما يؤثر عنه أنه تقدم بالكف عن آل أبى طالب بعد أن كانوا يضطهدون وترك البحث عن أخبارهم وأمر ألا يمنع أحد من زيارة الحيرة حيث قبر الحسين رضى الله عنه (مروج الذهب) .

(٣) فقال لى : أى عمر بن فرج .

(٤) القبة : هنا رحل له عيدان تنصب وتغطى بالثياب ونحوها لمنع الحر والبرد

(٥) ظهر : ناقة .

تُقِلُّك ، وأنا أصحَبُك شكراً على ما أسلفتنى من التقليد . فركِب القُبّة وأحضر الشِيعىُّ قُبّةً ، وركِبنا وأنا أُعادلُه .[١] ؛ وانتهَى المسير بنا إلى خُراسانَ[٢] ، وكنّا لا نُفضى من بُلدان خُراسانَ إلى بلد إلّا وجدناه أغلظَ طبعا من البلد الذى فارقناه ، حتى بلغنا بُخارَى[٣] ؛ فرأينا قومًا فى نهايةٍ من غِلَظِ الطِباع . فقال لى مُذْ رآنى أتعجَّبُ منهم : كيف لو رأيتَ التركَ وبُلدانَهم ؟ يقتلون المستجير بهم ويُغير بعضُهم على بعض فيهلِكُ النازعُ إليهم بينهم . فزادنى هذا القولُ تهيُّباً للسير معه . ثم ملكتُ ما استغربَ[٤] منى وتماسكتُ ، وجدّ بنا السيرُ عن بُخارَى إلى أرض الترك ، وإنى معه فى القُبّة وهو يحدثنى بشىء قد شغَلنى عن تَبَيُّنِه ما يُقلقُنى من رُكوب ما أقدمتُ عليه من الخَطَر ، حتى سمِعنا

---

(١) أعادله : أجلس فى الجانب المعادل له .

(٢) خراسان : بلاد واسعة ، أوّل حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند ، وتشتمل على أمهات من البلاد ، منها نيسابور وهراة ومرو وغيرها . وكانت مرو قصبتها (معجم البلدان) .

(٣) من أعظم مدن ما وراء النهر ، بينها وبين سمرقند ثمانية أيام ، نبغ منها عدد عظيم من رجال الاسلام فى كل علم وفن .

(٤) ملكت ما استغرب منى : قدرت على كبح دمعى . يقال : استغرب الدمع : سال .

حَلَقَ البريد ، فتشوّفْنا لها[١] ، ووافَى بها رسولُ أمير المؤمنين و كتابُه بما أَمَرَهُ[٢] بالحضرة من الرِضا عنه ورَدِّه إلى مرتبته ، و يأمُره فيه بكشْفِ مدن خُراسانَ وتجريدِ عُقُودها[٣] على أصوبِ ما استقرّتْ عليه ، واستثارةِ التوفير بها والزيادةِ فيها .

فلما استتمّ قراءته ، حمِد الله وألقى الكتابَ إليّ . وقال : بارك اللهُ لك فى الخلاص وهنأكَ المَزِيدَ ! وردّ إليّ تأمُّلَ[٤] ما أمر به أميرُ المؤمنين من كشف عُقود النواحى .

فانصرفتُ إلى منزلى بمائةِ ألفِ دينارٍ ، مع آرتهان شكر المُعاملين[٥] وإحمادِ السلطان .

* * *

(١) لها : أعاد الضمير مؤنثا على البريد لأنه يريد خيل البريد .

(٢) أمره : المعروف : أمر به .

(٣) بكشف مدن الخ : المراد بكشف المدن هنا : التحقق من مقدار مساحة الأراضى التى يؤدى عنها الزراع خراجا للخليفة ، والمراد بتجريد العقود : تخليص عقود القبالات التى التزم الزراع فيها أداء مقدار معين من غلتها إلى الخليفة ، من كل غش وتدليس .

(٤) ورد إلى تأمل الخ : وكلفنى النظر فيما أمر به الخليفة من التحقق من صحة عقود الزراع ومقدار مالديهم من الأراضى .

(٥) المعاملين : يراد بهذه الكلمة : من يعملون فى أرض الدولة على أن يؤدوا إلى السلطان فى كلّ سنة مقدارا معينا من غلتها .

وحدّثنا أحمدُ بنُ يُوسُف[١] . قال :

حبَس أحمدُ بنُ طُولون يُوسُفَ بنَ إبراهيم والدى فى بعض داره ، (وكان اعتِقالُ الرجل فى داره يُؤْيِسُ من خلاصه) فكاد سِتْرُه ينهتكُ لخوفِ شَمِله .

وكان له جماعةٌ من أبناء السَّتْر[٢] يتحمّل مُؤَنَهَا مُقيمةٌ عليه لا تنقطع إلى غيره . فاجتمعوا وكانوا زُهاءَ ثلاثين رجلاً[٣] ، فرِكبوا إلى دار أحمدَ

---

(١) حدثنا الخ : يراد بضمير المتكلم : راوى الكتاب وهو عبد الله الفرغانى ، وأحمد بن يوسف : هو المؤلف .

(٢) أبناء الستر : يراد بأبناء الستر والمستورين : الفقراء الذين يظهرون التجمّل تعفّفا ويمنعهم شممهم من السؤال . جاء فى كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوىّ : وحدّث إبراهيم بن قراطغان ، وكان على صدقات أحمد بن طولون ، قال : قلت للأمير : أيّد الله الأمير ! إنّا نقف فى المواضع التى جرت العادة بصدقة الأمير على من فيها من المستورين والمستورات فتخرج إلينا الكف الناعمة المخضوبة نقشا أو تظاريف والمعصم الرائع وفى الأصبع الخاتم الذهب . فقال لى : ياهذا ! كلّ من مدّ إليك يده فأعطه ، فهذه هى الطبقة المستورة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه فقال : "يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا" .

(٣) ثلاثين رجلا ؛ فى السيرة للبلوىّ : وكانوا نحو مائة رجل .

ابنِ طُولون ، فوقفوا ببابٍ له يُعرَف بباب الجبل [١] ، واستأذنوا عليه، فأذن لهم فدخلوا إليه، وعنده محمدُ بنُ عبد الله بنِ عبد الحَكَم [٢] وجماعةٌ من أعلام مستورى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : قد اتّفَقَ لنا (أيّد اللهُ الأمير) من حضور هذه الجماعة مجلِسَه مارجوْنا أنْ يكونَ ذَريعةً إلى ما نأمُلُه . ونحن نرغَب إلى الأمير فى أنْ يسأَلها عنّا ليقفَ على منازلنا . فسألهم عنهم ، فقالوا : قد عُرِضَتِ العدالةُ [٣] على أكثرِهم فامتنع منها . فأمرهم أحمدُ بنُ طولون بالجلوس ، وسألهم تعريفَه ما قصَدوا له . فقالوا : ليس لنا أن نسألَ الأمير مخالفةَ ما أمر به فى يُوسُفَ بنِ إبراهيم ، لأنه أهدَى إلى الصواب فيه ، ونحن نسألُه أنْ يقدِّمنا إلى ما اعتزم عليه فيه : إنْ آثَرَ قتلَه أنْ يقتلَنا ، وإن

---

(١) باب الجبل : باب من أبواب قصر ابن طولون. وكان لكل باب اسم فمنها باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وسمى باب الصوالجة . وباب الخاصّة ، وكان لا يدخل منه إلا خاصّته . وأما ما كان مما يلى المقطم فسمى باب الجبل .

(٢) صحب الإمام الشافعىّ بمصر وتفقّه عليه ، وحُمل إلى بغداد فى محنة خلق القرآن ، وانتهت إليه الرياسة بمصر . توفى سنة ٢٦٨

(٣) العدالة هنا : عمل كانت تقوم به طائفة تشتهر بالصلاح والتقوى وحسن السيرة ، وهذا العمل هو الشهادة عند القاضى وتزكية الشهود ونحو ذلك .

آثَرَ غيرَ ذلك أنْ يُسْلِفَ[1] بنا ، وهو فى حِلٍّ وسَعَةٍ منه . قال : ولِمَ ذلك ؟ فقالوا : لنا ثلاثون سنةً ما فكّرنا فى ابتياع شىء مما احتجنا إليه ، ولا وقفنا بباب غيرِه . ونحن واللهِ أيّها الأمير نرتَمِضُ[2] البقاءَ بعدَه مع السلامة[3] من شىء من المكروه وقَع فيه . وعَجُّوا بالبكاء بين يديه .

قال أحمدُ بنُ طولون : بارك الله عليكم فقد كافأتم إحسانَه ، وجازيتم إنعامَه ! ثم قال : يُوسُفَ بنَ إبراهيم[4] . فأُحْضِر . فقال : خذوا بيد صاحبِكم وانصرِفوا . فخرجوا معه وانصرف بهم إلى منزله .

* * *

قال : وطالبنى بعضُ عُمّالِ الخـراج بمصر بمـال زاد على ما فى حاصلى ، فاحتجتُ إلى معاملة بعض التُجّار عليه ، فدُلِلْتُ على رجل من أهل الشام يعاملُ بِرُهون ، فصار إلىّ ، وأنا فى بيت المـال

---

(١) يسلف بنا : يقدم بنا .

(٢) نرتمض البقاء ، ارتمض فلان من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، فالفعل متعد بحرف الجر . ونظنّ المؤلف ضمّنه معنى : نكره .

(٣) مع السلامة : فى الأصل : من السلامة ، وهو تحريف .

(٤) يوسف بن إبراهيم : أى أحضروا يوسف بن إبراهيم .

منه[١] شَيْخٌ حَسَنُ الصورة ، جميلُ اللقاء . فقال : إلى كم تحتاج ؟ قلتُ إلى مائتى دينارٍ . فأخرج من كُمِّه مالًا فوزنه ، واستزاد من غلام كان معه دنانيرَ حتى أكمل المائتين ، ثم سلّمها إلىّ واقتضانى خَطًّا بها . وقال : قد كفيتَ مَؤونة الرهن . فقلت : فكيف أكتبُ الخطَّ ؟ قال : بمائتى دينارٍ ، كما أعطيتُك . فقلت له : سبيلُ المعاملة غيرُ هـذا[٢] . فقال : والله لا قبِلْتُ منك فيها رِبحا ، ولو وهبتُها لك لكان من أصغرِ حقوقك علىّ . ثم قال لى : تعرفنى ؟ قلت : لا . قال :

ركِبت مَرْكَبًا أريد الفُسطاط من تِنِّيسَ[٣] ، وحملت فيه تجارة لى ما كنت أَملِك غيرَها . حتى إذا بلغت المَحَلَّةَ ، ووازيت ضِياعا كانت

---

(١) فصار إلى الخ . فى قوله فصار إلى منه تجريد . وللمؤلف ولع بهذا الأسلوب واستعمله فى هذا الكتاب مرات .

(٢) سبيل المعاملة الخ : يقصد أن الطريق فى القرض عند أمثال هذا الرجل أن يزاد عليه شىء من الربح .

(٣) تنيس (بكسرتين وتشديد النون) : جزيرة فى بحر مصر قريبة من البرّ ما بين الفرما ودمياط ، والفرما فى شرقيّها . وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم . وقد اشتهرت قديما بصناعة النسيج (معجم البلدان) .

فى يدك ، كُسر بنا ، وغرِق جميعُ ما أملكه ، وسلِمتُ بحُشاشة نفسى. فجلست على الشَّطِّ أبكى وأنتحبُ ، فأقبلتَ فى جماعة معك ، فسألتنى عن حالى فأخبرتك بها ، فبثثتَ فى حَشْد مَن يغوص على المركب وما فيه ، وحططتَ[1] على الشَّطِّ . فأخرجوا بَزًّا كان لى وتلِف ما سواه ، واستحلفتنى على ما ذهب لى فأخبرتك به ، وكانت قيمتُه سبعين دينارًا ، فقسَمْتَها لى على وكلائك وكُتّابك . فلما حَصَلَتْ لى أعطيتنى دنانيرَ من عندك ، وقلت لى : هذا أرْشُ[2] ما لحِقك فى الثياب . وأمرتَ أن يُكْتَرَى [لى] إلى تِنِّيسَ ، وكتبت لى إلى جماعةِ مُعامليك بتِنِّيسَ بما لحِقنى ، وبمعونتى على أمرى . فرجع بك إلىَّ ما أمالُك واكتسبتُ جاها بتنِّيسَ تضاعف مالى به ، وحسنت معه حالى .

وأخذ خَطِّى بالمال وانصرف .

* * *

---

(١) وحططت : يريد أقمت حتى يتموا عملهم .

(٢) الأرش : التعويض .

وسمعتُ أبا العبّاس أحمدَ بنَ بِسطام . يُحدِّث أبا الطيِّب أحمدَ بنَ علىّ . قال :

لمّا سخِط المُوَفَّق[١] على صاعد[٢] وكَّل به مَن يطالبه ، وأقرَّنى والطائىَّ[٣] على ما كنّا نتقلّده له . وكان صاعد محسناً إلينا ، جميلَ العشرة لنا ، فلم نترك شيئا نصل إليه ممّا خفّف عنه إلّا بلغناه . وكانت بينى وبين الطائىِّ إحْنَةٌ ، فدعانى الموفَّق فى يوم من الأيام، ونحن بواسط[٤]، وقد بَلَحَ[٥] صاعد، واستنزل المستخرِجُ[٦] جميعَ ما وصل إليه منه . فقال لى : أحمدُ ! ادْخُلْ إلى صاعد فقل له أظنُّك أرضيتَ المستخرِجَ حتى فَتر فى مطالبتك، وتالله لئن لم تُخْرِج محتجبَك ، لأتولَّيَنَّ تعذيبَك بنفسى ! فدخلتُ إليه وأدّيتُ الرسالةَ .

---

(١) هو أبو أحمد طلحة بن الخليفة المتوكّل على الله . كان من أجَلّ ملوك بنى العبّاس رأيا وأسمحهم نفسا وأحسنهم تدبيرا . توفى سنة ٢٧٨ هجرية .

(٢) هو صاعد بن مخلد ذو الوزارتين كاتب الموفق ، انتقلت إليه الوزارة أيام المعتمد بعد سليمان بن وهب ، ثم غضب عليه الموفق وعلى جميع أهله وأصحابه ونهب منازلهم . وتوفى صاعد بعد هذا بأيام سنة ٢٧٠ هجرية .

(٣) هو أحمد بن محمد الطائىّ ، كان يلى للموفق الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامَرّا والشرطة ببغداد . (الطبرى) .

(٤) مدينة بالعراق، اختطها الحجّاج بن يوسف فى سنتين بين الكوفة والبصرة .

(٥) بلح : أدركه الإعياء والجهد .

(٦) المستخرج : مَن كُلّف مصادرة أمواله واستخراجها منه .

فقال لى: يا أحمدُ ! والله مابقِىَ لى شىءٌ وما ملكت قطُّ ماهو أحبُّ إلىّ من نفسى ! فتقولُ له : ياسيدى ! واللهِ ما أملِكُ على الأرض ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا جَوْهراً ! وأنت أولَى بالتطَوُّل على خادمك . فانصرفت من عنده ، وأنا أخاف أن يُغْرِيَه[1] ذلك الجوابُ . ودخلتُ إليه ، وقلتُ له : يقول لك ياسيدى ما أملك على وجه الأرض ولا بطنِها غيرَ مائةِ ألفِ دينارٍ عند الطائىِّ فأمر بإحضاره ، فلمّا مَثَلَ بين يديه . قال له : المائةُ الألفِ الدينارِ التى لصاعد عندَك ، قد بعث إلىَّ يحلِف أنَّه لا يملكُ غيرَها . فقال له : هى بمدينة السلام ، فيُنْظِرُنى الأميرُ مسافةَ الطريق ، وأنا أستسلف[2] له ما تيسّر منها من التُّجّار هاهنا . فقال له : اكتُبْ خطَّك بها . فكتبه وسلّمه إلى الموفَّق ، فسلّمه إلى غلام من خاصّته ، وانصرف الطائى .

فاستقبحتُ ماصدَر منّى فيه ، وعظُم فى نفسى لتصديقه صاحبَه وتركِ مُعارضته بما يدفع به المرءُ عن نفسه ، فدنوتُ من الموفّق وقلت له : أيّها الأمير ! جميعُ ما أدّيتُه إليك عن صاعدٍ منّى

---

(١) يغريه : يغرى الموفق .

(٢) وأنا استسلف له : أؤدّى إليه مقدما .

تقوّلتُه، وقد قبُح فى عينى ؛ وسيِّدى الأميرُ مُخيَّر بين الصفح عنه[1] والعقوبة عليه . فقال : أحسنت ، بارك الله عليك ! ثم أمر بردِّ الطائىِّ فقال : لِمَ لَمْ تتقرَّبْ إلىّ بذكر هذا المال ؟ فقال أيّها الأمير ! يمنعنى ذلك ماتولّاه[2] من اصطناعى . فقال له : ليس يُقنِعُنى إلّا أن تحلِفَ برأسى على هذا المال ، وفى أىِّ وقت دفعه إليك . فقال : يُعفِينى الأميرُ من ذلك . فقال : والله لا فعلتُ . فقال : وحقِّ رأسِ الأمير ماله عندى دِرهمٌ واحد فضلاً عنه ! ولكنِّى لمّا رأيتُه قد عاذ بالدعوَى علىّ ، تيقَّنتُ أنّه لم يبقَ له حيلةٌ فى المُدافعة عن نفسه ، فعمِلت على تحمُّلِ هذا المال، ووالله ما أملِكه ! ورجوتُ أن أصل إليه بجاهى ولطيفِ حيلتى .

فاستحضر الموفّق الخطَّ ودفعه إلى الطائىِّ ، فقال له : خَرِّقه . ثم تقدم بإعفاء صاعد من المُطالبة .

* * *

---

(١) عنه : الضمير يعود على العمل الذى عمله .

(٢) تولاه : ضمير الفاعل يعود على صاعد .

وكان نجاحُ [١] بنُ سَلَمَةَ مع ما يُؤْثَرُ عنه من زَعارة [٢] أخلاقه ، وقُبْحِ تسلُّطه ، يحبُّ التبسُّطَ على طعامه [٣] ، ويُحسِن المكافأةَ ، عليه [٤] فحدّثنى يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ تميم [٥] . قال :

أقام إسحاق والدى ببغدادَ خَمْساً وعشرين سنة فى رفع حسابه ينقض الكتّاب جِماعاتِه ، ويسلّطون الإعناتَ عليه [٦] . قال لى يعقوب :

---

(١) هو أبو الفضل نجاح بن سلمة الكاتب ؛ كان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال . وكان نديما للمتوكل ، توفى سنة ٢٤٥ هجرية .

(٢) زعارة أخلاقه : شراستها .

(٣) يحب التبسط الخ : يحب إقبال الناس على طعامه وعدم احتشامهم منه .

(٤) ويحسن المكافأة عليه : أى إنه يكافئ كلّ من يسرّه بالإقبال على طعامه .

(٥) هو أبو يوسف الكاتب يعقوب بن إسحاق بن تميم . ممّن دخل مصر مع ابن طولون . وكان با كباك قرنه به . ثم غضب عليه ابن طولون فى أمر كان بينه وبين أخيه موسى وتصرف فيه يعقوب بما أغضب ابن طولون فسجنه فى المُطْبِق ثم عفا عنه . وغادر مصر إلى سُرّ من رأى حيث أهله وأقام بها . وكان على اتصال بابن طولون .

(٦) كان إسحاق عاملا من عمّال الخليفة وكان عليه أن يؤدى حسابا عمّا جمعه من الأموال والغلات . ويظهر أنه أقام هذه المدة ببغداد لتعنّت الكتّاب فى محاسبته ولأنه كلما أوشك حسابه أن ينتهى مات الكاتب أو عزل ، فابتدئ معه الحساب من جديد .

فحدّثنى أبى أنَّ أغلظَ الكُتّاب بأسْرِهم كان نجاحَ بنَ سَلَمَةَ . قال : فلمّا أفرط علىّ سوءُ تحكُّمه ، جلَست فى منزلى .

فمرّ به اسمى ، فقال : قد عزَم إسحاق بنُ تميم على أن يتربَّص بنا ، كما كان يتربَّصُ بمن كان قبلنا[1] ! ثم نظر إلى بعض المضمومين إليه، فقال : بكِّر إلى إسحاقَ بنِ تميم فأحضِرْه الدارَ إلى أنْ أنصرف[2] . قال : فباكرَنى فَظٌّ من الجُند لم أملك نفسى معه حتّى صار [بى] إلى دار نجاح . فوجدناه قد ركب فحصَّلنى[3] على البـاب ، وجلَس معى ، وتعالَى النهار ، واشـتدّ جوعى . فقلت له : امضِ معى إلى المنزل لنأكلَ جميعًا ونرجِع ، فأبَى . فقلت لحاجب نجاح (ورأيته متمكِّنًا من داره) : أصلحك الله ! إنّى قليلُ الصبر على الجوع ، وأخافُ أن يتأخّر الأستاذُ[4] ، وأضعُفَ عن حُجّتى فى حضوره بغَلَبة الصَفْراء علىّ ، وقد سألتُ هذا الرجَل أنْ يُطلِقَ لى الذهابَ إلى منزلى لآكُلَ

---

(١) يتربص بنا : ينتظر موتنا أو عزلنا .

(٢) إلى أن أنصرف : أى وأبقه بالدار إلى أن أنصرف من الديوان وأحضر لأراه .

(٣) حصّلنى : أى الجندىّ والأصل فى التحصيل الجمع ويريد هنا : حجزنى .

(٤) الأستاذ : الرئيس .

وأرجِعَ فأبَى . قال : لم لا تأكل هاهنا ؟ وأجلسنى فى ساحة[١] فيها[٢] . واستَحْضَرَ الطعامَ[٣] ، فأُحْضِرَتْ مائدةُ نجاح بن سَلَمَةَ ، ولم يَبْقَ حُلْوٌ ولا حامضٌ ولا حارٌّ ولا باردٌ إلا نُقِل علينا . حتى إذا بلغتُ إلى الحلواء من الطعام دخل الدارَ نجاحٌ فجلس فى المجالس[٤] . ورآنى فى دخوله ومكانى من الساحة ، فبعث إلىّ غلاما له [يقول] : بحياتى استَتِمَّ أكلَك ، ولا تتجوَّزْ فيه[٥] . فأقمتُ حتى فَرَغ الطعام ، وجاءونى بالغُسْل[٦] والبَخور ، ثم قمتُ . فلما رآنى ضحِك إلىّ ، وقال : من علّمك على هذا[٧] ؟ قلت : التوفيقُ . قال : أجَلْ . ثم قال لى : اِرفَعْ حسابَك كيف شئتَ وآحشُهُ[٨] فقد أمّنك الله من اعتراضك بشىء تكرهَهُ .

---

(١) فى الأصل رسمت الكلمة هكذا : (بنحانحه) .

(٢) فيها : فى الدار .

(٣) واستحضر الطعام : طلب حضوره .

(٤) فى المجالس : أى فى الحجرة ذات المجالس التى يستقبل فيها زوّاره .

(٥) لا تتجوز ، لا تخفف .

(٦) الغسل : الماء يغسل به .

(٧) من علّمك الخ : أى من أرشدك إلى أنّ خير وسيلة لرضاى ومعونتى لأىّ إنسان أن يقاسمنى طعامى .

(٨) واحشه : أى وأضف إليه من النفقات ما شئت .

قال يعقوب : قال لى أبى : فغدوت إليه بحسابى ؛ فو الله ما زاد على التوقيع فى الجماعاتِ[١] بإمضائها وتخليدها[٢] : ثم قال : متى تعزِم على بلدك ؟ فقلت ياسيِّدى ! إنما انتظر فيه إذْنَك ، فكلُّ شىءٍ لى فمفروغ[٣] منه . فقال : اجعَلْه بعد صلاة الجُمُعَة . قلتُ : أفعَلُ . ثم قال لى : تروحُ إلىّ لألقاك فى حوائجَ لى ، فقدَّرتُ أنْ يحمِّلنى فى الحوائج غُرْمَ الألفِ الدينارِ[٤] .

فلما رُحتُ إليه دخلت ، وهو خالٍ . فقال لى : إنك ترجِعُ إلى بلد قد يئِس منك فيه أهلُه ، فأدْخَلَ الجارُ من جيرانك الخَشَبَةَ فى حائطك ، والجارُ فى البستان قد تحيَّف حُدودَك ، فَهَبْ لى ما بينك وبينهم[٥] . قلت : أفْعَلُ . قال : وترَى ببلدك جماعةً قد ارتفعوا ، أبناءَ خاملين فلا تَنهَرْهم بدقَّة أُصولهم ، والصدقِ عما كان عليه سَلَفُهم ،

---

(١) الجماعات : حواصل الجمع .

(٢) وتخليدها : قيدها فى سجلّات الدولة .

(٣) فمفروغ : اتصلت الفاء بالخبر لإفادة المبتدأ العموم .

(٤) يحملنى فى الحوائج الخ : يقصد أنه يكلفه أشياء فيها غرم نحو ألف دينار .

(٥) فهب لى الخ : أى تجاوز عن ذلك وسامح فيه لأجلى .

فإنه يزرَعُ لك المَقْتَ فى قلوبهم . قلت : أفعَلُ . قال : واصحابَ البريد[١] ، فاحذَر أنْ يَرِدَ فى كُتُبِهم ذِكْرُك بخيرٍ ولا شَرٍّ . قلت : أفعَلُ . ثم أومَأَ إلىّ يُعانقنى . قلت : ياسيدى ! حوائجَك ؟ قال : هى ما عددته عليك . إنّك قد حَلَلْت منى بانبساطك مَحَلَّ القرابة[٢] الذى أُسَرُّ بصوابه ويَغُمُّنى زَلَلُه ، فإنْ حَزَبك[٣] أمرٌ فى بلدك فلا تعدل به عنّى ، وأنا استودِعُك اللهَ . فانصرفت عنه وأنا على غايةٍ من الشكر .

*
* *

وحدّثنى محمّدُ بنُ يزيدَ[٤] (وكان حَسَنَ التقشُّف ، سديدَ الرأى) قال :

أُطْلِق جماعةٌ من حبس أحمدَ بنِ طُولون كانت قد وقعت بهم ظِنَّةٌ بالتلصُّص ، وكانوا ينزلون كُورَةَ أهناس . فإنّى عند بعض أصحاب

---

(١) أصحاب البريد كان إليهم نقل أخبار الولاة والناس إلى الخليفة . وقد أشار الامام أبو يوسف فى رسالة الخراج التى بعث بها إلى الرشيد إلى وجوب حسن اختيارهم ، فقال بعد كلام طويل : ومتى لم يكن أصحاب البُرُد والأخبار فى النواحى ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبل لهم خبر فى قاض ولا وال .

(٢) محل القرابة : أى محل ذى القرابة ، وهو استعمال سائغ .

(٣) حزبك : نابك واشتدّ عليك .

(٤) هو محمد بن يزيد الواسطى . كان من البارزين بين علماء الكلام . توفى سنة ٣٢٣

الأكسية حتى وافاه غلام أصفرُ ، خبيثُ المنظَر ، متمكّنٌ من نفسه[1] من الخارجين من الحبس . فرحّب به ، وجلَس عنده ، وهنّأه بسلامته . ثم سأل عن حاله . فقال : خرجتُ من الحبس كما ترانى وما معى نفقةٌ تُبلّغنى منزلى ! فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : مُسافرٌ . فقلت له : يابُنَىَّ قدِّم اللهَ فى أُمورك ولا تعدِل عنه ، فإنّ الراحة فى ظِلّه . فقال لى : ياسيِّدى ! الحقُّ فيما قلتَه ، والنفسُ أمّارة بالسوء ، والتوفيقُ إلى الله دونَ خَلْقه . فأعجبنى جوابُه وقلت له : كم يكفيك إلى منزلك ؟ فقال : دينارٌ ، فدفعته إليه وقلت له : إذا حدّثتْك نفسُك بإخافة السبيل فابعَثْ إلىّ حتى أُمسِكَ من رَمَقِك ، وأكُفَّ فاقَتَك .

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أهناس والبَهْنَسا[2] بتسلُّط رجل من اللصوص ، فى جمع كثير على كثير من المواضع وكبسهم الضِياع . وكانت لى أسلافٌ[3] بسُمُسْطا[4]

---

(١) متمكن من نفسه : مغتر بنفسه واثق بها .

(٢) البهنسا : مدينة بصعيد مصر غربىّ النيل و بظاهرها مشهد يزار و ينسب إليها جماعة من أهل العلم (معجم البلدان) .

(٣) أسلاف : قروض .

(٤) سمسطا : قرية من الصعيد الأدنى فى الناحية الغربيّة من النيل .

ونواحيها ، فخرجت لقَبْضِها فى رُفقَة من التُجّار قد حملوا البَزّ والطِّيبَ وما يُحتاج إليه للأرياف . فإنّا بنواحى المُحرَّقة حتى لَقينا قطعةً من اللصوص فساقتنا بأَسْرِنا إلى موضع منقطع عن المارّة ، وفيه شابٌّ أصفرُ راكبُ فرسٍ ، ومعه مقدارُ خمسة فوارسَ . فعُرِضَتِ الجماعةُ عليه إلى أن بلغنى فتأمّلْتُه فوجدتُه مسافراً ، فأكبّ على رأسى ، وتَحَفَّى بى ، ثم قال لأصحابه : أخطأ واللهِ حَزْرُكم ! هذه رُفقَةُ شيخى وسيِّدى ، ووالله لا دَخَلَ إلىّ منها شىءٌ ! وسار معنا حتّى أخرَجَنا إلى الأمن . ثم قال لى : أنا أعلم أنّك لا تأكُلُ طعامى ، ولا تقبَلُ شيئًا منّى ، وقد واللهِ يا سيِّدى حَبَّبْتَ إلىّ مجانبةَ ما أنا بسبيله ! فنشَدتُك اللهَ لمّا [1] جعلتَنى طريقَك فى الرَجْعَة ! فتضمَّنْت له ذلك .

ودخلنا مدينة أهناس ، فشاع خبر ما أولانى فى الناس . وكان المتقلِّدُ لها رجلا من أصحاب أحمدَ بنِ طُولون يُعْرَف بفَهْمٍ ، متقدِّمًا عنده ، أثِيراً لديه [2] ، فبعَث إلىّ وعَرَف مذهبى .

---

(١) لما : إلّا .

(٢) أثيراً لديه : مقرّبا عنده محبوبا .

فقال : قد أحْفَيْتُ[١] المسألةَ عن هذا الغلام فرأيتُه لا يرَى القتلَ ، ولا هَتْكَ الحريم، وإنما يتعلَّق بأطراف الأموال ولا يبلغ الاجتياحَ[٢] وأنا أسألك أن تَسْفُرَ[٣] بيني وبينهم . فإنّي أُؤَمِّنُه وأُكرمه وأُقَلِّدُه سِيارَةَ[٤] البلد . فرجَعْتُ فى حاجة فَهْمٍ إليه ، فألفيْتُه ، والجماعةُ بين يديه ، فأدّيْتُ إليه رسالتَه ، وأعلمتُه أنّ هذا الرجل صحيحُ الضَمان . فقال : يا سيِّدى ! ما بينى وبينه فى الأعمال إلّا أُنْسُ الناسِ به[٥] ثم قال لأصحابه : مَن يُساعدنى على الخروج إلى الله (عزّوجلّ)؟[٦] فقالوا بأجمعهم : نحن . فسار معى حتى إذا قرُبْنا من أهناس وضع حبلا فى عُنقُه ، وقال : ادخُلْ بى فى زِىِّ الأسْرَى وهذه الجماعة[٧] ،

---

(١) أحفيت المسألة : أكثرت من السؤال وكررت .

(٢) الاجتياح : الاستئصال .

(٣) تسفر : تكون سفيرا ووسيطا .

(٤) سيارة : مصدر من " سار " دالّ بصيغته على الحرفة ، ويظهر أن سيارة البلد كانت وظيفة فى هذا العهد ، يقصد بها حسن السير بالبلد ، وصيانة الأمن والنظام به . وقد استعمل صاحب " النجوم الزاهرة " هذه الكلمة بهذا المعنى .

(٥) ما بينى وبينه الخ ، يقول إنى لا أطلب منه فيما يعمل إلا أن يأنس الناس به ولا يخافوه على أرواحهم وأموالهم .

(٦) من يساعدنى الخ : أى من يساعدنى على التوبة والرجوع إلى الله .

(٧) وهذه الجماعة : معطوف على الضمير فى " بى " .

فدخلوا ، والناسُ يبكون لما اتّفقَ لهم من حسن الهداية ، ورأى الناس عَجَبًا مِن سَوْقِ شَيْخٍ مثلى ضعيفٍ رجلاً قد أعجز خَيْلَ السلطان . فطلب فَهْمٌ أن يقبلَ له خِلْعَةً فامتنع من ذلك ، وأضاف أصحابَه إلى فَهْمٍ . وأقام إلى وقت الحَجِّ فخرج إلى مكّةَ راجلاً ، ثم فقدتُه .

* * *

وحدّثنى أبو حبيب المَقَّرِىُّ . قال :

ضاقت أحوالى فلم تُبْقِ[1] لى إلاّ جاريةً أُحِبُّها ، ومنزلاً أَسكُنُه . فبِعتُ المنزلَ بألفِ دينارٍ ، وخرجتُ إلى مكّةَ بالجارية . فقلت لها : يكون هذا المالُ فى وَسَطِكِ ، فكانت إذا نزلتْ فى منزل حَفَرَت فى خَيْمَتِها حَفيرة وأودعت المالَ فيها وطَمَّتْها[2] ، فاذا نُودى بالرحيل أثارته وشدّته فى وَسطِها .

قال : فاتّفق أنْ رحلنا عن منهَل ، ونَسِيَتِ المالَ فى الحُفرة ، فأخبرتنى الجاريةُ بذلك . قال : فحار فكرى ، وطاش رُوحى ، ولم أدر

---

(١) فى الأصل : يبق .

(٢) طمّتها : دفنتها .

ما أعمل . ودخلنا مكّةَ فحدّثتنى نفسى ببيعها فلم يُطِعْنى قلبى . فلمّا رجَعنا ونزلنا المنهلَ الذى خلّفتْ فيه الكيسَ، رأيت صحراءَ، وغلاماً على رابيةٍ يرعَى غُنَيْاتٍ له ، وأقبلتُ أدُورُ وأنظر إلى الأرض . فقال لى : ويحك ما تطلب ؟ قلتُ : شيئا أودعتُهُ أرضَ هذا المنهلَ. فقال لى : صِفه لى ، قلتُ : كيسٌ أحمرُ فيه مالٌ . فقال : وما لى فيه إنْ دلَلْتُك عليه ؟ قلت : نصفُه . قال : ها هو ذاك فى الرابية . فلمّا رأى تحيُّرى[1] فيه قام حتى أخرجه ، ووضَعه بين يدىّ . فحمِدْتُ اللهَ وقسَمْت الكيسَ قسمين وخيّرتُه أحدَهما[2] . فقال لى : إنّى أرَى قِسمى منه كثيراً ، وأنا أكتفى بنصف أحد القسمين ، فقسَمته[3] قسمين . فقال : تقسِمُه أيضا قسمين ، ففعلتُ . فقال : ما أعجَبَ أمرَك ! أترُكُه كلَّهُ حراماً ونصفَه حلالاً وآخذُ منه شيئا ؟ هذا ما لا يكون ، انصرِفْ بمالِك . فقلت له : ياغلامُ أنت حُرٌّ أو مملوك ؟ فقال : مملوك . فقلت : لمن ؟ فقال : لشيخ هذا الحىّ .

---

(١) تحيّرى فيه : دهشتى منه .

(٢) خيّرته : فى العبارة إيجاز أى خيّرته فى أن يختار أحدهما

(٣) فقسمته : أى قسمت أحد القسمين .

فدخلتُ الحىَّ فألفيتُ الشيخَ ، والناسُ عنده . فقلتُ له : رأيتُ غلاماً فى المَنْهَل يرعَى غُنَيْمات ، وأسألُك أن تبيعَنيه . فقال : اشتريتُه بعشرة دنانير . فقلت : أنا آخذُه بعشرين . فقال : إن لم أبعه ؟ قلتُ أُعطيك به ثلاثين ديناراً . فقال لمن حَوْلَه : أما تسمعون ما يقول؟ وما يحملُك على أن تبذُلَ به هذا الثمنَ ؟ فقلت: جمَع علىّ ضالَّةً فقدَّرتُ أن أُعتِقه ، وأبتاعَ الغنمَ [التى] [1] يرعاها له وأُملِّكَه إياها . فقال : قدَّرتَ أن تفعل به هذا لفَعلة واحدةٍ من الجميل أولاكها ، ولنا فى كل يوم منذ ملكناه حسنةٌ تقتضى أكثرَ مما نأتيه له ! وأنا أُشهِدُ الجماعةَ أنّه حُرٌّ لوجه الله ، وأنّ ما يرعاه له .

فانصرفتُ عن الشيخ ، وقد بلغ لى ما أمّلْتُه له .

* * *

وقلتُ يوما لأحمدَ بنِ محمدٍ المعروفِ بابن أبى عِصْمَة كاتب أحمدَ بن طُغان [2] . (وكان لى صديقا مصافيا) : قد كَثَّر الناسُ

---

[1] زدنا ما بين القوسين ليستقيم الكلام .

[2] يسمى فى بعض كتب التاريخ ابن قراطغان ، وهو من كبار قواد أحمد ابن طولون . خرج حينما كان أميرا على الثغور على الأمير جيش بن خمارويه لمّا ساءت سيرته .

فى إصابتك مع بن طُغان[١] . فقال : ما أخطئوا فى التكثير، وكان صاحبى سَمْحًا، ولقد أصابنى منه فى جهة واحدة ثلاثون ألفَ دينار ؛ فسألتُه عن تلك الجهة . فقال :

كان لا يُمسِك مالا ، ولا يعتَقِدُ ذخيرةً[٢] ؛ فقال لى يوما : لم يُصبِح فى حاصلى دِرهم واحدٌ فاستسلف لى شيئا أُنفِقه . فمضَيتُ إلى منزلى فحمَلت إليه ألفَ دينار ، فلمّا وضعتُها بين يديه ، فتح الكيس وقلّب ما فيه ، فلما رأى الدنانير صحاحا جيّدة . قال : ما هذه دنانير صَيرَفِيٍّ[٣] فبحياتى ممّن أخذتَها ! فقلت له : كانت عندى . فقال : ما ظننتُ هذا موضعَك[٤] ، وسكت .

وكان له فى كل شهر ألفُ دينارٍ نُزُلٌ[٥] يفجئتُه به عند استيجابه إياه . فقال لى : ما هذا ؟ قلتُ : النُّزُلُ ، فقال : آقْضِ به دنانيرَ الرجل

---

(١) إصابتك مع ابن طغان : فى نيلك مالا كثيرا وأنت فى صحبة ابن طغان وخدمته .

(٢) لا يعتقد ذخيرة . لا يجمع مالا يدخره للحاجة .

(٣) ما هذه دنانير الخ : يظهر أن دنانير الصيارف كانت دائما ناقصة .

(٤) ماظننت هذا الخ : أى ما كنت أظنّ أنك تستطيع تقديم هذا المقدار ، أو ما كنت أظنّ أن منزلتك منى تقتضى أن تقرضنى مالا . وقد تجاهل تجاهل العارف لأنه كان يعرف حقا أن المال مال كاتبه .

(٥) النزل : العطاء ، يريد راتبا من قبل السلطان .

ثم جئته به[١] مرّة أخرى بنُزُل الشهر الثانى فقال : اصرِفه إلى الرجل . قلت : قد قضَيْتُه . فقال : اصرِفه إليه كما آمُرُك . فلم يزَلْ يفعل بى هذا حتّى مضَى ثلاثون شهراً حصَّلت فيها ثلاثين ألفَ دينار .

قصة النصرانى المصرى وضيفه البغدادى . * * *

حدّثنى هارونُ بنُ مَلُّول ، قال : حدّثنى ياسينُ بنُ زُرارةَ ، قال :

كان ببعض أرياف مصر نَصْرانىٌّ من أهلها كثيرُ المال ، فاشى النعمة ، سَمْحُ النفس ، وكانت له دارُ ضِيافة وجراياتٌ واسعة على ذوى الستر بالفسطاط . فهرب من المتوكِّل[٢] رجلٌ كَنَى عن اسمه[٣] ، خطيرُ المنزلة ، لميلٍ[٤] كان من المنتصِر إليه ، وتبرّأ من

---

(١) به : الأولى حذف (به) هذه .

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن محمد هارون . وكان يلقب بالمنتصر بالله ، ثم لقب فى اليوم الثانى لبيعته بالمتوكل على الله . بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الواثق فى ذى الحجة سنة ٢٣٢ . وكان عمره اذ ذاك سبعا وعشرين سنة وأشهرا . ومات مقتولا سنة ٢٤٧ ، وكانت أيامه أحسن أيام الخلافة العباسية من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل ورفعه الفتنة التى نشأت من القول بخلق القرآن .

(٣) كنى عن اسمه : أى لم يذكر ياسين بن زرارة اسمه صريحا .

(٤) لميل : متعلق بهرب .

حاشيته ، ولبِس جُبَّةَ صوف ، فانتهَى به المسير إلى مصر . فلمّا دخلَها رأى فيها كثيراً من أهل بغـدادَ فخاف أن يُعرَف فنزَع إلى أريافها ، فانتهَى به المسيرُ إلى ضِياع النَّصرانىّ . فرأى منـه رجُلًا جميلَ الأمر ، وسأله النَصرانىّ عن حاله فذكر أنّ الاختلالَ انتهَى به إلى ما ظهر عليه . فغيَّر هَيْئَته[1] وفوّض إليه شيئاً من أمره ، فأحكم ما أُسنِد إليه واضطلع به[2] ، ولم يزل حالهُ يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره . وقام به أحسنَ قيام . فكان محَـلُّ[3] الرجلِ الهـارب من النَّصرانىِّ يفضُل كلَّ ما ذهب له .

وورد علَى النَّصرانىِّ مستحِثٌّ بحَمْل مالٍ وجب عليه ، [وسأله] النَّصرانىُّ عن خبر الناس بالفُسطاط . فقال : ورد خَبَرُ قتل المُتوكِّل وتقلُّدِ المُنتَصِر ، ووافَى رسولٌ من المُنتَصِر فى طلب رجل هرَب فى أيام

---

(١) فغير : أى النصرانى . هيئته : أى زى الهارب الذى كان يدل على الفقر واختلال الحال .

(٢) فى الأصل فاحكمه فيما أسند اليه . ويظهر أن العبارة تحريفا .

(٣) فكان محل الخ : أى إن الرجل الهارب نال من المنزلة والشأن عند النصرانى ما يزيد على ما فقده ببغداد من أموال وضياع .

المتوكّل يُعْرَفُ بفلانِ بن فلان ، ويُوعِزُ إلى عُمَّالِ مِصْرَ والشامِ بأن يتلَقَّوْه بالتكْرِمَةِ والتوسعَة، فيلْحَقَ أميرَ المؤمنين فى حالٍ تُشبِهُ مَحَلَّه عنده. فعدَل النَصرانىُّ بالمستحِثِّ إلى بعض مَن أنزله عليه[1] . وخلا الهاربُ بالنَّصرانىِّ فقال :

أحْسَنَ اللهُ جزاءك ! فقد أوليتَ غايةَ الجميل ، وأحتاجُ إلى أن تأذَن لى فى دخول الفُسطاط . فقال : يا هذا إن كنتَ استقصرتَنى فاحتكِمْ فى مالى ، فإنى لا أردّ أمرَك ، ولا أزول عن حُكْمك ، ولا تَنْأَ عنّى . فقال له : أنا الرجُلُ المطلوبُ بالفُسطاط وقد خَلَّفتُ شملا [2] جَمًّا ، ونعمةً واسعة ، وإنما عَدَلَ بى [3] الخوفُ على نفسى ، فقال له : يا سيّدى ! فالمالُ فى يدك ، وما عندك من الدوابِّ فأنت أعرف به منّى فاحتكم فيه . فأخذ بغالا وما صلَح لمثله ، وخرج النَصرانىُّ معه . وقدّم [4] كتابا إلى عامل

---

(١) فعدل النصرانى الخ أى إن النصرانى اتّجه بالمستحث إلى جماعة من عمّاله لينزل بينهم .

(٢) شملا : شئونا وأهلا

(٣) وإنما عدل بى : أى عن أهلى ومالى .

(٤) وقدّم : أى العظيم البغدادى يقول : إنه قبل سفره أرسل من المكان الذى هو فيه كتابا إلى عامل المعونة .

المَعُونة [١] من مُسْتَقَرِّه . فتلقَّاه عاملُ المَعونة فى بعض طريقه ووصّاه [٢] وجميعَ العُمّال بالنَصرانىّ . وصار إلى الحَضْرة فأصدر إليهم الكتبَ فى الوَصاة به [٣] إلى أنْ قدِم بعضُ العُمّال المُتَّجِرة [٤] . فتتبّع النَصرانىّ ورام الزيادةَ عليه [٥] فخرج إلى بغداد .

قال لى هارونُ إنّ ياسيناً قال له : إن النَصرانىّ حدّثه : أنه دخَل بَغدادَ فلم يَرَ بها أوفَى محلًّا ، وأكثرَ قاصدًا منه [٦] . ثم استأذنتُ عليه ، وعِنده جَمْعٌ كثيرٌ ، فخرجَ أكثرُ غِلمانه حتّى استقبلونى ، فلمّا رآنى

---

(١) عامل المعونة : رجل الشرطة .

(٢) ووصّاه : أى وصّى البغدادىُّ العظيم عاملَ المعونة .

(٣) فأصدر إليهم الخ : أى فأصدر العظيم البغدادىّ إلى العمال الكتب بالوصاة بالنصرانىّ .

(٤) العمّال المتجرة : الذين كانوا يتجرون بمناصبهم ، ويتخذونها أداة للعسف وابتزاز الاموال .

(٥) رام الزيادة عليه : كان النصرانىّ ملتزما بعض أراضى الدولة فى مقابل مال معيّن فأراد هذا العامل أن يزيد هذا المال ليخرج النصرانىّ من الالتزام .

(٦) منه : من العظيم البغدادىّ .

قام على رجليه . ثم قال : مرحبًا بأستاذى[١] وكافلى والقائم بى حين قعَد الناسُ عنىّ! وأجلسنى معه ، وانكَبَّ علىَّ ولدُه وشَمَلُه[٢] ، وأنا أتأمَّلُ مواقعَ الإحسان من الأحرار . وسألنى عن حالى فى ضِياعى ، فأخبرتُه خَبَرَ العامِل ، وكان أخوه[٣] فى مجلِسه ، فنظر إليه (مَنْ كَنَى عنه[٤]) وقال له كنتُ السببَ فى تقليد أخيك ، فصار أكبرَ سببٍ فى مَساءتى . فكتب من مجلِسه كتابًا إليه بجَلِيّة الخبر[٥] وأنفذه . وأقمتُ عنده حوْلا فى أرغد عيشة وأعظم ترَفُّه . وورد علىّ كتبُ أصحابى فخبّرونى بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترَضَ عليه فى أمرى ، وأُخرِج أمرُ السلطان فى إسقاط أكثر خراج ضِياعى ، والاقتصارِ بى على يسيرٍ من مالها .

---

(١) الأستاذ : الرئيس فى عرف هذا العهد .

(٢) أخوه : أخو ذلك العامل .

(٣) وأنكب علىّ ولده الخ : أى نشِطوا فى إكرامى والحفاوة بى .

(٤) العبارة التى بين قوسين من كلام الراوى ياسين بن زرارة . وهى بيان للضمير المستتر فى "نظر" ، والمعنى فنظر إليه العظيم البغدادىّ الذى كنى النصرانىّ عنه ولم يصرّح باسمه . وفى الأصل : (من كنّا عنده) .

(٥) بجلية الخبر : أى بوجوب الابتعاد عن التعرّض للنصرانىّ .

قال ياسين : فكتب النَصرانىُّ ببغداد حُجَّةً [١] أَشْهَدَ فيها على نفسه أنَّ أسهُمه فى جميع الضِياع التى فى يده (وسمّاها وحدّدها) لهذا الرجل الذى كان هرب ، وصار بها إليه [٢] . فقال له : قد سوَّغك الله هذه الضِياعَ فإنى أراك أحقَّ بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك . وقال له : عليك فيها عاداتٌ تُحْسِنُ ذِكرَك ، وتُرُدُّ الأضغانَ عنك ، ولستُ أقطعُها بقبضِ هذه الضِياع عنك .

ورجع النَصرانىُّ إلى الفُسْطَاط فجدَّد الشهادةَ له فيها ، فلما تُوُفِّىَ النَصرانىُّ أقرّها [٣] فى يد أقاربه ولم يزالوا معه بأفضلِ حال .

* * *

---

(١) حجة : وثيقة تثبت حقًا أو ملكا .

(٢) وصار بها إليه : وحمل الحجة إليه .

(٣) أقرها : أقر العظيم البغدادىّ الضياع .

حدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوبَ عن أبيه . قال :

كان يحيَى بنُ خالدِ بنِ برْمَكَ[١] قد تبنّى الفضلَ بنَ سهل[٢]، وأجراه مُجْرى الولد، ونظر إليه وَلَدُه بعين الأخ لهم. فضمّه إلى المأمون[٣]. وكان يحيى بنُ خالدٍ حسنَ المعرفة بالنجوم ، والفضلُ بارعًا فيها . فاتّفقا على ما تُوجِبُه النجومُ فى مُدَدِ البرامكة، وتبيّنا سعادةً تنتهِى إليها حالُ الفضل ، وكان كلُّ واحد منهما كالمشاهد لما انتهَى إليه .

---

(١) يحيي البرمكى : هو أبو الفضل يحيي بن خالد بن برمك . وكان برمك من مجوس بلخ . وكان يحيي من النبل والعقل وخير الخلال على أكمل حال . وكان المهدىّ قد ضمّ إليه ولده هارون الرشيد وجعله فى حجره . فلما استخلف هارون عرف له فضله ، وولّاه الأمر ، ودفع إليه خاتمه ، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه ، إلى أن نكب البرامكة ، فغضب عليه وخلّده فى السجن إلى أن مات فيه.
(ابن خلكان)

(٢) الفضل بن سهل : هو أبو العباس الفضل بن سهل السرخسى، أخو الحسن ابن سهل. أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ووزر للمأمون وكان له نفوذ عنده. وكان يلقّب بذى الرياستين لأنه تقلّد الوزارة والسيف ، وكان يتشيّع . ولما ثقل أمره على المأمون دسّ عليه غالبا المسعودىّ الأسود، فدخل عليه الحمام بسرخس ومعه جماعة فقتلوه يوم الخميس ثانى شعبان سنة ٢٠٢ (ابن خلكان)

(٣) المأمون — هو عبد الله بن هارون الرشيد ، ويكنى أبا جعفر ، وقيل أبا العباس ، واسم أمّه مراجل. ولى الخلافة وسنّه ثمان وعشرون سنة وشهران — ومات سنة ٢١٨ — وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وكانت أيامه من خير الأيام وأوسعها علما وحضارة . (مروج الذهب)

وأوقَعَ الرشيدُ بالبرامكة فاعتصم الفضلُ بمحلّه من خدمة المأمون ، وكانت يده تعجزُ عما يُصلِح يحيَ وولدَه عند الرشيد . فوجّه إليه : ياسيّدى ! قد كَرَبَنى أمرُك ، ولستُ أصِلُ إلى حُسْنِ الدفاعِ عنك فأُحِلَّ[1] ذِمامَه فى هذه المحْنة ، فإنّى أرجو أن أقضيَه عنك عند انتهائى إلى سعادتى .

قال ابنُ أبى يعقوبَ : فحدّثنى أحمدُ بنُ أبى خالدٍ الأحولُ . قال : اتّصل بى من ضِيق يحيى ما كدّر عيشى . وذكرتُ إحسانه إلىّ ، وحسنَ صَنيعه بى ، فضاق بى العريضُ . ووجدت ما أملِكه أربعةَ آلاف دينارٍ ، فقسمتها قسمين . وحملت أحدَهما ، وتوصّلت إلى الدخول إليهم فى محبِسهم ، فوضعتُها بين يَدَىْ يحيَى بنِ خالد . فقال لى : ليس يحسنُ بنا أنْ نَغُرّكَ من أنفسنا ، ولا أن نَعِدَك عنّا ما لا تفِى به الأيامُ لك ، وقد انتهَى أمرُنا . فان كنت تُقدِّر أنّ أحوالنا تصلُح فأمْسِك عليك مالَك . فقلت : ما ذهبتُ فى ذلك إلّا لقضاء بعض الحقّ عنّى . فأخذ بيضاءَ فكتب فيها :

---

(١) فأحلّ ذمامه : حلّ أمر الله : وجب ، وأحلّ فلان الحق : أوجبه على نفسه . فمعنى أحلّ ذمامه : أوجب على نفسى قضاء حق الدفاع عنك .

يا أبا العبّاس ! أيّدك الله ! هـذا رجلٌ خلُص على تجربتنـا ، وأحسن بنا ، مع استحكام يأسه منّا ، وأنا أُذكّرُك العهدَ ، وأرغبُ إليك فى قضاء حقّه عنّى ، وتخفيف ثِقَله علىّ ، أحسن اللهُ عَوْنَك ، وكفاك ما أعجزك !

ثمّ ثناها وقطعها عَرْضًا قطعتين وقال لى : احفَظ هذا النصفَ معك ولا تُفَرِّط فيه فيفوتَك حظٌّ كبير .

ثم فرّق ذلك المـالَ فى قومٍ ضعُفت أحوالُهم بمـا لحقه ، وانصرفتُ من عنده وقد آيَسَنى من رُجوع حاله ، وأعطانى نصفَ رُقْعَـةٍ لا أقِف على ما تُوَصِّل إليه . وتَقَضّى أمرُهم ، ومات الرشيدُ بطُوس[1] ، وغَلَب الفضـلُ بنُ سهل على المـأمون بخُراسانَ ، وخلَفه على جميع أمره . وشجَر الأمرُ بين الأمينِ والمـأمونِ فظهر المـأمونُ عليه . وصَحّت وزارة الفضلِ بنِ سهل للمـأمون ، ووردتْ بادرةُ المـأمون بذلك إلى سائر النواحى ، وطالت عُطْلتى واشتدت فاقتى ، وفقَدتُ مَنْ كان يُؤثرنى ويَنحاش[2] إلىّ .

---

(١) طوس : مدينة بخراسان بينها و بين نيسابور عشرة فراسخ . فتحت فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، و بها قبر على بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد .

(٢) ينحاش إلىّ : فى اللغة انحاش عنـه : نفر ، فيكون معنى انحاش إليه : مال وانحاز .

فانّى لجالسٌ فى منزلى فى يوم قد أعوزنى فيه قوتُ يومى ، وعلىّ ثوبٌ خَلَق ، وليس لى إلّا خِلْعَةٌ أركَب فيها . حتّى دخل إلىّ غُلامى فقال : بالباب جماعةٌ من أصحاب طاهر بنِ الحسين . فلبستُ ثياب ركوبى ، وأذنتُ لهم وتقدّمهم رئيسٌ لهم تبيّنتُ إعظامى فى نفسه . فقال : الأميرُ طاهرٌ يسألك المسيرَ إليه . فنهضت ، فلمّا دخلتُ قدّمنى وأعظمنى ، وقال : وردَ كتابُ الوزير (أيّده اللهُ) علىّ فى حَمْلك إلى حضرته على حالِ تَكْرِمَةٍ ، ومعك نصفُ الرُّقْعة التى دفعها إليك يحيَى بنُ خالد ، وأمرنى بدفع ألفى دينارٍ إليك لحَمُولتك[1] ومُخَلَّفيك[2] . فقَوِيَتْ نفسى ، وانفسح رجائى ، وخرجتُ بعد قبض المال مع رسول طاهر . فلما دخلتُ إلى الفضل بنِ سهل ، لَقِينى بأجملِ لقاء ، وسألنى عن نصف الرُّقْعة فأحضرتُها . ثم أسرَّ إلى بعضِ خاصّته شيئًا ، فمضى وجاء برُقْعة ، فوصَلها بها فكَمُلت[3] . فلما استَتَمّ قراءتها بكَى . ثم قال : "رحِم الله أبا العبّاس ! فما كان أعرفَه بتصرُّف الأيام

---

(١) حمولة : ما يحمل عليه المتاع من الدوابّ .

(٢) مخلّفيك : تعبير شائع فى هذا العهد ، والمؤلّف يستعمله كثيرا فى هذا الكتاب ، يراد به أولاد الرجل ومن يعولهم .

(٣) يظهر أنّ يحيى بعث قبل وفاته بنصف الرقعة الذى به اسم أحمد الأحول إلى الفضل بن سهل .

واستدعاء الشكرِ فيها ، والتَحيُّزِ من[١] الذمّ بهـا ! ثم أدخلنى إلى المـأمون وواكد أمرى عنـده ، حتى بلغتُ معه إلى أخصّ أحوال كُتّابه ، ومن وثِق به فى مُهُمِّ أمره .

* * *

وحدّثنى علىٌّ المتطَبِّبُ المعروفُ بالدِيدانِ (وكان حسَن المعرفة بكتب أفلاطون[٢] ورموزِه ، ومُبرِّزا فى الطبّ) قال :

خرجتُ مع رجل يُعرَفُ بابنِ فَرُّوخ[٣] من قوّاد السلطان[٤] إلى طَرَسوسَ . فغنِم سبْياً كثيرا . وكان السَبْىُ فى دارٍ خرابٍ فى الموضع الذى نزل فيه . فدخلت لتأمُّلِه . فوجدت فى السبىِ شاباً حَسَنَ الصورة جميلَ السَمْت ،

---

(١) التحيز : التلوّى ، ويتضمّن معنى الابتعاد .

(٢) هو أفلاطون بن أرسطو أحد أساطين الحكمة الخمسة . صنّف كتبا كثيرة فى الحكمة والفلسفة . وكان لرغبته فى العلم شـديد الطلب له كثير الجد والبحث منفقاوقته وماله فى تحصيل الكتب ، حتى إنه سافر إلى صقلية ثلاث مرات لاقتناء الكتب . وتوفى فى السنة التى ولد فيها الإسكندر ، وقد أخذ العلم عن سقراط وألّف كتبا كثيرة فى الفلسفة ، وعنه أخذ أرسطو .

(٣) فى الأصل : مروخ بالميم . ولا يعلم قائد لابن طولون بهذا الاسم ، والمعروف محمد بن فرّوخ ، كان أميراً على برقة من قِبل ابن طولون .

(٤) السلطان : أحمد بن طولون .

وأكثرُ السبيِ حَوْلَه . ومكانُه منهم مكانُ المولَى من المماليك، يتسرّعون إلى جميع ما أَوْمَأ إليه ، ويكفُونه أخذَه بنفسه ، فكلّمتُ فيه بعضَ السَبْيِ وسألتُه عنه ، فقال لى : هذا مِنْ وَلَد أفلاطون . فارتحتُ إليه لانتفاعى بجَدِّه، ودخلتُ إلى ابن فَرُّوخ فقلت : هَبْ لى من هذا السَبْي غلامًا ، فقال لى : خذه . فدعوتُ بغلام يشتملُ على أمرى[1] ووصفت له الشابَّ الذى فى السَبى ، وقلتُ له : إذا سلّمه إليك غلامُ ابنِ فَرُّوخ فأطعِمه ممّا أعددْتَ من طعامى ، وألبسه من فاخر ثيابى ، وطيِّبه ومكِّنه من مجلسى إلى أن أنصرف إليكم . وتشاغلتُ بأمور ابن فَرُّوخ إلى آخر النهار ، وانصرفتُ فوجدتُه على الهيئة التى آثرتها ، ورام منّى ما يفعلُه غِلمانى من الوقوف فمنعته من ذلك . فقال لى بالرُوميّة : يا سيِّدى ! ما الذى وعدَتْك به نفسُك عنّى ؟ فان كان عندى بذلتُه لك وكنتَ حقيقًا به ، وإن لم يكن لدىّ صدَقْتُك عنه، ولم أتغَنَّمْ منك ما لا يُشبهنى تَغَنُّمُه[2] . فقلت له : قد اقتبسنا من جَدِّك أنوارًا حسُن بها أثرُه علينا ، ووجب علينا بها وقايتُك بأنفسنا . فقال : واللهِ إنّ الطباع التى لأسلافنا معنا ،

---

(١) يشتمل على أمرى : يختصّ بخدمتى و يقوم بشئونى .

(٢) ولم أتغنم منك الخ : ولم أغتنم فرصة عنايتك بادعاء ما لا يليق بى .

ولكنّا شغلناها فى رَعْيِ الخنازير . فبعُدتُ بها ممّن قرّبتنى له ، وأكرمتنى بسببه .

فخيّرتُه بين الدخول معى إلى مصر ، على أن أُشاطرَه مِلكى وعَيْشى ، أو أحتالَ له فى ردّه إلى بلده ، فاختار ردّه إلى بلده . فلطُفت له بإنفاذ بعضِ من أثِقُ به مع الرسل المتوجهين معه ، حتى وصل إلى بلده .

* * *

وكانت تنتابُ[1] عجائزَنا عجوزٌ جميلةُ المذهب[2] ، ضعيفةُ الحال ، تعرف بأمّ محمد . فيجتمعن على كلّ صالحةٍ ، وكنت أخصُّها بكفايتها .

فلمّا دخل محمدُ بنُ سُليمان[3] مصرَ نزل فى ظاهرها . واستدعَى الواحدَ بعد الواحد من أسباب الطولونيّة[4] ، فاستصفَى مالَه

---

(١) تنتاب : تأتى مرة بعد أخرى .

(٢) جميلة المذهب : تعبير من تعبيرات هذا العصر ، يراد به حسن العقيدة والوصف بالتدين .

(٣) هو محمد بن سليمان الكاتب . أرسله الخليفة المكتفى بالله العباسىّ لفتح مصر ، فملكها بعد قتل شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ هجرية . ولم تطل مدته بمصر حتى قدم عليه كتاب الخليفة المكتفى بالله بولاية عيسى بن محمد النوشرى ، فكانت مدة إقامته بمصر أربعة أشهر . (النجوم الزاهرة) .

(٤) أسباب الطولونية : عمّال الدولة الطولونيّة والمتصلون بها .

بالسَّوْط ، وعظيم الإخافة . فراعنى أمرُه ، وخِفتُ أنْ يَلْحَقَنى عَسْفُه . فإنّى لجالسٌ فى يوم من الأيام ، وأنا خائفٌ ، حتّى دخلت جاريةُ أُمِّ محمد العجوزِ فسلَّمَتْ علىّ ، فظننتُها واللهِ تقتضى بعضَ ما عوَّدتُها . فقالت : سيِّدتى أمُّ محمدٍ تقرأُ عليك السلامَ وتقول: جاءنى الساعةَ رسولُ ابنِ عمى وسيِّدى أبى علىٍّ محمدِ بنِ سُلَيْمان يسألُ عنّى ، فعرَّفتُه أنّى كنت فى كفايتك ، والرسولُ على الباب يُرِيغُ[1] الوصولَ إليك . فقلت : يدخل . فدخل شابٌّ حَسَنُ الصورة يُعرف بناشئ . فقال : جزاك الله خيرا ! فقد وصفتْك ابنةُ عمِّ سيِّدى بما أرجو أنْ يَحْسُن أثرُه عليك . ودعا بأصحاب الأرباع[2] ، فتقدّم إليهم بأن يمنعوا من يَعْتَرِضُنى[3] . فَعَرَضْتُ عليه بِرًّا . فقال: وأىُّ برٍّ أكثرُ مما أتيته إلينا ، وانصرف عنا . فرجع إلىّ ناشئ هذا برُقْعَة بخطِّ ابنِ سليمان : "سرْ إلينا لننظر فى أمرِك ،

---

(١) يريغ : يريد .

(٢) دعا : أى ناشئ ، ولعلّه يريد بأصحاب الأرباع المشرفين على أقسام المدينة لحفظ الأمن وتنفيذ أوامر السلطان . وقد تستعمل أحيانا بمعنى أصحاب البيوت جمع ربع (بفتح وسكون) .

(٣) يعترضنى : فى الأصل من تعرّضنى .

ونبلغَ فيه محبَّتك ، فإنى أرعَى لك متقدِّم حُرْمَتِك ، ووكيدَ أسبابِك ، إن شاء الله" .

وما لحقنى منه شيء أكرهه حتى انصرف عن البلد .

* * *

وكان أبو الفيّاض سَوّارُ بنُ أبى شُراعةَ الشاعرُ صديقاً لى ، ومائلاً إلىّ . فلمّا اعتزم على الرجوع إلى العراق سألنى أنْ أكتُب له شيئاً من شِعرى ، فكتَبْتُ له مقدار خمسين ورقةً منه ، وكان يستحسنُه ويُعْجَب به ، فصار إلى بَغداد وعرضه على جماعة الأحرار[1] ، وأحسنَ وصفى لهم بسلامةِ مَذْهَبه وطهارة نِيَّتِه .

ودخل محمدُ بنُ سليمان مِصر وقد ردَّ البريدَ بها إلى أبى عبيد الله أحمدَ بنِ صالح[2] فسأل عندَ دُخوله إيّاها عن أحمدَ بنِ يُوسُف ،

---

(١) لعله يريد بجماعة الأحرار : الأشراف وسادة القوم .

(٢) أبو عبيد الله أحمد بن صالح : كان من بطانة العبّاس بن أحمد بن طولون.

فأُحضِر أحمدُ بنُ يُوسُف[١] (كاتبًا كان لأحمدَ بنِ وَصِيف[٢] ولابنِ الجَصّاص[٣] بعدَه) . فقال له : تعرِفُ أبا الفيّاض ؟ قال : لا . فقال لهم : ليس هذا الرجلَ الذى طلبتُ . فأُحضِرْتُ ، فلما رآنى استشرف إلىّ وقال : تعرِفُ أبا الفيّاض ؟ فقلت : ذَكَرَكَ اللهُ وإيّاه بكُلِّ صالحِةٍ ! نعم أعرِفه وكان خِلًّا لى . فقال هل أنشدك من شعره :

ظَلِلْنا بها نستنزل الدَّنَّ صَفْوَه * فَيَنْزِلُ أقباسًا بغير لَهيب

---

(١) فأحضر أحمد بن يوسف : أى شخص غير المؤلف اسمه أحمد بن يوسف ، ثم وصف المؤلف أحمد هذا بأنه كان كاتبا لأحمد بن وصيف .

(٢) أبوه وصيف المملوك التركىّ صاحب الكلمة والنفوذ فى خلافة المستعين بالله الذى يقول الشاعر فيه وفى بغا :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وكان أحمد بن وصيف مقيما بدمشق نفاه إليها المهتدى ، فلما دخلها أحمد ابن طولون انضم إليه هو وجماعة قوّاد ماجور .

(٣) هو الحسين بن عبد الله الجوهرىّ ، كان تاجراً يبيع الجوهر ، وهو الذى أعدّ جهاز قطر الندى بنت خمارويه ، وقد صادره المقتدر وأخذ منه أموالا كثيرة ، وكان على عظم ثروته سليم الباطن غير حادّ التفكير ، توفّى سنة ٣١٥

قلت : لا يا سيِّدى ! ولكنّى أنشدته إياه من شِعرى . فضحِك وقال : واللهِ لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك .

وكان واللهِ أفضلَ عونٍ لى على أمورى .

* * *

وحدّثنى أحمدُ بنُ سِقلاب[1] . قال :

كان بِمصر رجلٌ من الفقهاء مشهورُ الاسم ، وله حَلْقةٌ عظيمةٌ بالجامع . فبينا هو فى صدرها إذْ وافى علّانُ بنُ المُغيرة ، فلمّا رآه مقبِلًا نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتّى لَقِيَه . فأكثرت الجماعةُ قيامَ شيخٍ مِثله إلى حَدَثٍ مثلِ علّان وتحفّيه به وعَرَضَ نفسه عليه ، وأنّه لم يَدَعْ شيئا يفعلُه تابعٌ بمتبوع إلّا بذله ، وأسرَرْنا المَوجِدة[2] عليه .

---

(١) لعلّه من أسرة سقلاب بن شنينة المصرى ، الذى كان زميلا لورش ، وهو الذى نقل معه قراءة نافع إلى مصر .

(٢) الموجدة : الغضب .

فلمّا قام عِلّانُ ، قال لجماعتنا : ما اعلَمَنى بما أضمرتم ! ولكنّى أُريكم عذرى فيما خرجتُ إليه[١] :

كانت عندى ألفُ[٢] دينار وديعةً لرجل بالمَغْرِب قد طال مُقامهُا وطالَبَ زَوْجُ ابنتى بإدخالِ امرأته عليه . فجلستْ أمُّها بحضرتى فقالت لى : ما الذى تراه فيما قد ألحّ فيه هذا الرجلُ ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوُّزَ[٣] . فقالت لى : لنا حُسَّادٌ نخافُ شماتَتَهم ، ولا بدّ من أن تُعينَنى على التَجَمُّل . فقلت : إنْ كان ما تُريدين فى قدرتى لم أبخَلْ به عليكم . قالت : هو فى قدرتك . قلتُ : ما هو ؟ قالت : تمكّنُنى من هذه الوديعةِ ونحتاطُ فيما نبتاعه من الجِهاز حتى يصلَ إلينا ثمنُه فى أىِّ وقتٍ أردناه[٤] ، وندخِلُ هذه الصبيةَ على زوجها ،

---

(١) فيما خرجت إليه : أى عن المألوف من شدّة الحفاوة به .

(٢) الألف مذكر ، وقد يؤنث ، يقال ألف مؤلّفة ، وعلى هذا جرى المؤلف فأنّث الفعل وهو " كانت " .

(٣) نستعمل فيه التجوّز : أى ندخلها على زوجها مع التقليل من نفقات العرس والجهاز .

(٤) ونحتاط الخ : أى نشترى فى الجهاز الأشياء التى إذا أردنا بيعها فى أى وقت استطعنا ذلك .

فانْ جاء صاحبُ الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نُوضِعْ [1] فيه إلّا ما يسهُل علينا غُرْمُه . قلت : هذا قبيحٌ عند الله وعند خَلْقه . فلم تزَل تُلِحُّ بى وتحتالُ علىَّ حتّى أجبتها . فجَهَّزَتِ ابنتَها بجميع المال وأدخلتْها على زوجها . فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلّا شهران حتّى وافَى صاحبُ الوديعة يطلبُها . فقلت لها ما تفعلين ؟ فقالت : أَمضِى فأحملُ المتاعَ وأبيعُه . فمضت إلى ابنتها ورجَعَتْ إلىّ فقالت : لا تَشْغَلْ نفسَك بهذا المتاع ، فقد حلَف زوجُها بطلاقها إنه لا يَخرُج منه شىء عن منزله ! فَسُقِطَ فى يدى ، ورأيت الفضيحةَ فى الدارين متصدِّيةً لى . فوُضِعَ إفطارى بين يدىّ فلم أَطْعَمْ ، واعترانى ما خِفتُ منه على عقلى ، وبِتُّ بليلةٍ مابِتُّ بمثلها ، وأنا أتبيّن سُهولة ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزْته لبنتها . ثم انتبهت قبل الفجر بمنازلَ [2] ، فصحت بالغلام : أَسْرِجْ لى . فقام وأسرج وقال : يا سيّدى ! أين تمضِى ؟ فقلت : ليس لك الاعتراضُ علىّ .

وركِبتُ وسرتُ بطَوْعِ عِنانى ، فلم يزل بغلى يسير حتى دخلتُ زُقاق عِلّانَ بنِ المُغِيرةِ . فوقفت على باب داره وصاح الغلام

---

(١) ولم نوضع : ولم نقلل من ثمنه الأصلى .

(٢) بمنازل : يريد بدرجات زمنية .

بالبوّاب وعرَّفه بموضعى . فسمِعتُ حركةً فى داره ، ثم فُتِح البابُ وأُذن لى بالدخول ، فدخلت عليه ، فوجدتُ بين يديه شمعة ، وهو يكتُب جواباتِ كُتُبِ وُكلائِه . فلما رآنى قام إلىّ وقال لمن حَضَرَهُ من الغِلمان : تَنَحَّوْا ، وأقبل علىّ فقال : واللهِ لو بعثتَ إلىّ لسرتُ إليك ولم أُجَشِّمْك السعىَ إلىّ ، فاشرح لى أمرَك . فغلبتنى العَبْرةُ ، وحالت بينى وبين الكلام ، فما زال يُسَكِّنُنى حتى نَصَصْتُ له اتفاق[1] الوديعةِ ، وهو مغموم بأمرى . ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت ألفُ دينارٍ ! فضحِك ، وقال : فرّجتَ واللهِ عنّى ! ما توسّمْتُ أنّى أملِكُها . فكان الغمُّ يقع بها ، فأمّا وهى فى القُدرة فما أسْهَلَها علىّ ، وأخفَّها لدىّ ! ثم قال لغلامه : جئنى بتلك الصِرار التى وردتْ علينا من المغرب فى هذا الشهر ، فجاء بأربع صِرار فنظر فيما عليها وجمَعَه وقال : هذه ألفُ دينارٍ وخَمْسُمائةِ دينارٍ : ألفُ للوديعة ، وخَمْسُمائة تُصلح بها ما بينك وبين مَنْ عندك . ثمّ قال لى : متى أشكرُ[2] إفرادَك إيّاى بعد الله (عزّ وجلّ ذكره) بتأميلى فى حادثة

---

(١) اتفاق الوديعة : أى ما اتفق وحصل لها ، ويجوز أنها محرفة عن إنفاق .

(٢) متى أشكر الخ : أى لا أستطيع فى أى وقت أن أشكر الخ .

حدثت عليك فأعانى الله على مكافأتك ! وأضاف إلىّ من خَفَرَنى إلى منزلى .

فقالت الجماعة : قد سمِعنا عذرك ، وعلينا عهدُ الله إنْ لَقِيناه[١] أبداً إلّا قياما .

* * *

وبعث أحمدُ بنُ طُولون فى الساعة التى تُوُفِّى فيها يُوسُفُ ابنُ إبراهيمَ والدى بخدمٍ . فهجموا الدارَ[٢] ، وطالبوا بكُتُبِه مقدِّرين أنْ يجدوا فيها كتاباً ممن ببغداد . فحملوا صُندوقين ، وقبضوا علىّ وعلى أخى ، وصاروا بنا إلى داره ، وأُدْخِلْنا إليه ، وهو فيها جالس ، وبين يديه رجل من أشراف الطالبيِّين . فأمر بفتح أحد الصُندوقين وأدخل خادمٌ [يده] فوقَع[٣] دَفْتَرُ جِراياتِه على الأشراف وغيرهم . فأخذ الدفترَ بيده وتصفَّحه ، وكان جيِّدَ الاستخراج[٤] ، فوجد اسمَ الطالبىِّ فى الجراية ، فقال له ، وأنا أسمع : كانت عليك جراية ليوسف ابن إبراهيم ؟ فقال له : نعم : يأيها الأمير ! دخلتُ هذا البلدَ وأنا

---

(١) أن لقيناه : ما لقيناه .

(٢) هجموا الدار : المألوف هجموا على الدار .

(٣) فوقع دفتر الخ : فاتّفق أن وقع فى يده دفتر .

(٤) جيّد الاستخراج : يحسن فهم الأوضاع الحسابية وطرق استخراج النتائج منها .

مُمْلِقٌ ، فأجرَى علىّ فى كلّ سنة مائتى دينارٍ ومائتى إردبٍّ قمحٍ أُسْوَةً بابْنَىَ الأرقط والعَقِيقىّ وغيرهما . ثم متُنَتْ [1] يداى بطَوْل الأمير فاستعفيتُه منها . فقال لى : نَشَدْتُك اللهَ إنْ [2] قطعتَ سببًا لى برسولِ اللهِ (صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) . وتدمّع [3] الطالبىُّ . فقال أحمدُ بنُ طُولون : "يرحم اللهُ يُوسُفَ بنَ إبراهيم"! ثم قال لنا انصرفوا إلى منازلكم لابأس عليكم ! فانصرفنا فَلَحِقْنا جَنازةَ والدنا ، وحَضَرَنا العَلَوىُّ ، وقد أحسنَ مكافأةَ والِدنا فى مُخَلَّفِيه [4] .

* * *

وحدّثنى موسَى بن مُصلح . قال : أنفذ إلىّ حَسَنُ ابنُ مُهاجرٍ [5] كاتبُ أحمدَ بنِ طُولون عشرة رجال من التُجّار ،

---

(١) متنت : قويت وصلُبت . وفى الأصل : امتنت ويمكن توجيهها على تكلف .

(٢) إن قطعت : ما قطعت .

(٣) لم نعثر على هذا الفعل بهذه الصيغة فى المعجمات .

(٤) مخلفيه : أولاده .

(٥) كان كاتبا لحسين الخادم . ولما غضب ابن طولون على ابن مفضل كاتبه استخدمه فى كتابته . وقد ولد حسن هذا بالرَقة . وكان والده يتوكل لحسين الخادم فى ضياع هناك . ثم كان أن حمد حسين الخادم أمر حسن هذا فضمه إليه وتولى تنشئته وبقى معه إلى أن استخدمه ابن طولون على البريد ، ولم ينكر منه ابن طولون إلا شدّته على الناس ليحظى بذلك عنده ، وبقى فى خدمته حتى مات .

وقال اعتقلهم بمعزلٍ عن المسجونين حتى أُعرِضَهم فى غدٍ علَى الأمير ، فتسلّمتُ منه قوما تشهَدُ لهم القلوبُ بالفضل . فآنستُ وحشَتهم ، وفسَحتُ رجاءهم . فقالوا لى : قد شكرنا جميلَ صَنيعِك ، ولنا إليك حاجةٌ . قلت : ماهى ؟ قالوا : فينا فتًى يضعُف قلبُه عن لِقاءِ الأمير فتقبّل منا بَدَلًا به ، ولك علينا مائةُ دينارٍ . قلتُ : أنا أفعلُ إن وجدتم من يُجيب إلى هذا — وكان عندى أنّه كالممتنِع — فأخذ شيخٌ منهم رُقْعَةً وكتب فيها إلى رجل كان قد أولاه عارفة ، فسأله ذلك ، فأجابه الرجلُ : إنى بإثرِ رُقْعتى .

قال موسى : فتوهّمتُ أنّ هذا قولٌ لاثمرةَ له ، فلم أشعُرْ به حتى وافَى . فقال : ما أخّرنى عنك إلّا أنّى جدّدتُ وصيّةً ، وأحكمتُ ما خِفتُ أن يقطَعَنى عنه ما دعوتنى إليه . وقال : لست أُجيبك إلى ما التمست حتّى تكونَ المائةُ الدينارِ من عندى دون جماعتِكم ، وأخرجها من كُمّه ودفعها إلىّ ، وصرفتُ الرجلَ ، وأقام هذا مكانَه ، فلم أتبيّنْ منه غمًّا بهذا ولا قَلَقًا له . وظلُّوا ليلتَهم يتحدّثون ويتناشدون ، والسلامةُ غالبةٌ على خواطرهم ، حتى أصبحوا وأخرجهم حسنُ بنُ مُهاجر ، فعرضهم

على أحمدَ بنِ طُولون . فتبيّن تحامُلَه عليهم . فأمره بترك التعرُّض لهم فانصرفوا ، وكانت ألطافُهم ترِدُ عليّ حتّى فقدتُهم .

* * *

وحدثنى أحمدُ بنُ أيْمَنَ [1] كاتبُ أحمدَ بنِ طُولون . قال : دخلتُ بالبَصْرة إلى تاجر — ذهب عنّى اسمُه — فرأيتُ بين يديه ابْنين له

---

[1] نكبه أحمد بن طولون بعد أن كان له حظوة عنده ، وكان سبب نكبته ما حكاه عن نفسه فيما رواه البلوىّ صاحب سيرة ابن طولون قال :

كان لأحمد بن طولون ساع يسعى بالكتّاب والمعاملين إليه يعرف بأبى ذؤيب ، فاجتمعنا يوما عند أحمد ابن طولون ، فقال أحمد لكنيز المغنّى : أنا أشتهى صوتا ما سمعته منذ خرجت من سر من رأى ، فقال له : وما هو أيها الأمير ؟ فقال :

ألا سقيتم بنى حزم أسيركم ! * نفسى فداؤك ، من ذى غلة صادى

فقال له : ما أعرفه ياسيدى ، فقلت أنا أحسنه ، ففرح بذلك ، فاندفعت ، فطرب أحمد بن طولون طربا شديدا حتى صفّق بيديه ، فحملنى مخف الطرب إلى أن قمت فرقصت على إيقاع اللحن ، فزاد سرور أحمد بن طولون ، وغمزنى على أبى ذؤيب أن أسقط عليه فتزالقت على البساط ، وألقيت نفسى عليه فأخذ يبكى ، فصاح عليه ابن طولون ، فقال له : لم يوجعنى ما وقع على من جسمه ، وإنما آلمنى ما على ظهره من البدر التى اختانها وحصّلها من مال الأمير ، فقال له أحمد بن طولون : أمسك وارفع هذا إلى الصحو . فما مضت إلا مديدة حتى قبض علىّ أحمد بن طولون وحبسنى وأخذ جميع ما كان لى ، وما خرجت من حبسه إلا بعد وفاته . اه بإيجاز .

فى نهايةٍ من النظافة . فلمّا رآنى أُقبِل بنظرى إليهما . قال لى : أُحبُّ أنْ تُعوِّذَهما، ففعلت . وقلت له : استجدْتَ الأُمَّ فحُسن نسلُك! فقال : ما بالبَصْرة أقبحُ من أُمّهما ولا أَحَبُّ إلىّ منها ، ولها معى خبرٌ عجيب ، فسألته أنْ يُحدِّثنيه .

فقال :

كنت أنزل الأُبُلَّةَ [١] وأنا متعيِّش [٢] ؛ فحملتُ منها تجارة إلى البَصْرة [٣] فربِحتُ ؛ وحملتُ من البَصْرة إلى الأُبُلَّة فربِحت . ولم أزَل أحمِل من هذه إلى هذه فأربَحُ ولا أخسَر حتّى كثُر مالى ، وتعالم الناسُ إقبالى [٤] ، وآثرتُ السُكْنَى بالبَصْرة ، وعلِمت أنّه لا يحسُن بى المُقام بها بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قَدْرًا من جَدِّ هذين الغلامين . وكانت له بنتٌ قد عَضَلَها [٥] وتعرّض لعداوة خُطّابها .

---

(١) الأبلة : (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطئ دجلة أقدم من البصرة .

(٢) متعيّش : متاجر يعيش بالقليل الذى يربحه .

(٣) البصرة : ثغر على شطّ العرب على نحو مائة ميل من مصبه ، ولها تجارة عظيمة مع بغداد ، ويؤمها كثير من السفن التجارية الآتية من الخليج الفارسى .

(٤) إقبالى : حسن حظى .

(٥) عضلها : حال دون زواجها .

فحدّثتنى نفسى بلقائه فيها ، بِفجئته على خَلْوة . وقلت له : يا عَمِّ ! أنا فلانُ بنُ فلانٍ التاجرُ . فقال : ما خفِيَ عنى مَحَلُّك ومَحَلُّ أبيك . فقلت : قد جئتك خاطباً لابنتك . فقال : والله ما بى عنك رغبةٌ ؛ ولقد خطبها إلىّ جماعة من وجوه البَصْرة وما أجبتهم ، وإنى لكارهٌ من إخراجها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمُها تقويمَ العبيد[1] فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أنْ تُدخِلَنى فى عَدَدك وتخالِطَنى بشَمْلِك[2] . فقال : ولا بُدَّ من هذا ؟ قلت : لا بُدَّ ، وهو زائد فى فضلك علىّ واصطناعك إيّاى . فقال :

آغدُ علىّ برجالكِ . فانصرفت عنه إلى مَلَأٍ من التُجّار ذوى أخطار ، فسألتهم الحضورَ معى فى غدٍ ، فقالوا : إنّك لتحرِّكُنا إلى سَعْيٍ ضائع . قلت : لابدّ من ركوبكم معى . فركِبوا على ثقةٍ من أنّه يردُّهم ، وغدَوْنا عليه فأحسن الإجابةَ ، وزوّجنى وأطعم القوم ونَحَر لهم وَانْصَرَفُوا .

---

(١) وإنّى لكاره الخ : يقول : إنى أكره أن تقدّر قيمتها على الأسس التى تقدّر بها العبيد من جمال الوجه وحسن الهيئة .

(٢) بشملك : بأهلك .

ثم قال لى : إن شئتَ أن تَبيت بأهلك فافعل ، فليس لها مايَحتاج إلى التلوُّم[١] عليه . فقلت : هذا ياسيِّدى ما أُحبّه . فلم يزل يُحدِّثنى بكل حَسَنٍ حتّى كانت المغربُ فصلّاها بى ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعَوْت ، إلى أن كانت العَتَمَةُ فصلّاها بى ، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دارٍ قد فُرِشَتْ بأحسنِ فِرْشَةٍ ، بها خدمٌ وجوارٍ فى نهايةٍ من النظافة ، فما استقرّ بى الجلوسُ حتى نهَض . وقال : أَستودِعُك اللهَ ، وقدّم اللهُ لكما الخيرَ ، وأحرز التوفيقَ !

واكتنفتنى عجائزُ من شَمْلِه ، فخلَوْن ابنتَه علىّ . فما تأملتُ طائلًا[٢] وأرخت[٣] الستورَ علينا . فقالت : ياسيِّدى ! إنى سِرٌّ من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضَى به إليك ورآك أهلًا[٤] لسَتره عليه ، فلا تُخْفِر[٥] ظنَّه فيك[٦] . ولو كان الذى يُطْلَبُ من الزوجة حسنُ صورتها

---

(١) التلوّم : التلبث .

(٢) فما تأملت الخ : أى فما رأيت شيئا له فضل أو مزية ، يريد أنها كانت خِلوا من الجمال .

(٣) أرخت : الضمير الفاعل يعود على العجائز .

(٤) أهلا : فى الأصل : أصلا .

(٥) تخفر : تنقض وتخلف .

(٦) فيك : فى الأصل : فيه .

دون حسن تدبيرها وعفافها لعظُمتْ مِحْنتى . وأرجو أن يكون معى منهما أكثرُ مما قصّربى[١] فى حسن الصورة . ثم وثبت فجاءت بمالٍ فى كيس . فقالت : ياسيِّدى ! قد أحلَّ الله لك معى ثلاثَ حرائرَ وما آثرتَه من الإماء ، وقد سوّغتُك[٢] تزوّجَ[٣] الثلاث وابتياعَ الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفتُه على شهواتِك ، ولستُ أطلبُ منك إلّا سَتْرى فَقَط .

فقال لى أحمدُ : فخلف لى التاجر إنها ملكتْ قلبى مِلْكا لم تصل إليه حَسَنَةٌ[٤] بحُسنها . فقلتُ لها : جزاءُ ما قدّمتيه ما تسمعينه منّى : واللهِ لا أصبتُ[٥] من غيرك أبداً ، ولأَجْعَلَنَّكِ حظّى من دنياى فيما يُؤثره الرجلُ من المرأة ! وكانت أشفقَ النساء وأضبطهنّ وأحسنهنّ[٦] تدبيراً فيما تتولاه بمنزلى ، فتبيّنتُ وقوعَ الخِيرة[٧] فى ذلك ، ولحِقتنى السِّنُّ

---

(١) قصّربى : لم يوصّلنى إلى الغاية .

(٢) سوّغتك : فى الأصل : سوّغك .

(٣) تزوّج : فى الأصل : تزويج .

(٤) حسنة : أى امرأة حسنة .

(٥) أصبت : مفعول أصبت محذوف أى حاجة أو غرضا .

(٦) فى الأصل : وأضبطهم وأحسنهم .

(٧) الخيرة : حسن الاختيار .

فصارتْ حاجتى إلى الصواب أكثرَ ..... وشكرَ اللهُ لى تلقّيتُ به جميلَ قولِها ، وحسنَ فعلِها ، فرزقنى منها هذين الابنين الرائعين لك . ونحن منقطعون إلى جوده فينا ، وإحسانِه إلينا .

* * *

حدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوبَ قال :

أنكر المَهْدىّ[1] على هَرْثَمَةَ بنِ أَعْيَنَ[2] تحكّمَه بمَعْنِ بنِ زائدةَ[3] ، وأمر بنفيه إلى المغرب الأَقصَى ، فكلّمه الرشيدُ فيه واستلّ سخيمته

---

(١) المهدىّ : هو محمد بن عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس ، ويكنى أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن سهم بن أبى سرح من ولد ذى رعين من ملوك حمير . ولد سنة ١٢٧ هـ وولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ وكانت وفاته سنة ١٦٧

(٢) هرثمة بن أعين أحد أمراء الرشيد وخواص قواده . كان شجاعا مقداما مهيبا ، فولاه مصر سنة ١٧٨ هـ ولم تطل مدّة ولايته فقد عزله الرشيد بعد شهرين ونصف شهر لأنه كان يندبه للمهمات الجسام . وأرسله إلى المغرب و بقى على المغرب سنتين ونصف سنة وكانت وفاته سنة ٢٠٠ هـ .

(٣) هو أبو الوليد معن بن زائدة . كان جوادا شجاعا جزيل العطاء . وكان مروان بن أبى حفصة الشاعر خصيصا به ، وأكثر مدائحه فيه ، وكان معن أيام بنى أميه متنقلا فى الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين . ولما آل الأمر إلى العبّاسيين وقتل يزيد تتبعه المنصور ثم عثر به وصفح عنه وجعله من خواصه ، ثم ولى سجستان . فلما كانت سنة ٢٥٨ هـ اندس بعض الخوارج بين صناع يعملون داره وقتلوه .

عليه[١] ومات مَعْنٌ وزادت حالُ هَرْثَمَةَ ، وشكر للرشيد ما كان منه ، وأفضت الخلافةُ إلى موسَى الهادى[٢] . فتمكّن منه هَرْثَمَةُ ، وحدّثت الهادى نفسُهُ بخَلْع الرشيد وجَمْع الناسِ على تقليد ابنه العهدَ بعدَه ، وعَلِم بهذا هَرْثَمَةُ ، وتذكّر عارفَةَ الرشيد فتمارض .

وجمَع الهادى الناسَ ودعاهم إلى خَلْع الرشيد ونَصْبِ ابنه مكانَه ، فأجابوه وحلَفوا له ، وأُحضِر هَرْثَمَةُ . فقالوا[٣] له : تبايع يا هرثمة ! فقال : يا أمير المؤمنين يمينى مشغولةٌ ببَيْعَتك ، ويسارى مشغولةٌ ببَيْعَة أخيك ! فبأىِّ يدٍ أبايع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكَّدْتَ[٤] فى الرقاب من بَيْعَةِ ابنك أكثرَ ممّا أكّده أبوك لأخيك فى بيعته . ومن حنِث فى الأولى حنِث فى الأخرَى ، ولولا تأوُّلُ هذه الجماعة بأنها مُكْرَهة ، وإسرارُها فيك خلافَ ما أظهرتْ لأمسَكتْ عن هذا .

---

(١) استلّ سخيمته عليه : أزال ما فى نفسه من الحقد والغضب عليه .

(٢) الهادى هو أبو جعفر موسى بن محمد الهادى . بويع له بالخلافة سنة ١٦٩ وكانت سنه أربعا وعشرين سنة وأشهرا . وتوفى سنة ١٧٠ . وكان موسى قاسيا . وكان مع هذا كثير الأدب محبّا له شجاعا سخيّا .

(٣) فقالوا له : أى قال له أنصار الهادى .

(٤) ينفى "بلا" فى المستقبل ، وقد أدخلها على الماضى هنا لأن النفى لا يقتصر على الماضى ، ولكنه يمتد للمستقبل أيضا .

فقال لجماعة مَنْ حَضَر : "شاهتْ[١] وجوهُكم" ! والله لقد صَدَقَنى مولاى وكذَبْتُمونى ، ونَصَحَنى وغَشَشْتُمونى !

وسلِمَ إلى الرشيد ما قدّره[٢] الهادى فيه .

* * *

وسمِعتُ يُوسُفَ بنَ إبراهيمَ والدى . يقول :

لم يتمكّن أحدٌ من أحدٍ تمكُّنَ أبى يوسف القاضى[٣] من الرشيد . ولقد سألتُ إبراهيم بنَ المهدىّ عن السبب فى ذلك . فقال كان يستحِقُّ هـذا منه لمـا حَدّثَنى به مسرور الكبير[٤] قال :

---

(١) شاهت وجوهكم : قبحت وجوهكم .

(٢) ماقدّره الهـادى فيه : أى سلمت ولاية العهد للرشيد التى كان الهـادى قد نوى وقرر خلعه منها .

(٣) أبو يوسف القاضى : هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد ، لزم أبا حنيفة فتفقّه عليه وغلب عليه الرأى ، وكان المهدىّ صيره مع ابنه موسى وهو ولى عهده ، وقد تولّى قضاء بغداد للرشيد إلى أن مات سنة ١٨٢ فى خلافة هارون.

(٤) هو أبو هاشم مسرور الخادم . وهو الذى وجّهه الرشيد مع هرثمة بن أعين للغزو فى الصائفة وولّاه النفقات و جميع أمور العسكر فى هذا الجيش ، ما خلا الرياسة فانها كانت لهرثمة .

كنت فى خدمة المهدىّ وكان الرشيد حَفيًّا [١] بى ، محسِنا إلىّ ، فلما انتقل أمرُ الخلافة إلى الهادى . قال لى الرشيد : إنّ أخى قَوىُّ الشَراسَةِ وأنا أخاف إيقاعَه بى ، وجَمْعَ الناس على بَيْعَةِ ابنه بعدَه . وأنا على غايةٍ من الثقة بك ، فاعدِلْ [٢] إليه ، وكن لى عَيْنا عليه . فتقدّمت عند الهادى حتّى تولّيت سِترَ بيتِ خَلْوتِه . وكان المهدىّ قد قَرَنَ أبا يوسف بالهادى فتمكّن منه ، وقبِل فى مهماته مَشُورته ، فلما حَلَا بقلبه [٣] شاوره فى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ! لا تحملْ نفسَك على قطيعة رَحِمك ، وأولياءَك على الحِنْثِ بأَيْمانِهم ، واستدعِ من الله زيادَته بما يُرضيه عنك ! فتوقّفَ بعضَ التوقُّف . وسُعِىَ إليه بالرشيد ، وقيل له إنّه [عامل] على أنْ يغتالك ، فدعا بأبى يوسف وأخبره بما تأدّى إليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! لا تسمَع هذا ، وأنا الضامن لك حسنَ طاعته ، ووكيدَ مُوالاته . فكنت أُنْهِى جميعَ ذلك إلى الرشيد فيشتدُّ سروره به ، ويرغَب إلى الله فى مَعُونته على مكافأته .

---

(١) حفيًّا : كثير العناية والاهتمام .

(٢) فاعدل إليه : فمل إليه واعمل على التقرّب منه .

(٣) حلا بقلبه : أحبّه .

فلما أفضت الخلافةُ إليه دعا به وقال له : يا يعقوب ! لو جاز لى إدخالُك فى نَسَبى ، ومشاركتُك فى الخلافة المُفضِيَة إلىَّ ، لكنتَ حقيقًا به . ألستَ القائلَ لأخى وقتَ كذا : كذا . فقال : يا أمير المؤمنين ! من أنبأَك بهذا ؟ فواللهِ ما كان معنا ثالثٌ . فضحِك الرشيدُ وقال : مسرورٌ كان يتولّى سِترَ بيتِ خَلْوَتِه ، وكان يُنهِى إلىّ جميعَ ما صدرَ عنه .

قال مسرورٌ : فواللهِ ما برِحَتْ بى عنايةُ أبى يوسف حتّى بلَغتُ مع الرشيد هذا المَبْلَغَ .

* * *

وحدّثنى أحمدُ بنُ أبى عِمرانَ الفقيهُ أنّ ابنَ الثَّلْجِىِّ [١] حدّثه أنّ بِشرًا المَرِيسِىَّ [٢] (وكان مُتَزَهِّدا) قال :

---

[١] هو عبد الله بن أبى شجاع كان فقيه العراق فى وقته ، وكان من أصحاب الحسن بن زياد اللؤلؤى ، وكان مولده سنة ١٨١ ، وتوفى سنة ٢٦٦ هجرية (الأنساب للسمعانى) .

[٢] هو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسىّ مولى زيد ابن الخطاب . كان أبوه يهوديا يسكن بغداد . وتفقّه على القاضى أبى يوسف ، وبرع فى علوم كثيرة ، وتوفى سنة ٢١٨ هجرية .

ما اشتهيتُ من مراتب السلطان إلّا مرتبةً رأيت أبا يوسف بلغها . فى عَشِيَّةٍ من العَشايا كنتُ اجتزتُ به مُسَلِّمًا عليه ، فقال لى : تُقِيمُ عندى العَشِيَّةَ لنتناظر فى طائفة من العلم . فإنّى لجَالسٌ عنده ، وقد ابتدأ فيما آثرناه ، حتّى وافَى إليه رسولُ أميرِ المؤمنين الرشيد . فقال لى : انتظرْنى . ومضَى فغاب عنّى مقدارَ ساعتين ورجَع ، وخلفَه غِلمانٌ يحملون مالًا ، فوضعوه بين يديْه وانصرفوا . فقال : دُفِعْتُ الليلةَ إلى عجائبَ . قلتُ : ما هى ؟ قال : دخلتُ إلى دار أمير المؤمنين فانتهَى بى رسولُه إلى سِترٍ مُسْبَلٍ على بابٍ مسرورٌ الكبيرُ يُمْسِكُه . فقال لى : سلِّم على أمير المؤمنين . فسلَّمْتُ . فقال : وعليك [السلامُ] يا يعقوب ، ادْخُلْ وحدَك ، فَرُفِعَ السِترُ حتَّى دخلْتُ . فألفَيْتُ عنده محمدَ بنَ جعفرِ بنِ المنصور مولَى الجاريةِ المعروفةِ ببَذْل[1] ، ووجهُ كلِّ واحد منهما مُحَوَّلٌ عن صاحبه . وبين يَدَى الرشيدِ سيفٌ مشهور .

---

(١) بذل : كانت مولّدة من مولّدات المدينة ، وربّيت بالبصرة ، وكانت جميلة ظريفة . وكانت أحسن الناس غناء فى دهرها . رغب فى التزوّج بها وجوه القواد والكتّاب فأبت ، وأقامت على حالها حتى ماتت .

فقال لى : يا يعقوب هذا الرجل يُديرنى[١] مُذ الظُهْرِ على قَتْله .

فقال[٢] له : ترضَى به حَكَمًا بيننا ؟ قال : نعم . قال : أَلْقِ هـذا السيفَ عن يدك ، وارضَ بالحقِّ لك وعليك . واستدارا جميعا حتّى جلسا مجلِسَ الخُصوم بين يَدَىَّ . ثم قال الرجل : سألنى أميرُ المؤمنين أن أبيعه جاريةً علىَّ فيها أيمـان مُحْرِجَةٌ لا كفَّارةَ لها ألّا أبيعَها ولا اهَبَها . قال ، فقلتُ له : فتسمَحُ بها لأمير المؤمنين إن أخرَجْتُك من يمينك ؟ قال إى والله ، وإنّ ذلك لَسَهْلٌ علىّ ! فقلت : هَبْ لى نصفَها ، وبِعْه نصفَها . فقال : قد أجبتُ ، وجعلتُ ثمن النصف هديّةً لك . وتعانقا جميعاً ، وانصرفت إليك ولحِقنى هذا المـال .

فوجدنا المـالَ المحمولَ خمسةً وعشرين ألفا . فقلت فى نفسى : أحيا نفسًا ، وأصلح بين خليفةٍ وابن عمّه فى مقدار ساعتين من النهار . قال بِشْر : فواللهِ مافرَغنا من صلاة المغرب حتى ابتدَرَنا الغِلمان يحمِلون مالًا وبَزًّا وطِيباً ، ومعهم جاريةٌ حصيفة . فقالت : تَقْرَأُ عليك السلام

---

(١) يديرنى : يوجّهنى ، يحملنى .

(٢) فقال له : قال محمد بن جعفر للرشيد .

سيِّدتى وتقولُ لك : أجازنى سيِّدى أميرُ المؤمنين بما حملتُه إليك فجعلتُه ثوابَ الفُتيا التى كانت سببَ وصولى إليه . فكان المالُ منه خمسةً وعشرين ألفًا .

* * *

حدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوب قال : حدّثنى أبى أبو يعقوبَ عن جدّى واضحٍ مَوْلى المنصور[١] . قال :

كنتُ بين يَدَىِ المنصورِ وقد أحضَر رجلاً كان من رجال هشامِ بنِ عبدالملك، وهو يسائلُه عن سِيرة هشام لأنّها كانت تُعْجِبُ المنصور. فكان الرجلُ يترحَّمُ عند كل جارٍ من ذكره ، فأحْفَظَ[٢] ذلك جماعتَنا . فقال له الربيعُ[٣] : كم تترحَّمُ على عدوِّ أميرِ المؤمنين ! فقال الرجلُ

---

(١) الخليفة المنصور : هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على ابن عبدالله بن العبّاس بن عبدالمطلب ، بويع له بالخلافة سنة ١٣٦ هجرية وهو ابن إحدى وأربعين سنة . وكان مولده سنة ٩٥ هجرية فى اليوم الذى مات فيه الحجّاج . وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامة بربرية . وكانت وفاته سنة ١٥٨ هجرية .

(٢) أحفظ : أغضب .

(٣) هو الربيع بن يونس ، من موالى بنى العباس ، اتخذه المنصور حاجبا ثم استوزره ، وكان مهيبا محسنا إدارة الشئون . عاش إلى خلافة المهدىّ وتوفى سنة ١٦٩

للربيع : مجلسُ أمير المؤمنين (أيّده الله) أحقُّ المجالس بشكر المحسِن، ومجازاة المُجْمِل، ولهشام فى عنقى قلادةٌ لا ينزِعها إلاَّ غاسلى . فقال له المنصور : وما هـذه القِلادة ؟ قال : قلَّدنى فى حياته ، وأغنانى عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : أحسنتَ بارك الله عليك ! وبحسنِ المكافأةِ تُسْتَحَقُّ الصَّنائع ، وتزكو العوارف ، ثم أدخَله فى خاصَّته .

* * *

وقد مَثَّل بعضُ الفلاسـفة : لِحُسْن المكافأةِ بحسام الصَّيْقَل[1] الذى يُحدِث له وقوعُ الشمس عليه انبعاثَ شعاعٍ منه يجلو غَياهب الأمكنة المظلمة ، ويكونُ وفورُ شُعاعه على حسب صَقالته .

وقال أفلاطون : من حسُنت مكافأته[2] لم تغضبه خيبته فيما التمسه ، لأنه يُقيم العوارفَ[3] مُقام دُيون يتحمّلها لا يَسَعه إغفالُ

---

(١) حسام الصيقل : الصيقل شحّاذ السيوف وجلّاؤها ، وإنما خصّ حسام الصيقل لأنه يواليه بالصقل والجلاء .

(٢) من حسنت مكافأته : من كان من طبعه أن يحسن المكافأة على ما أدّى إليه من صنيع .

(٣) العوارف : جمع عارفة ، المعروف والمكرمة .

قَضائها . وإنّما يغضَبُ من المَنع[١] : من آثَرَ تحصيلَ العارفة ، وإغفالَ المكافأة عليها . ولأنّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى مُطالعة[٢] حُسْنِ المكافأة للإحسان فيثابِرُ عليه ، وسوءَ المكافأة على الإساءةِ فيتأخَّرُ عنه ، كان الراغب محتاجًا إلى أن يكون فى خَلَدِه[٣] من أخبارِ مَنْ أساء الصَّنيعَ فساءت مكافأتُه ، ما يوازى ما أثبتناه من حُسْنِ المكافأة للإحسانِ[٤] .

---

(١) المنع : منع الناس معروفهم عنه .

(٢) مطالعة : تصوّر .

(٣) خلده : باله ونفسه .

(٤) يقول على كلٍ من المرغوب فى إحسانه وطالب الإحسان أن يذكرا حسن المكافأة على الفعل الحسن ، وسوء المكافأة على الفعل القبيح ، حتى يكون ذلك حافزا للأول على المثابرة على الإحسان ، ودافعا للثانى على إثابة من يحسن إليه .

المكافأة على القبيح

حدّثنى أحمدُ بنُ يُوسُفَ بنِ جعفرِ بنِ سُلَيْمان بنِ علىٍّ بنِ عبد الله بنِ العبّاس عن أبيه عن جدّه مَوْلَى عبدِ اللهِ بنِ المُقَفَّعِ[١] أنّ عبدَ الله حدّثه . قال :

كان فيما تَرْجَمْتُه من سِيَرِ الفُرْسِ ، أن فَيْرُوزَ[٢] لمّا تقلّد مملكةَ فارسَ حدّثته نفسُه باجتياز بلدِ الهَيَاطِلة[٣] . وكان به

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد فحول البلاغة . وكان من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب . وكان أبوه المقفع يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق من قبل بنى أمية . وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هجرية . ولما ذاع فضله استكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يوسف بن هبيرة . ثم كتب فى عصر بنى العباس لعيسى بن على عم المنصور فى أثناء ولايته على كرمان . وعلى يديه أسلم وتسمّى (عبدالله) ثم اتصل بالمنصور ثم قتل بالبصرة سنة ١٤٢

(٢) هو فيروز بن يزدجرد بن بهرام آل إليه الملك بعد قتله أخاه هرمز . وبقى فيروز ملكا إلى أن هلك على يد ملك الهياطلة بمرو الروز من بلاد خراسان . وكانت مدة ملكه سبعا وعشرين سنة .

(٣) بلاد الهياطلة اسم لبلاد ماوراء النهر : بخارى وسمرقند وما بينهما . وفى تاريخ أبى الفداء : أنّ سبب محاربة فيروز لملك الهياطلة أنّ فيروز خطب ابنته فلم يجبه .

للهَياطِلة ملِكٌ صحيحُ الرأى ، حَسَنُ الحِوار ؛ فجمَع ذوى الرأى فى بلده وسألهم عمّا يَرَوْن ، فعرَضوا عليه أموالَهم والخروجَ معه فجزّاهم خَيْرًا[1] وانصَرفوا .

وخلا به وزيرُه (وكان عالى السن) . فقال له : أيها الملك ! إنّ يسيرَ الحيلة ربّما بلغ أوفَى منازل المُكافحة ، والذى عندى من الرأى أن تُظْهِرَ السُخْطَ عَلَىّ ؛ فتقطعَ يَدَىّ ورِجْلَىّ وتَنْفِيَنى إلى أقاصى عملِك ؛ وتكتُبَ إلى عاملك هناك فى حَبْسى ، وتُظْهِرَ أنّك تبيَّنْتَ منّى مَيْلًا إلى فَيْرُوزَ فقال له : إنّ حُسْنَ الحِيلةِ إنّما يقَعُ بغير إضرار يلحَقُ صاحبَها[2] ؛ وإذا بلَغْنا بك هذا فقد جاوزْنا بك ماتخافُه من فَيْرُوزَ لو حَصَلْتَ فى يده .

فقال : أنا مُذْ تكامل تمييزى أحسُبُ مالى وعَلَىّ ، فاذا وُهِبَتْ لى نعمةٌ علمتُ أنّ علىّ فيها مِحْنَةً ، وأنّ الرغائبَ بالنوائب ، وقد عشتُ فى سلطانكَ أيّها الملكُ فى هذه السِّنِّ العاليةِ عزيزَ الجانب ، خصيبَ الأفنِيَةِ ، وشَمْلِى فى نهايةٍ من رَفاغةِ العيش[3] وليس من

---

(١) جزّاهم خيرا : قال لهم جزيتم خيرا .

(٢) أنّث الضمير العائد على حسن الحيلة باعتبار المضاف إليه .

(٣) رفاغة العيش : سعته وخصبه .

الجميل أن أُمسِكَ عن قضاءِ حقِّ النعمةِ علىّ لسلطانى وشَمْلى وأهلى وولدى ، وصِيانَتِهم ممّا عداهم بنفسى . وأعْلَمُ أنّى لو خَدَمْتُ[1] السلامةَ لنفسى لمـات ذِكْرى بموتى ، ولم أُبْقِ شرفاً لأهلى ، ولعـلّ أجلى قريبٌ فأفوزَ بحسن الذِكر فيما أتيتُه ، وقضَيْتُ به حقَّ سوالفِ الإنعام علىّ ، والإحسانِ إلىّ . وإنّما اعتمدتُ[2] هذا الأمرَ الفظيعَ لأعْدِلَ بفكرِ فَيْرُوز عن الحيلة[3] ، وأَضْطَرَّه إلى السُكون إلىّ . فلما رأى أنّه لا يَرْجِع عمّا أشار به عليه ، دعا به وقطَع يَدَيْه ورِجْلَيْه ، ونفاه إلى آخِرِ مَسالحه[4] فكان محبوسا هناك .

وجَدّ فَيْرُوز فى سفره فوافَى الموضعَ الذى فيه الوزيرُ فوجده خاليا ممّن كان فيه ، ولم يَرَ به غَيْرَ رجلٍ مقطوعِ اليدين والرجلين ؛ فسأله عن حاله فقال : كنتُ وزيرا لهذا الخائن ؛ فاستشارنى فأشَرْتُ عليه ألّا يناهِضَك ، وأنْ يسألَك إقرارَه فى البلد ، وَحَمْلَ خَراجِه إليك ، فاستشاط وسوّلَتْ له نفسُه مُناوَأتَك . وقد جمَع جيشًا له كثيرَ العَدَد

---

(١) خدمت : يريد راعيت ولعلها محرّفة عن قدّمت

(٢) اعتمدت : قصدت .

(٣) لأعدل بفكر الخ : لأبعد عن فكره أنى أحتال عليه للإيقاع به

(٤) مسالحه : جمع مسلحة ، وهى المكان من المملكة المحصن بالسلاح .

قَوىَّ النِكاية ، وقدَّر أنْ يَلْقاك فى هذه الطريق . وعندى حيلةٌ أُجازيه بها على سوء صنيعه .

واستجْلَى فَيْرُوزُ الوزيرَ فقال له : إن عدلتَ عن هذه الطريق وتجشَّمتَ قَطْعَ بَرِّيَّة يُقيم السائرُ فيها يومين ، تحتاجُ إلى حَمْل الماء إلى مَسيرة يومٍ منها ، ثم تُفْضِى إلى مياه متدفِّقة . فاذا قطعتَها وصلْتَ إلى بلد الهيَاطلة ، وهُو وجَمْعُه فى الطريق الذى آثَرَ سلوكَها[1] ، فتدخُلُ البلدَ بغير حَرْب .

فَحَمَلَتْه الأستنامةُ إليه بما رآه به على تصديقه ، ولِحَجّ[2] فى البَرِّيَة بجميع جَيْشه (وقد كان واطَأَ [الوزيرُ] الملكَ على تكمين جَمْع له آخَرَ فى البَرِّيَة) . فسار يومَه وبعضَ غده فى قَفْرٍ لا يوجد به ماءٌ ولا نَبْتٌ ، فتساقطت الدَوابُّ ، من العطش ، وافترق الجيش لطلب الخلاص ، وخرج عليه مِنْسَرٌ[3] من جيش الهيَاطلة ، فَأَبَرُّوا عليهم ،[4]

---

(١) وهو وجمعه الخ : أى بينما يكون هو وجمعه فى الطريق التى نهيتك عن السير فيها والتى كنت تريد سلوكها .

(٢) لحج : دخل .

(٣) منسر : قطعة من الجيش تمتر قدام الجيش الكثير .

(٤) أبرّوا عليهم : زادوا عليهم وفاقوهم فى القوّة . وفى الأصل : فاثروا عليهم ، وهو تحريف .

وأخذوا فَيْرُوزَ أسيرًا ، فمنَّ عليه ملكُ الهَياطلة بالإمساك عن قتله ، وجمَع وُجُوهَ بلده، وأضاف إليهم وجوهاً من عسكر فَيْرُوزَ، واستحلفَ فَيْرُوزَ بحضرتهم أنَّه لا يجاوزُ حَجَرًا جعَله فَصْلاً مُشْتَركا بينه وبينه . وأثبَتَ المفارَقَة [1] فى صحيفة بخطِّ فَيْرُوزَ وأشْهَدَ عليه الجماعةَ ، وأطلقه على غاية من التبجيل والإكرام .

فدخَلَتْ فَيْرُوزَ خَجْلَةٌ من رُجوعه إلى مملكته بعد أسْرِ ملك الهَياطلة له وتعييرِه [2] به ، وحدّثَتْه نفسُه بمعاودة قتاله . فخرج إليه وسَوّلَتْ له نفسُه أنّه إنْ حَمَل الحَجَرَ حتى يدخُلَ به بلدَ الهَياطلة لم يحنَثْ فى يمينه . فحمَلَه بين يَدَيْه وسار بجَمْعٍ كثيرٍ، وخرَج إليه ملِكُ الهَياطلة فالتقَيا فى منتَصَف طريقَيْهما ، فلما تراءَى الجَمْعانِ انفرد ملِكُ الهَياطلة عن جَمْعِه ،وسأل فَيْرُوزَ موازاتَه ليسمَعَ منه شيئا . فبرَز فَيْرُوزُ . فقال له : أنا وإيّاك فى قبضة من حنِثْتَ فى اليمين به ، وهو (عزَّ وجلّ) يشكُر

---

(١) وأثبت المفارقة : أى الاتفاق الذى فارق كل منهما صاحبه عليه .

(٢) فى الأصل : تمعيره ، ويمكن توجيهها بتكلف . يقال معّرت وجهه إذا غيّرته غيظا .

للحسن إحسانَه ، ويعاقِبُ المُسِيءَ بإساءته ، وقد أنعمتُ عليك ، واحسنتُ إليك ، وأنا أُخَوِّفُك اللهَ وأُحَذِّرُكَ سَطَوَاتِه ، فإنّى أعْلَمُ أنّ حَياءَك ممّا جرَى عليك هو الذى ردّك ، فينبَغى أن يكون استحياؤك من الله (عزّ وجلّ) أشَدَّ من آستحيائِك من خَلْقه . وليس يُخْرِجُك من يَمِينك حَمْلُ هذا الحَجَرِ بين يديْك ، لأنّ اليمين تكونُ على نِيَّةِ المُسْتَحْلِف لا على نية المستَحْلَف ، فتدبَّرْ قولى ، وآعْلَمْ أنّ مَنْ سمِعك[1] من أصحابى على غايةٍ من الثقة بالله فى نصره ، ومن سمِعك من أصحابك عَلَى ذُعْرٍ من أن تَهْلِك بِحَوْبِك[2] فقال له : لستُ أرجِع عن قتالك .

فأمر أن تُرَكَّبَ الصحيفةُ على أطولِ رمح فى العسكر ، وحَمَل عليه فَهُزم جيشُ فَيْرُوزَ وقُتِل فيروزُ فى المعركة[3] .

* * *

---

(١) من سمعك : أى وأنت تقسم اليمين .

(٢) الحوب : الاثم .

(٣) قالوا : إنه تردّى مع بعض جماعته فى خندق حفره الهياطلة وغطّوه فمات .

وسمعت أبا جعفرٍ محمدَ بنَ هَرْثَمَةَ . يقول :

كان محمدُ بنُ عبدِ الملك الزيّات[١] يسعى على المتوكّل فى أيام الواثق[٢] ويُحَرِّضُه عليه . فتغيّرَتْ عليه نيّتُه حتى أدّاه ذلك إلى حبسه عند محمدِ ابنِ عبدِ الملك .

فسمعتُ المتوكّل يقول (فى اليوم الذى تقدّم فى إدخاله إلى التنّورِ الحديدِ) : لم يُمْنَ أحدٌ بمثلِ ما مُنِيتُ به من ابنِ الزيّات ! ضَيَّق علىّ محبِسى ؛ ومنعنى مما اقتضَتْنِيه عادتى . وكنتُ قد رَبَّيْتُ وَفْرَةً[٣] فلم يُطْلِق [لى] تنظيفَها ؛ فكثُرت الدوابُّ فيها . وتأدّى ذلك إلى

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيّات وزير المعتصم . وكان جدّه أبان من قرية يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد . واستوزر المعتصم ابن الزيّات بعد ماعلم فضله وحزمه و بسط يده. وكان مع الكتابة شاعرا. ولما مات المعتصم وولى الواثق أقرّه على ما كان عليه . ثم لمّا ولى المتوكل كان فى نفسه منه شىء ، وأغراه به أحمد بن أبى دواد فقبض عليه واستصفى أمواله ، ثم وضعه فى التنور فمات ، وذلك سنة ٢٣٣ هجرية .

(٢) الواثق : هو هارون الواثق بالله بن أبى إسحاق . بويع له بالخلافة يوم قبض أبوه. وأمه قراطيس أمة . وتوفّى الواثق سنة ٢٣٢ هجرية وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وأياما .

(٣) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

والدتى ، فكتبتْ إلى الواثق رُقْعَةً . فقال لمحمد بنِ عبدِ الملك : أَطْلِقْ لجعفرٍ طَمَّ[١] شَعْره ، وتنظيفَ ثوبه وتطييبَه . فانصرف كالمَغِيظ وضَرب الموكَّلَ بى ، وقال : تَرَكْتَ محبِس جعفرٍ شارعا[٢] من الشوارع حتى سَهُل شكوَى أمِّه! ثمّ أمرَ بإخراجى فخرجتُ فوجدتُ أماراتِ الغضب فى وجهه . فوقَفْتُ ساعةً لايرفعَ فيها وجهَه إلىّ . ثم قال : نِطْعٌ[٣] . فأوْهَمنى أنَّ الواثقَ أمرَ بضرب عنقى ، فبُسِط بين يديه : ثم أَوْمَأَ إلى الغلمان بإدخالى فيه[٤] ولم أُشَكَّ فى القتل ، ثم قال : الحجّامَ . فقلتُ أظُنُّه يخلّع أضراسى قبل قتلى ، وأنا فى سائر هذا قائمٌ ؛ فلما وافَى الحجّام . قال آحلِقْ شعرَه . فأجلسنى يحلِقُ شعرى . فآليتُ علَى نفسى إنّى لا اسْتَبْقَيْتُه لحظةً إنْ ظفرتُ بالخلافة ، فمات محمدُ ابنُ عبدِ الملك بالتَنُّور فى اليوم الثالث .

* * *

---

(١) طمّ شعره : جزّ شعره .

(٢) شارعا : مسلوكا يدخله من يشاء ويخرج منه من يشاء .

(٣) نطع : بساط من الأديم كان يفرش لمن يراد قتله ليسقط عليه الدم .

(٤) بإدخالى فيه : يقصد وقوفى عليه أو جلوسى عليه . وهو تعبير غريب .

وحدّثنى نسيمٌ "خادمُ أحمدَ بنِ طُولون". قال :

صار إلىّ ابنُ سليمانَ بنِ ثابت . (وكان سليمانُ[١] هذا يكتُب لخادمٍ يُعْرَفُ بشُقَيْرٍ[٢] يتقلّدُ الطِراز[٣] من خَدِم السلطان، ثم عمِل سليمانُ بعد ذلك لأحمدَ بنِ طُولون على أملاكه) ومعه رُقْعَةٌ. فقال تُوَصِّلُها لى إلى الأمير، فقرأتُها فكان يذكُرُ فيها أنّ شُقَيْراً أودع أباه أربعمائة ألفِ دينارٍ. فلما قرأها الأميرُ قال : انظُرْ ماتقولُ[٤] وآصدُقْنِي عنه . فقال الأمرُ واللهِ على ما وصفتُه للا مير ! فقال : أمْسِكْ عن هذا ، وآطو مجيئَك إلىّ عن أبيك وعن سائر الناس ، وانصرِفْ مكلوءًا .

فقال : فكثُر تعجُّبي من إمساكه عن ذِكْر هذا لأبيه ، فلم يَمْضِ حَوْلٌ حتى مات سليمانُ بنُ ثابتٍ، فأظهر[٥] غَمًّا به وتَفَجُّعًا عليه. ثم دعا

---

(١) وكان سليمان : فى الأصل وكان ابن سليمان وهو تحريف بالزيادة .

(٢) شقير : شقير هذا غير شقير الخادم صاحب البريد أيام ابن طولون الذى تآمر مع ابن مدبر على الوشاية للخليفة بابن طولون فأحضره ابن طولون لجلده فأخذه الزعر فمات فى يومه .

(٣) الطراز : الثياب الجيدة وكانت لها إدارة لضبط مايرد منها للسلطان ومايرسل منها إلى دار الخلافة وغيرها .

(٤) انظر ماتقول : أى تأمل جسامة التهمة التى تلقيها على أبيك .

(٥) فأظهر : أى أحمد بن طولون .

بابنه الرافع للرُّقْعَة ، فردَّ إليه ما كان بيد أبيه من أملاكه ، وضمَّ إليه من الرجال من تقوَى به يده ، وأقام به[١] شهورا ، ثمّ دعاه ، وأنا قائم بين يديه ، فقال له : كيف حالُك مع مخلِّفى أبيك ؟ وهل أنكرتَ شيئا منهم ؟ فقال : قد أعزَّ اللهُ جانبى بالأمير ومنعَ منّى .[٢] فقال له : احمل إلىّ الأربعمائة ألفٍ التى عندكم لشُقَيْر الخادِم ، فلجلجَ[٣] . فردّ أمره إلى أحمدَ بن إسماعيلَ بنِ عمّار[٤] ، وأمره بمطالبته بالسَّوْط ، فضربه خمسين سوْطًا ، واصطفَى[٥] ما كان له ، فلم يجد عنده بعضَ ما تقوَّله على أبيه ، وعاود مُطالبتَه فضربه مرّة أخرَى فمات .

---

(١) وقام به شهورا : فى سيرة ابن طولون للبلوىّ : وتركه شهرا .

(٢) منع منى : قوانى وحصّننى .

(٣) فلجلج : تردّد فى الكلام ، وفى السيرة للبلوىّ : فتلجلج .

(٤) هو المعروف بسبع شعرات : قدم إلى أحمد بن طولون من الشام فقلده الأملاك وماخرج عن الخراج ، وصرف به الحسن بن سليمان بن ثابت . وكان أحمد بن إسماعيل قد أشار على ابن طولون بمشورة فلم يعمل بها فبسط لسانه فيه على جهة الإشفاق عليه ، وقال : ليس هو ممن تمرّن فى الرياسة ، وفيه لجاج لايؤمن عليه منه . فبلغ ذلك ابن طولون فحبسه فى المطبق حتى مات .

(٥) اصطفى : هنا بمعنى أخذ .

فقال لى : فعجبتُ من هَلاكه بهذا المقدار[١] من الضرب . فأُخبِرتُ أنّ هذا المضروب كان يستزيرُ الفواسدَ من النساء فى وفور حاله ، فزارته امرأةٌ كانت ربيطةً[٢] لجلّاد بالسَوْط ، وعلِم الجلّادُ بذلك فبكرَ إليه ووقَف له ، حتى إذا خرَج انكبَّ على فخِذه وقبّله[٣] . ثم قال : ياسيّدى ؟ قد أغناك الله بِمَساءتى[٤] بما بسَطه من الرزق عليك ، وظَاهَرَه[٥] من الإحسان لديك ، وكانتْ مهجتى عندكَ البارحةَ ، فانْ رأيتَ أنْ تهبَها لى فلك مِنها عِوَضٌ وليس لى عنها مَعْدلٌ ! فصاح فى وجهه وأمر بإبعاده . فلما شُدّ بالعُقابيْن[٦] تقدَّمَ الجلّادُ فضربه ضَرْبَ القتل فأتَى على نفسه .

* * *

(١) بهذا المقدار : أى اليسير .

(٢) ربيطة : الربيط الملازم ، والمراد كانت صاحبة للجلاد ملازمة .

(٣) فخذه : المعروف أن الفخذ مؤنثة .

(٤) بمساءتى : الباء بمعنى عن .

(٥) وظاهره : قواه وكثّره .

(٦) العقابان : خشبتان يشدّ بينهما الرجل و يضرب و يعذب .

وحدّثنى نسيمٌ الخادمُ أيضًا :

أنّ أحمدَ بنَ طُولون كان مذعورًا من خُروج أبى عبد الرحمن العمَرىّ، فوافاه الخبرُ بقتل غِلمانِ أبى عبدِ الرحمنِ إيّاه ، وانتشار أمْرِه[1] .

ثم صار إليه جماعةٌ تُقارِبُ العَشَرَةَ ومعهم رأسٌ . فقالُوا : نحن غلمانُ العُمَرِىّ ، وهـذا رأسُه . فجمَع الخاصَّ والعـامَّ وأدخلهم إليه ، واستحضر قومًا استأمنوا إليـه [2] ، فسألهم عن الرأس. فأجمعوا على أنّه رأس أبى عبدِ الرحمن ، وأنّ الغِلمان من خاصّته .

فقال أحمدُ بن طُولون لهم : هل كان مُسيئًا إليكم ؟ قالوا : لا واللهِ ولقد كان محسِنا إلينا ، ومُفضِلا علينا ! قال : فما حَمَلَكم على قتله ؟ قالوا : طلبْنا الحُظْوَةَ عندك ، والمكانةَ منك . فقال : قتلتم مولاكم المحسنَ إليكم بالتَطَرُّف [3] إلى المَزيد !

---

(١) انتشار أمره : تفرّق قوته .

(٢) استحضر قوما الخ : فى السيرة للبلوىّ : فدعا بجماعة من أهل الصعيد ممن يعرف العمرىّ .

(٣) التطرّف : فى الأصل أن ترعى الماشية أطراف النبت ، وأطلق على تجاوز الحد فى الرأى أو العمل ، أى قتلتم سيّدكم بسبب مجاوزة الحد فى طلب المزيد ، وفى الأصل التطرّب .

ثمَّ أمَرَبهم فَشُقَّ عن جماعتهم [١] ، وأخذتهم السِّياطُ حتّى سَقَطوا ، وضُرِبوا على رُءوسهم بالشادوخ [٢] حتى ماتوا جميعا، وأمَرَ بدفن رأس أبى عبدِ الرحمن .

* * *

وسمِعتُ أبا عُبَيْدٍ علىَّ بنَ الحُسَيْنِ بن القاضى يحدِّث . قال :

كانتْ لى بواسِطَ حِصّةٌ أُؤَدِّى عنها إلى السلطان خَرْجاً . فقدِم علينا عامل قد جُمِعَ [٣] من الظلم ، وسوءِ التسلُّط ، وفظاظة الطبع . فجمَع المُعاملين بأَسْرِهم على التحيُّلِ له بما لا يُوصَلُ إليه [٤] من أملاكهم ، ولا يستحِقُّه عليهم . فضرَب قوماً ، وآستخفَّ

---

(١) فشق عن جماعتهم ، أى فشقت الثياب عنهم ، وهو تعبير مألوف فى هذا العهد .

(٢) الشادوخ : يظهر أنه اسم آلة للضرب والتعذيب ، والشدخ : الكسر .

(٣) جمع : كُوّن وخلِق .

(٤) على التحيل له الخ : أى على الاحتيال على مرضاته بإعطائه الأشياء والأموال التى كانت لا يستطاع الوصول إليها .

بآخرين . فقال له رجل ممّن حضر : إنْ رأيتَ أنْ تؤخّرنى إلى نصف النهار ! فقال له : لعلّك ممّن يقُول إنّ من عمود إلى عمود فَرَجًا ! فقال له الرجل : أنا والله أعتقد أنّ من لحظة إلى لحظة فَرَجًا يُرْجَى من الله . فتضاحك من كلامه .

فوالله ما مضت ساعةٌ حتى دخلت إلينا فى الموضع الذى كان فيه رَعْلة [١] من الخوارج [٢] وهى تقول : السُّلَيْطِينَ السُّلَيْطِينَ [٣] ! فقطّعتْه بأسيافها وخرَجَتْ ، ولم تقتُلْ غيرَه ، ولا طلَبت شيئا لأحدٍ . فعلمتُ أنّهم عقوبةٌ اعتمدتْه [٤] .

* * *

---

(١) رعلة : قطعة من الخيل .

(٢) الخوارج ؛ جمع خارج أو خارجىّ ، وهم جماعة خرجوا على نظم الحكومة فى الإسلام فلا يوافقون على حكومة حاكم أو خلافة إمام . وقد كانوا يطلقون فى هذا العهد اسم الخوارج أيضا على القرامطة ، الذين ظهروا بسواد الكوفة سنة ٢٧٨ ، واشتد أمرهم سنة ٢٩٠ ، واستمرت شرورهم إلى نحو سنة ٣٦٠

(٣) السليطين : التصغير للتحقير .

(٤) اعتمدته : قصدته .

وحدّثنى عُمَرُ بنُ يزيدَ البَرْقىّ (وكان جميلَ المَذْهب[١]) . قال :

حضرتُ مُصَدِّقا[٢] شديدَ الاستحلالِ ، بعيداً من الرأفة ، وهو جالس على رابية وبين يديه حِواءٌ[٣] يحتازُ به ما يحصُل له من الإبل .

قال : فعُرِضت نَعَمُ رجلٍ حَسَنِ الطريقة ، متعالَمٍ[٤] بعفاف الطُعْمَةِ . فتخيَّر[٥] عليه المُصَدِّقُ ما احتازه من إبله ، واستعمل من سوء التحكُّم عليه مالا يصبِر عليه غيرهُ ، فأمسك[٦] . ثم نظر بعد

---

(١) وكان جميل المذهب : متديّنا حسن العقيدة .

(٢) مصدقا : المصدق جامع الصدقات (الزكاة) .

(٣) حواء : الحواء : المكان الذى يحوى الأشياء .

(٤) متعالم : تعالم الناس الخبر : علموه .

(٥) فتخيّر عليه : تخير : انتقى واختار ، و "عليه" هنا تفيد التسلّط والغلبة ، أى اختار على الرغم منه .

(٦) فأمسك : أى لم يتكلم ولم يبد اعتراضا .

آنفصال ما بينهما إلى فَصِيلٍ سَمينٍ كان فى إبله . فقال لغلمانه : خذوا هذا الفصيلَ حتى يُصلَح لنا غَداءً . فقال صاحب الإبل له : قد أخذتَ زيادةً على حقّك ، فما هذا ؟

قال : لا بدّ لى من أخذِه . قال : فانّى لا أُسلِمُه . فأمر[1] بِوَجْءِ عنقه ، وأُخِذَتْ مقادتُه من يده[2] ، فصاح بأعلَى صوتِه : " كلُّ هذا بِعَيْنِك يا جبّارُ [3] " ! فخلف لى عُمَرُ إنه جاء من الحوَاء فخل وخرج منه وهو يرغو ؛ فأخذ بعَضُده ولم يزل يضرب به الأرضَ حتّى قتله ، وآنصرف الرجل بفصيله .

* * *

---

(١) وجأ عنقه : ضربه بالسكين .

(٢) أخذت مقادته : أى أخذ زمام الفصيل من يد صاحبه .

(٣) كل هذا الخ : الخطاب لله عز وجل والمعنى أيصنع كل هذا جهارا يارب وأنت الجبار المنتقم فلا تعاقب عليه ؟

وفيما أخبر به الهَيْثَمُ بنُ عَدِيٍّ [١] قال :

كان عَدِيُّ بنُ زَيْدٍ [٢] قد تقدَّم عند كِسْرَى أَبْرَوِيزَ [٣] فى ترجمة العربيِّ إلى الفارسيِّ . وكان رجلاً جاراً [٤] للنعمان بنِ المُنْذِرِ [٥] ، فرام منه النعمانُ أنْ يكونَ عَيْناً له على كِسْرَى ، فامتنع من ذلك ولم يَرْضَ بهذه السَّجِيَّةِ ، فتركه النُعمان حتى اطمأنّ إليه ثم سأله أنْ يزوره .

---

(١) هو الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الطائىّ الكوفىّ ، كان مؤرخا عالما بالأدب والأنساب ، ومن كتبه " خطط الكوفة " و"ولاة الكوفة" و"طبقات الفقهاء والمحدثين " توفى بفم الصلح سنة ٢٠٧ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٢) هو عدىّ بن زيد بن حماد التميمى : نشأ بالحيرة ، وكان يحسن العربية والفارسية ، وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى وقد اتصل بالنعمان ابن المنذر وصاهره ، ثم وشى به إلى النعمان فسجنه وقتله فى سجنه (الأعلام جزء ٢)

(٣) هو ابن هرمز بن أنو شروان ملك الفرس حكم نحو ثمان وثلاثين سنة ومات فى نحو السادسة من الهجرة .

(٤) وكان رجلا جارا : أى وكان عدى ، قبل اتصاله بكسرى ، جارا للنعمان أى فى كنفه وتحت رعايته .

(٥) هو النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمى من أشهر ملوك الحيرة فى الجاهلية ، وهو ممدوح النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت وحاتم الطائى ، ملك الحيرة إرثا عن أبيه سنة ٥٨٥ م تقريبا وأقره كسرى فاستمر نيفا وعشرين عاما ونقم عليه كسرى أبرويز أمرا فعزله وسجنه إلى أن مات سنة ٨ قبل الهجرة تقريبا (الأعلام جزء ٣)

فكلّم كِسْرَى وسأله أن يأذَنَ له فى زيارته شهراً واحداً، ونَصَبَ عدىٌّ ٱبنَه مكانَه. (وكان حُلْوَ الشاهدِ، مُضْطَلِعًا بما يُسْنَد إليه) فأذن له، فلمّا حصَل فى يدِ النُعمان قتَله، وكتب إلى ٱبنه يخبِرهُ بأنّه مات حَتْفَ أنفِه، وأنّه على غايةٍ من الأسَى عليه. وتأدّى خَبَرُ عَدِيٍّ إلى ٱبنِه على الصحةِ، فلم يَخْرَق [١] فيه. وأقام يتتبّع غوائلَه [٢] ويُعْمِلُ الحيلةَ فى ٱفتراص وِترِه [٣].

فجرَى فى يومٍ من الأيام ذِكْرُ الجوارِى بينَ كِسْرَى وبين ٱبن عَدِيّ، وكان أبْرَوِيزُ مُسْتَهْتَرًا بهنّ [٤]. فقال ٱبنُ عَدىّ: أحْسَنُ النِّساءِ حُرْقَةُ بنتُ النُعمان. فكتب أبرويز إلى النُعمان كتاباً يأمُرهُ فيه بحَمْلِ حُرْقَةَ ابنتِه إليه. فعظُم هذا علَى النُعمان، وكتب إليه كتابا يذكُر فيه قَشَفَ تربيةِ العربِ لأولادِها [٥]، وتقصيرَهم بِبَذاذة الهيئة [٦]، ووَسَخ

---

(١) فلم يخرق فيه: خرق من بابى فرح وكرم: حمق وطاش، والاسم الخرق (بالضم) أو الخرق (بالتحريك).

(٢) يتتبع غوائله: يترقب ما يمكن أن ينزل به من الدواهى.

(٣) افتراص وتره: الوتر: الثأر، والافتراص: انتهاز الفرصة.

(٤) مستهترا بهن: المستهتر بالشىء المولع به لايبالى مايفعل ولايأبه لما يقال.

(٥) قشف: القشف سوء الحال.

(٦) بذاذة الهيئة: رثاثتها.

المِهنَة، وأنّ فى عِينِ[١] العراقِ عِوَضًا منهن. وأنفَذَ الكتابَ إلى كِسْرَى. فأمَرَ كِسْرَى ابنَ عَدِيٍّ أنْ يقرأه عليه ؛ فأمَرَّه على طَرْفِهِ ثمّ ألقاه وضرب بيده على جبينه . وقال : " ابنتى لا تَصْلُح لك . . . . . " فغضِب كِسْرَى وأنفذ رُسُلًا إليه فأُشخِص فلمّا قَرُب من مَقَرِّ كِسْرَى أخرج أربعة آلافِ جاريةٍ بالحُلِيِّ وفاخِرِ الكُسْوةِ وأذِن له . ثم قال له بالفارسية : "يا كلبُ ! . . . . . " وأمر بشَدِّ يديه ورجليه ؛ وألقاه فى الأرض ؛ وأطلق الفِيَلَةَ عليه فوطِئته حتى مات تحت قوائمها .

* * *

وفيما جاء به الزُّبَيْرُ بنُ بكّارٍ[٢] . قال : اجتاز رجلٌ من أشراف المدينة بمريضٍ مُلْقًى على كُناسةٍ قريبة من منزل رجلٍ من الأولياء[٣]

---

(١) عين : جمع عيناء، والفعل عين كفرح عينا (بالتحريك) وهو اتساع العين مع اشتداد سوادها . ويريد بعين العراق نساءه الجميلات الواسعات العيون .

(٢) هو أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشىّ الأسدىّ المكىّ من أحفاد الزبير ابن العوام . كان عالما بالأنساب وأخبار العرب وقد ولد بالمدينة وتولى قضاء مكة ، وبها توفى سنة ٢٥٦ هجرية (الأعلام جزء ١)

(٣) الأولياء : يريد أولياء الأمور أى عمّال الوالى . وهذا التعبير مألوف فى هذا العهد .

اختلّت حالُه[١] ومرِض ولا قيِّمَ عليه[٢] وتبرّم به رفقاؤه فأخرجوه من منزلهم ، وهو مُلْقًى فى الطريق . فأمر الشريف بحَمْلِه إلى منزله وتقدّم إلى آبنة عمّه فى حسن القيام عليه بحَشَمِها ، وأنْ تُرَفِّه عَيْشَه إلى أنْ تَنقضِيَ عِلّتُه ، فابتدره كلُّ مَن فى منزل الشريف بالخدمة حتّى تكاملت صحتُه ، وصار فى منزلهم كأحدهم ، وقفَل إلى دِمَشْقَ.

فلمّا كان فى الوقت الذى توجّه جيشُ يَزِيد[٣] للحَرّة[٤] وافَى فوقف على باب دارهم ، فظنّوا به أنّه وافَى لحمايتهم ، وحُسْنِ المدافعة عنهم ليقضيَهم سوالِفَهم لديه ، فدخل الدارَ ومعه ثلاثةُ غِلمان . فلمّا تمكّن منها أخذوا فى جمع الأثاث ، فقال لهم الشريفُ: ما هذا؟ فقال : إنّى استوهبتُ دارَك بما فيها من الأمير ووهبها لى ، وكنتُ

---

(١) اختلّت حاله : الجملة نعت لكلمة رجل السابقة .

(٢) ولا قيّم عليه : ليس له من يدبر شئونه أو يشرف عليه .

(٣) يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموىّ ، ثانى خلفاء الدولة الأموية ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠هـ وفى زمنه قتل الحسين وفتح المغرب الأقصى ، توفى بحوارين (من أرض حمص) سنة ٦٤ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٤) الحرّة : أرض بظاهر المدينة وبها كانت وقعة الحرة فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين حين أمر يزيد عسكره من أهل الشام ، بعد التغلب على أهل المدينة ، بنهبها والتنكيل بأهلها .

أحقَّ الناسِ بها ، إذ كانت الأحوالُ بيني وبينكم وكيدةً ، فقال له الشريف : رجَعت يا ابنَ اللخناء[١] إلى لُؤْم أصلك ، وفسادِ مَرْكَبِك ![٢] ثم علاه بسيفه ، وفرّ الغِلمانُ ، وهدأَتْ وَقْدَةُ الفِتنة ، وطُلّ[٣] دمه .

* * *

وحدّثني نافعُ بنُ مَصْقَلَةَ الحِمْصِيُّ قال : سمِعتُ أبي يقول : رأيت مشايخنا مجتمعين على أمر لحِقه أسلافُهم :

أنّه كان يسكُن بِحِمْصَ شابٌّ من أهل العِراق حَسَنُ الصورة ، ليِّن العَريكة ، فأقام معهم مدّةً ، ثم صار الأمر بعد ذلك إلى بني العبّاس ، فتقلّد ذلك الفتى حِمصَ ، وكان مَوْلًى من مَوالي أبي العبّاس . فلمّا دخلَها قصَد إلى دار رئيسٍ كان بها من أصحاب بني أمية فذَبَحَه فيها وجماعةً من غلمانه . ثم خَرج فأحسن السيرةَ ، وألان الجانبَ . فقيل له : ليس يُشْبِهُ ما أنت عليه ما فرَط منك إلى الرجل الذي ذبحتَه وشَمْلَه ! فقال : اسمعوا مني ما جرَى على عِلّتِه[٤] : اجتزتُ به ، وقد نَظَّفتُ أثواباً

---

(١) ابن اللخناء : لئيم الأم .

(٢) فساد مركبك : كناية عن فساد الطرق وسوء الوسائل .

(٣) طلّ دمه : ذهب هدرا بلا مطالب .

(٤) على علّته : كما هو بماله وما عليه . وفي الأصل علنة .

لا أملكُ غيرها ، وقد دُعيتُ إلى أمرٍ لا يَسعُنى التأخُّر عنه ، أحتاجُ فيه إلى حُسنِ الهَيْئَةِ وإظهارِ التَجَمُّل ، ومعى رسولُ مَنِ آستحضرنى ، وهو قاعدٌ على الباب ، فراثت دابّتى بحيثُ تقعُ عَيْنُه[1] من رَحَبَةٍ مُبَلَّطَةٍ لداره ، فأمَصَّنِي[2] وأمَرَ الغِلمان بِتَرْجيلى وضَرْبى ، فركِبَتْنى أيديهم ، ثم حلَف ألّا أبْرَحَ حتّى أكنُسَ رَوْثَ دابّتى بيدَىّ فى كُمّى[3] وأحمِلَه فى ثوبى وحِجرى ، وأُخِذْتُ بفُرِرْتُ إلى ذلك . ولم تزَلْ حاشيتُه تضحَكُ ممّا نزل بى .

فحدّثتُ مولاى فاستحلفنى بحقّه على غليظِ ما أتَيْتُه إليه[4] .

* * *

---

(١) بحيث تقع عينه الخ : أى إن الدابّة راثت فى مكان تقع عليه عينه حين يكون أمام الباب جالسا فى رحبة مبلطة . وفى الأصل : تقع عليه ، وهو تحريف .

(٢) أمصه : قال له يامصّان وهو شتم قبيح ، ومن معانى المصّان : اللئيم الذى يمصّ ضرع الناقة أو نحوها حتى لايقع شىء من اللبن عند الحلب .

(٣) فى كمّى : أى دون أن أرفع كمّى لتجنب القذر .

(٤) فاستحلفنى الخ : أى جعلنى أحلف على أن أنتقم منه الانتقام الشديد الذى أوقعته به .

ومما قرأته من سِيَر العَجَم :

أنّ جماعةَ المُنَجِّمين حكموا لبعض الأكاسرة أنّ ابنَه يقتُلُه ويتولّى ملكَه . فعمَد كِسْرَى إلى سُمومٍ وحيَّةٍ[1] فجعلها فى قوارير وختَمها وكتَب عليها : دَواء .... الشَّرْبَةُ مثقالٌ . وكانت وَزْنَةُ قِيراطٍ تقتُلُ من تلك السُموم . وقال : إنْ كان الأمرُ كما حكاه المُنَجِّمون فسآخُذُ بطائلى[2] منه ، فعدَا عليه ولدُه وقتله .... ورأى تلك القوارِيرَ فشَرِب مثقالاً فمات .

* * *

وحدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوبَ ، قال حدَّثنى أبى عن جدّى واضحٍ قال :

سمعتُ خالدَ بنَ سَهْمٍ يحدِّثُ المنصورَ ، وكان هذا الرجل خاصّاً بمَرْوَانَ بنِ محمدٍ الجَعْدىِّ[3] . فطلَبَ منه مَرْوانُ جاريةً له كان يُحِبُّها .

---

(١) وحيَّة : سريعة التأثير .

(٢) بطائلى : بثأرى .

(٣) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموىّ آخر خلفاء بنى أميّة ، تولى الخلافة سنة ١٢٧ هجرية ، وفى أيامه قويت الدعوة العباسية وزحف جيش قحطبة بن شبيب الطائىّ يريد الإغارة على الشام ، فنازله مروان بعسكره بالقرب من الموصل فهزم مروان وفرّ ، وانتهى إلى بوصير (من أعمال مصر) فقتل فيها سنة ١٣٢ هجرية (الأعلام ج ٣) .

وتجرّمَ[١] عليه فأطال حبْسَه ، وأخذ الجارية منه . وكان ذا رأْيٍ ونجْدةٍ ، فلمّا استفحل أمرُ أبي مُسْلِم وكسرَ عساكرَ مَرْوانَ أخرجه من الحبس ووعده جميلاً .

قال خالد : كان مَرْوانُ يضحَك من ذوِى المُسَوِّدَةِ[٢] ويقول : لو أسرناهم ما بلغنا بهم ما بلغوا بأنفسهم من التشوية والشُهْرة . فلما اضطُرّ إلى مكافحتهم وواقعهم ، رأيتُه قد تهيَّبَ مُعاركتَهم فقال لى : يا أبا يزيد ! (وما كَانى قبل ذلك اليوم) إنّى قد ارتعتُ ، فهل ذلك بَيِّنٌ فِىَّ ؟

قلت : بلَى يا أمير المومنين ! وكنتُ أُداجنه[٣] ويسرُّنى حُؤولُ أمرِه . فقال ، ما أجد قلبي يُطيق مواقعتَهم . فقلتُ : إن كان هـذا فتحصَّنْ منهم بالانهزام ، فانّ خيلَك أنجَى[٤] من خيلهم .

---

(١) تجرّم عليه : ادّعى عليه الجرم ولم يجرم .

(٢) المسوّدة : العباسيون لأن السواد كان لباسهم وشعارهم .

(٣) أداجنه : أداهنه وأظهر له غير ما أبطن .

(٤) أنجى : أسرع .

فانهزم وتوقّف أصحابُ أبي مُسْلِمٍ عن طلبه. فلمّا بلغ إلى سواده [١] قال لى : قد عزمتُ على الدخول إلى بلد الروم (وكان من أصوب تدبير له) فنفسْتُ عليه بالرأى [٢]، واستعملتُ مغالطتَه فقلت : تدخلُ بأحداثٍ من وَلَدِك وشَمْلك مستجيرين بكافرٍ قد أمِن سِرْبُه [٣] ، واستقام أمرُه ! ولعلّ ولدَك يروقُهم مايَرَوْنه فى مملكته فيحملَهم ذلك على التنصُّر، ولَأَنْ تَمادَى [٤] فى مَسيرك حتّى تدخُلَ مِصْر فتجدَ فيها الرجالَ والكُراعَ والمالَ ، وتملكَ بها اختيارَك [خيرٌ لك [٥]] . فركَن إلى قولى فسِرْنا ، فلمّا دخلنا مِصْر خرَج إلى صَعيدها واستأمنتُ إلى عامرٍ ، لحالٍ كانت بينى وبينه ، وقتل ببوصير الأشمونين .

*
* *

---

(١) السواد : مجتمع العسكر .

(٢) نفست عليه بالرأى : المعروف نفست عليه الشيء : لم أره أهلاً له .

(٣) سربه : نفسه .

(٤) تمادى : تتمادى .

(٥) خيرلك : زيدت ليستقيم الكلام .

ولمّا قدم أحمدُ بنُ طُولون إلى مصر متقلّداً بها عَمَلَ المَعونة[١] أهدَى إليه أحمدُ بنُ محمدِ بنِ مُدَبَّرٍ من دقّ[٢] مصرَ ودوابّها والرقيقِ المجلوبِ إليها ما مقدارُه عشرةُ آلافِ دينار . فردّ ذلك عليه ، وذكر أنّه لا حاجة له بشيء منه . فثقُل ذلك على آبنِ مُدَبَّر . وقال : ماينبغى أنْ يثقَ السلطانُ[٣] بمَن لم يكن لعشرة آلافِ دينارٍ فى عينه قَدْرٌ على طَرَفٍ من أطراف مملكتِه .

ولمّا مضتْ أيامٌ بعثَ[٤] إليه : قد كنتَ أنفذتَ إلىّ طائفةً من بِرّك فرددتُها عند وقوع الاستغناء عنها . وقد

---

(١) عمل المعونة : يراد به معونة الخليفة فى حكم مصر ، وذلك أنه لما تولى المعتزّ بالله وقتل المستعين قلد المعتز بالله باكباك ولاية مصر على أن يلتمس من يخلفه عليها ، فقيل له إن أحمد بن طولون هو الثقة الأمين فقلده خلافته وضمّ إليه الجيش . ورحل ابن طولون إلى مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٤ مقلّدا للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الاسكندرية وغيرها .

(٢) الدق : الدقيق ، ويراد به كل بديع الصنعة محكمها .

(٣) السلطان : الخليفة .

(٤) بعث إليه : أى بعث أحمد بن طولون إلى ابن مدبر .

بلغنى أنّ عندك مائةَ رجلٍ من مُوَلَّدى الغَوْر[١] ويى إليهم أمسُّ حاجةٍ . قال ابن المدبَّر : قد ظهرتْ فى هذا الرجل علامةٌ أخرى ! يَرُدُّ الأَعْراضَ والأموال ويستهدِى الرجَال .

وكان حسينُ بنُ شَعْرَةَ[٢] مضحكُ المتوكّل على الله[٣] قد انضوى[٤] إليه فحَمى به ضِياعَه وأملاكَه . ووقَف على استثقال ابنِ مدبَّر لأحمدَ ابن طُولون، وأخرَج حكايَته فى تَزُمُّته وكلامه[٥] فيضحَكُ ابنُ مُدَبَّر ومَنْ حَضَره . فاتّصل ذلك بابن طولون فأحضره ثم قال له : بلغنى أنّك تَتَنادَرُ[٦]

---

(١) الغور : جبال وولاية بين هرات وغزنة ، وهى بلاد واسعة موحشة . وفى سيرة أحمد بن طولون للبلوىّ فى وصف مجيئه إلى مصر : ونظر ابن طولون بين يدى أحمد بن مدبر مائة غلام من مولدى الغور قد انتخبهم وجعلهم عدة وجمالا وكان لهم خلق حسن وطول أجسام و بأس يعرفون به شديد .

(٢) سمّاه البلوىّ الحسنَ بن شعرة .

(٣) فى البلوىّ . وكان يغنّى أيضا .

(٤) انضوى . انضم .

(٥) وأخرج حكايته الخ، التزمّت : الوقار ، أى وأخرج التشبّه به ومحاكاته فى مبالغته فى وقاره وتصنعه فى كلامه مخرج الهزء والسخرية .

(٦) تتنادر بى : تسوق النوادر للسخرية منى ، وتعمل على أن يتفكّه الناس بالضحك علىّ . وكثيرا ما يستعمل الأدباء هذا الفعل وهو ليس فى المعجمات بهذا المعنى ، والذى فى التاج : فلان يتنادر علينا أى يأتينا أحيانا .

بى، ولك فى الناس مندوحةٌ فاحذَرْنى، فانّك إنْ وقَعْتَ لم ينفعْك ابنُ المدبَّر ولا غيرُه . فحَمد هـذا واعتذَر إليه منه . ثم انصرَف إلى ابن المدبَّر وقال : ياسيِّدى ! لو شاهدتَ أحمدَ بنَ طُولون يُؤنِّبنى ! فقال : ما قال لك ؟ قال : اصبِرْ حتّى أُريَك حكاية صورته ومعاتبتِـه . ثم تلبّس [١] وجلَس يَحكيه ويقتصُّ [٢] ما لَقِيَه به . ثمّ اتّصل ذلك بأحمـدَ بنِ طولون فأمسك عنه وتتبّع غوائلَه [٣] .

واضطربت الرعيّةُ لِنزاع السِعْر [٤]، وقد بلغ ثلاثةُ أرادبَ حِنطةٍ بدينار. فركب [٥] وتقـدّم بعقوبةِ القمّاحين ، وازدحمتِ النظّارةُ من السُطوح عليـه . فوقع مِرْكَنٌ [٦] فيه رَيْحانٌ إلى الأرض بمزاحمـةِ مَن

---

(١) تلبّس : تلبّس بالثوب اختلط به ، والمراد التفّ بثيابه على هيئة تشبه هيئة ابن طولون. وفى السيرة للبلوىّ : فلما عاد إلى ابن مدبر دخل خزانة الكسوة ولبس منها مثل ما كان على أحمد بن طولون .

(٢) يقتصّ : يقصّ ، ففى التاج : اقتصّ الحديث : رواه على وجهه .

(٣) تتبّع غوائله . ترقّب ما ينزله به من الدواهى .

(٤) نزاع السعر : ارتفاعه .

(٥) فركب : أى ابن طولون .

(٦) مركن : آنية كبيرة كالإجّانة تغسل فيها الثياب وتزرع بها الرياحين .

تشوَّف إليه من النساء . فمسحَ كَفَلَ دابّةٍ [١] أحمدَ بنِ طُولون . فسأل عن الدار : لمَن هى ؟ فقالوا لحسينِ بن شَعْرَة ! فأَحْضَرَه وضَرَبه ثلثمائةِ سَوْطٍ [٢] ، وطاف به [٣] . وكان ما أوقعه به من أجْلِ متقدِّم سوالِفه إليه ، ولم يُفْلِح الحسينُ بنُ شَعْرَةَ بعدَها .

وزاد أمرُ أحمدَ بنِ طُولون فى القوَّة وزيادة المال ووفور الكفاية حتّى تهيّبه ابنُ مدبَّر ، فحدّثنى أبو العبّاس الطَرَسُوسىّ أنّه سمع أحمدَ بنَ طُولون يقول له [٤] : يا أبا الحسن ! أَنْشُدُكَ اللهَ إنْ تعرّضْتَ [٥] لى ، ولا تَرَسَّمْتَ عداوتى [٦] ، فقد اجتهدتُ فى استصلاحِك فلم أصِلْ إلى ذلك .

---

(١) فمسح الخ : فى السيرة للبلوىّ : فوثب الفرس ونتره من سرجه ولولا ثبوته فى ظهره لرماه على الأرض .

(٢) ثلثمائة : فى السيرة للبلوىّ : خمسمائة .

(٣) وطاف به : أى أمر بأن يطاف به فى الأسواق تشهيراً له .

(٤) له : لابن مدبَّر .

(٥) إن : ما .

(٦) ترسمت عداوتى : ترسم الأثر اقتفاه وتتبعه ، وفى الأصل : بعداوتى .

فقال له ابن مدبّر : واللهِ ما أردُّ أمرَك فيما أتقلّدُه ، وإنّى فيه كالمقيم من قبلك ، فأىّ شىء أنكرتَ علىّ حتى أتجنّبَه ؟ فقال : أُنكِر عليك المكاتبةَ إلى الحَضْرَة [١] وقد قُلِّدَ [٢] بك البَغْىُ . فحلفَ له ابنُ المدبّر أنّه لا يكتُبُ إلّا بشكره . وصُرِف ابنُ المدبّر عن مصر بأبى أيوبَ ابن أختِ أبى الوزير ، فلما أجمعَ [٣] الشُخُوصَ عنها ، قال له أحمدُ ابنُ طُولون : يا أبا الحسن ! لو أردْتُ بك سوءًا لقدَرْتُ عليه ، وأحتاجُ إلى أنْ تجدِّدَ تلكَ اليمينَ ، فحلَف له بالمُخرِجات إنّه لا يألو حِرْصًا فى تزيين آثارِه ، وتطييبِ أخباره ، وأشْهَد عليه اللهَ بذلك ، وخرَج عن مِصر متقلّدًا للشام ، فأقام مع ماجورَ [٤] .

فحدّثنى نَعْتُ مَوْلاةُ أحمَد بنِ طُولون وأمُّ ثلاثِ بناتٍ كنّ له ، فقالت : كنتُ عند مولاى بائتةً فسمِعْتُه يحلُمُ فى نومه ، فخِفتُ أنْ

---

(١) الحضرة : دار الخلافة .

(٢) قلد بك : جمع بك .

(٣) أجمع : عزم على .

(٤) ماجور : المشهور أما جور التركى وكان متقلدا أعمال الشام .

أُنبِّهه فينكرَ علىّ هـذا ، فانتبـه وجلس ومسح عينيه وقال : " خيرٌ إن شاء اللهُ " ، فسألتُـه عمّا رأى ، فقال : رأيتُ ابن مدبَّر قائمـا فى وَسَط بَرِّيّةٍ ، ومعـه قوسٌ موتَّرةٌ وسِهام ، وأنا تِجاهَه قائمٌ ، ومعى جميعُ السِلاح إلّا القوسَ ، وبيننا نهرٌ ، فكأنّه يُسَدِّدُ السهم نحوى ويرمِى فأَخطَأَنى ، وكأنّ قائلاً يقول : لو رماك يومَه كلَّه لما أصابك به لأنّه عاهدك ، وما يضُرُّ هـذا الفعلُ غيرَ نفسِه ؛ فكأنّه آشتدّ علىّ آنهماكُه فى الرمى لى ، وليس فى يدى غيرُ سيف وَشَرخ[1] وما أشْبَهُهما ، لا تعمَلُ فى البُعْد . وقد حال النهرُ بينى وبين العُبور إليه . فأنا على هذا ، حتّى نَضَب النهرُ فلم يبق فيه قَطْرَةٌ ، فعبرتُ إليه ، فكأنّى كلّما كنتُ قربْتُ منه يصغُر حتى صار بمنزلةِ مَن تُواريه الكفُّ ، فأخذتُه بيدى أستطرِفُه[2] ثم ألقيتُه من قامتى على رأسه فمات . فتأوّلتُ سِهامَه المكاتبةَ فىّ والتحريضَ علىّ ، والنهرَ الذى منعنى منه مَقامَ ما جورَ بدِمَشْقَ ، ونضوبَه موتَ ماجورَ ، وصغرَه قدرتى عليه ، وآحتيازَه

---

(١) شرخ : الشرخ النصل لم يركب عليه قائمه .

(٢) استطرفه : أجده غريبا طريفا .

فى كفّى قَبْضِى عليه ، وقولَ القائل فى السِهام إنها تُخْطِئُك أنّ اللهَ لا يُعينه علىّ [١] .

فحدّثتُ هذا الحديثَ سعدًا الفَرْغانىَّ غلامَ أحمدَ بنِ طولون فقال لى : ما سمِعتُ بهذا إلّا منك . والذى عندى من خَبَرِه مطابقٌ لهذه الرُؤْيا . وذلك أنّ الحسنَ بنَ مَخْلَدٍ [٢] برم [٣] بكيدِ الكتّاب وانتقاضِ الأولياء [٤] ،

---

(١) كان ابن طولون يؤمن بصدق رؤياه . حكى القاضى التنوخىّ أن محمد بن سليمان قال : نزعت إلى مصر وأنا فى زىّ صغار الأتباع ، فاتصلت بلؤلؤ الطولونىّ فأجرى علىّ دينارين فى كل شهر وصيّرنى مشرفا فى إصطبله ، فلما كان فى بعض الأيام أحضرنى وقال : ويحك من أين يعرفك الأمير ؟ يعنى أحمد بن طولون . فقلت : والله مارآنى قط . فقال دعانى الساعة فقال : معك رجل أشقر أشهل يقال له محمد بن سليمان فأبعده عنك ، فانى رأيته البارحة وفى يده مكنسة يكنس دارى بها . فتوق ويحك ولا تتعرف إلى أحد من حاشيته . ومضت بعد ذلك شهور ثم دعانى ثانية فقال : ويحك ماذا بليت به منك ؟ دعانى الأمير فقال : أليس أمرتك بصرف محمد بن سليمان فأخرجه من البلد الساعة فانى رأيته فى النوم أيضا وفى يده مكنسة وهو يكنس بها دورى وحجرى .

ومحمد بن سليمان هذا هو الذى أزال ملك الدولة الطولونية .

(٢) كان من وزراء الدولة العبّاسية ، وكانت صلته وثيقة بابن طولون ، ثم نفاه الخليفة إلى الرقة متهما إياه بالإساءة إلى الأولياء والكتّاب ، فكتب إلى ابن طولون كتابا يرغب فيه فى المقام عنده .

(٣) برم : سئم وملّ .

(٤) الأولياء : أولياء الأمور ، العمال .

فكتب إلى أحمد بنِ طُولون يذكُرُ له رغبتَه فى المُقام بمصر. فكتب إليه أحمدبنُ طولون: إنما أنا وليُّك[١]، ومَقامُ صَنيعةٍ من صنائعك. وصوّب رأيَه فيما آثَرَه. فحجّ من بغـدادَ وثنَى عِنانَه إلى مِصر فمنعه صاحبُ البَذْرَقة[٢] فأنفذ كُتبًا إلى أحمدَ بنِ طولون فكان أوّلُ ما صدَر منها إلينا أربعين كتابا جميعًا بخطّ ابنِ المدبّر، يُعْظِمُ فيها أمْرَ أحمـدَ بنِ طولون. ويقولُ: إنّه قد عزَم علَى أنْ يجلِسَ خليفةً، ويصفُه بكلِّ غَدْر. فعجِب منها ابنُ طولون. ثم مات ماجورُ، واحتاز دِمَشْقَ والشامَ، وأنفذنى إلى الرَمْلَة فقبضت عليه وأشخصته إليه، فأقام مدّة فى حبسٍ ضـيّق وجَفـوٍ ممّـا جرت به عادتُه حتى ذهَب بصرُه ومات[٣].

* * *

---

(١) الولىّ: المحبّ والنصير.

(٢) البذرقة: الخفارة، والمراد هنا خفارة حدود المملكة.

(٣) فى السيرة للبلوىّ: فحبسه فى حجرة من داره مكرّما، ولم يدر ابن مدبر ماعرّفه به الحسن بن مخلد، وقرّره له عنده.

وحدثنى سهل بن شُنَيف ، قال :

رَجَعتُ [مَرَّةً] مع أحمدَ بنِ محمدِ بنِ مُدَبِّر إلى داره فاستقبلته امرأة ، فقالت أيّها السيِّد ! نحن مائة عَيِّلٍ على فلانٍ المُتَقَبِّل[1] ، وقد ضاع شَمْلُه لحبسه ، فاتّقِ دعوةً تعرُج إلى الله منّا فيك ! فقال وهو متهزِّئٌ : إذا عزمتم على هذا فليكن الدعاء فى السَحَر فإنه أنجعُ له . قال لى سهل : فارتَعْتُ من الكلمة ؛ فما مضَى له شهر حتى تقلّد محمدُ بنُ هِلالٍ[2] الخراجَ وصرَفه عنه .

واجتمعا عند أحمدَ بنِ طولون فاهتدَى محمدُ بنُ هلال إلى ما لم يُظَنّ أنه يقِفُ عليه ، لأنه أوّلَ ما ناظره قال : رزْقُ الخراج كذا وكذا ، وأرزاقُ الدواوين[3] المُضافةِ إليه كذا وكذا ، فهل قبضَت جملةَ هذه

---

(١) المتقبل : هو الذى يتقبل عملا أو تأدية مال للسلطان فى مقابل أجر معيّن.

(٢) قال البلوىّ : وكان ابن هلال قد تقرّب من قلب أحمد بن طولون وتعبد له ، وكان له بمصر محل ونبل ، فسأله أن يكتب إلى الحضرة يطلب له الخراج ، فلموضعه منه ولما فى نفسه من ابن مدبر سارع إلى ذلك فوردت عليه الكتب بتقليد ابن هلال .

(٣) وأرزاق الدواوين : يراد بالدواوين أنواع الضرائب الأخرى غير خراج الأرض .

الأرزاق ؟ قال ابنُ المدبَّر : نعم ! ما حضرنى كتابُ أمير المؤمنين باطلاق جميع الرزق لك ، لأنه يجوزُ أنْ يكونَ استعملك على جميع الأعمال برزق الخراج وحدَه . فانقطع[1] [إلى] ابن المدبَّر وطالَبه بالمـال . فقال : ما يلزمُنى . ورُدّ[2] إلى يَد محمد بن هلال ، فأُلبِس جُبّـةً كانت على بعض الساسة[3] وأُقيم فى الطريق على كُناسـة ، وخُتمت[4] الجُبّة فى عنقه .

فكان أوّلَ من وافاه الإمْرأةُ التى قال لها يكون دعاؤك فى السَّحَر هو أنجعَ له . فقالت : جزاك الله يا أبا الحسن خَيْراً ! فقد نفعتَنا بأكثَر ممّـا ضررتنا ! لأننّا جرّبْنـا ما أشرتَ به فوجدناه أنجعَ شىء يُلتَمَس ، فبكَى ومَنْ حولَه من المُتوكّلين به ، وانصرفت المرأة داعيةً له .

* * *

---

(١) انقطع : أى محمد بن هلال .

(٢) ورد : أى ابن المدبّر إلى ابن هلال مرّة أخرى .

(٣) الساسة : خدّام الخيل ونحوها .

(٤) ختمت : لعلهم فى هذا الزمن كانوا يختمون المجرمين بخاتم خاصّ .

وكان محمدُ [١] بنُ أبى الساج ، قد هادَن خُمَارَوَيْهِ بنَ أحمدَ ابنِ طُولون ، وحلَف بالمُحرِجات إنّه لا يشاقُّه ولا يُجَهِّزُ إليه جيشا أبدًا ، وخلَّف عنده ابنَـه المعروف بداودَ رهينةً ، فسكن خُمارويه إلى هـذا . ثم تواترت الأخبار بتجييشه عليه ، وما آثره من المَسير إليه ، فدعا بابنه وقال : قد نقَض أبوك ما بينى وبينه . فقال : ياسيِّدى ! ماأعرِف لى أبًا غيرَك ، فرقّ له وأجازه وأقرَّ أَثَرَتَه [٣] ثمّ توجّه إلى ابن أبى الساج فالتقيا بالثَنِيَّة .

---

[١] هو محمد بن أبى الساج ، ولى إمرة الأهواز وحرب صاحب الزنج من قبل الخليفة المعتمد سنة ٢٦١ هـ وقد رغب فى ضمّ الشام إلى ملك بنى العبّاس عقب وفاة أحمد بن طولون سـنة ٢٧٠ هـ ولكنه لم يوفّق فى مسلكه : خالف إسحاق بن كنداج وحاربه وكانا متفقين على فتح الشام معا . ثم خرج على الخليفة العباسىّ ودعا لخمارويه وهادنه ، ثم انتهى أمره بالهرب من خمارويه بعد وقعات جرت بينهما فأكرمه الموفق وخلع عليـه بعد أن قبل توبته وأخرجه معه لحرب الخارجين من أهل الجبل ، وقد توفى باذربيجان سنة ٢٨٨ هـ .

[٢] هو أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، ولى مصر بعد وفاة أبيـه وله من العمر عشرون عاما ، وقد اتسع الملك فى أيامه فكان له من الفرات إلى بلاد النوبة . قتل بدمشق سنة ٢٨٢ هـ (الأعلام جزء ١ —)

[٣] أقر أثرته : وافق على ايثاره إياه على أبيه . وفى الأصل ، (وافرا ثرته) هكذا بدون نقط .

فحدّثنى أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ القاسم بنِ إبراهيم بنِ طَباطَبا [1] [وكان معه] . قال :

لمّا تراءَى الجمعانِ أمر بالقاء حصير الصلاة فأُلقِيَتْ ، ونزلتُ معه فصلّى ركعتين ، فلمّا استتمّهما أدخل يده فى خُفّه فأخرج منه خطَّ ابنِ أبى الساج الذى حلَف فيه بوكيد الأيمان إنّه لا يحاربه . فقال : اللهم إنّى رضِيتُ بما أعطانيه من الأيمان بك ، ووثِقتُ بكفايتك إيايَ غدرَه ، و [إنّ][2] بحَلِفه وآجترائه على الحِنث بما أكّده لى اغترارًا بحلمك عنه ، فأَدلنى عليه[3] .

ثم ركِب فرأيتُ مَيْمَنَةَ خُمارويه قد انهزمت وتبعتها مَيْسَرتُه ، فحمل فى شِرْذِمَةٍ يسيرة على جيش ابن أبى الساج ، وهو فى غاية من الوفور ، فانهزموا بأسْرِهم ، فوقف على نَشَزٍ [4] وأَطَفتُ ومَنْ حضَره به ، فاستأْمَنَتْ إلينا عِدَّةٌ كثيرة[5] . فقلت له : إنّ مُقامنا أيُّها الأمير مع

---

(١) هو الشريف الحسنىّ ، كان سيّدا فاضلا جوادا ، وكان له جاه ومنزلة ، توفى سنة ٣١٥ . (النجوم الزاهرة) .

(٢) زيدت (إن) على الأصل ليستقيم الكلام .

(٣) فأدلنى عليه : المعروف : أدلنى منه أى آجعل لى الغلبة عليه .

(٤) نشز : مكان عال .

(٥) فاستأمنت الخ : أى جاء إلينا عدد من جيش العدو يطلب الأمان .

هذه الجماعة خَطَرٌ . فأمرنى بالمَسير بِهِم إلى مُسْتَقَرِّ سَوَاده[١] فسرْتُ معهم، وأنا على رقْبَةٍ من طمعٍ فِيهِ أوكَيْد له ، فبلغوا نهرًا احتاجوا إلى عُبُورِه ، فرأيتُهم قد خلعوا الخِفاف وحطّوا الرِحال وسلكوا سلوك المطمئنِّ فأنِسْتُ إليهم .

* * *

وكان فِى حارتنا شابٌّ قد قَدم مِن العِراق ذكىُّ الرُّوح هادئُ السَعْى[٢] ، يذكُر أنّه قرابةٌ لابن يَعْفُرَ القائم كان باليمن[٣] . وكان بمصر فِى دُونِ قومه[٤] . فأشار عليه مَنْ شاهد ابنَ يَعْفُرَ وسَعَةَ أمره بالخروج إليهِ ؛ فأخذتُ له حَجَّةً[٥] من بعض أهلنا ، وأضفتُ إليها بِرًّا يفِى بتحْمِله ، وخرج فلَقِىَ بمكةَ عجوزا يمانيّةً جليلةَ القَدْر فيهم ، فعرَّفَها موضعَه فقالت : أنا أتكفَّلُ بمُؤْنَتِك وتحمُّلِك وأغتنِمُ هذه اليدَ عند الأمير . وحملَتْه حتى صارت به إلى عشيرتها، فقالت لهم:

---

(١) سواده : معظم جيشه .

(٢) هادئ السعى : متأن قليل النشاط .

(٣) القائم كان باليمن : تعبير مألوف فى ذلك العهد : أى الذى كان قائما باليمن

(٤) فى دون قومه : غريبا .

(٥) فاخذت له حجة : جمعت له نفقت حجة .

إنّ ابنَ يَعْفُرَ قَتَلَ مِنَّا فِي العامِ الماضي رجلاً ؛ ومعي قَرابةٌ له فاقتلُوه به . واجتمع الحَيُّ وتسلَّمَه أولياءُ القتيل . فلما جُرِّدالسيفُ ٱضطرب وبكَى . فقال أولياءُ القتيل : ما نرضَى أنْ نقتُلَ هذا بصاحبنا ! صاحبُنا شجاعٌ،وهذا جَبان . فبعَثوا به إلى ابنِ يَعْفُرَ وقالوا لرسولهم إليه : إنّا لانرضَى أنْ نقتادَ مِن هذا .

فلمّا وافَى ابنَ يعفر دعا له بالسيف والنِطع ليقتُلَه ، وقال : هَتَكْتَنى فِي هذا الحيِّ من العرب ! فقال له وزيرُه: إنّ هذا الفتَى خرج مِن فاقةٍ وأمْنٍ إلى مَوْقِفٍ تُضرَبُ فيه عُنُقُه فٱضطرب، وإنّما يقتُل الأميرُ مَن قاد الجيوشَ وتطعَّم بحلاوة الأمر والنهى فيه[1] وتمكَّن من الرياسة ثمَّ عدَل به طبعُه إلى الخَوَر. والذى أراه للأمير أنْ يعقِدَ له الرياسة على جماعتِه ويُنفِذَه إلى مُهِمّاته ، فإنَّ أكثر الفضائلِ إنّما تظهَر بحسن الارتياض . ففعل الملك ما أشار به عليه وزيره .

فحدّثنى أبو عبد الله محمدُ بنُ عامر اليمانىُّ : أنّه درَج بهذا التدبير فظهَر من شجاعته مالم يُرَ فِي آل يَعْفُرَ مثلُه ؛ ثم غزا الحَيَّ الذى كانت تلك العجوزُ منهم فقتل أولادًا كانوا لها وأقفر به ذلك الحَيُّ .

* * *

(١) فيه : الضمير يعود على المنصب المفهوم من السياق. والأولى حذف (فيه).

وحدّثنى يُوسُفُ بنُ إبراهيم [والدى] . قال :

حدّثنى إبراهيمُ بنُ المَهْدىّ أنّه دخلَ على الخَيْزُران[١] أُمِّ الرشيد فوجدها جالسة فى الدار المعروفة بها (وصارت إلى أُمِّ محمدٍ بنتِ الرشيد بعدَها) على نَمَط إرمينىّ[٢] والنَمَطُ على بِساطٍ إرمِينىّ، وعن يمين النَمَط ويساره نمارق[٣] إرمِينيَّة، وعلَى أعْلَى نُمْرُقَةٍ منها زينبُ بنتُ سليمانَ بنِ علىّ، وعلَى يسار النَمارِق أمّهاتُ أولاد المنصور ونِسوةٌ من نساء بَنِي هاشم ، إذ وقفَتِ امرأةٌ على طَرَف البِساط فسلّمت ثم قالت : يا زوجَ أميرِ المؤمنين أنا مُرَيَّةُ زَوْجُ هِشامِ بن عبدِ الملك ثمّ مَرْوانَ بن محمدٍ من بعده ، نكبهَا الزمنُ وزلّت بها النعلُ ، حتّى أصارها إلى عاريةٍ ما تَسْتَتِرُ[٤] به ممّا عليها . فتبيَّنتُ الدموعَ تدور فى عين الخَيْزُران، وخافت زينبُ أنْ تدْخُلَها

---

(١) الخيزران : زوج المهدىّ العباسىّ وأمّ الهادى والرشيد ، يمانية الأصل ، أخذت العلم عن الأوزاعىّ ، توفيت فى عهد الرشيد سنة ١٨٣ هـ .

(٢) نمط إرمينىّ : النمط ظهارة الفراش ، وإرمينية وقد تشدّد الياء أربع كور متصل بعضها ببعض ببلاد الروم ، يقال لكل كورة منها إرمينية ، والنسبة إليها أرمنى بفتح الهمزة. ولكنّ المؤلف جرى فى النسب إليها على القياس لا على المسموع.

(٣) نمارق : النمرق والنمرقة مثلثة النون : الوسادة الصغيرة .

(٤) ما تستتر : ما موصولة فاعل أصار . والمعنى أن الذى تستتر به من الثياب ممزق خلق صيّرها كالعارية .

رقّةٌ ، فقطعت على مُرَيَّةَ الكلامَ بأن قالت : يا أُمَّ أمير المؤمنين ! اتقى الله أن يَدْخُلَك رأفةٌ بهذه الملعونة فتتبوّئى مَقْعَدَك من النار ! ثم التفتت إلى مُرَيَّةَ فقالت لها : بك فدام ما أنتِ فيه يا مُرَيَّةُ ! كأنّك نَسيتِ دخولى عليك بحرّانَ[1] وأنتِ جالسةٌ بصحن دارِ مَرْوانَ على هذا النَمَط ، وتحتَه هذا البِساطُ ، وعن يمين نَمَطِك ويساره هذه النمارِقُ ، وعليها أُمّهاتُ أولادِ جَبابِرتكم ، وقد مَثَلْتُ فى مِثْل هذا المكان الذى أنتِ فيه ماثلةٌ ، وأنا أسألُك وأتضرَّعُ إليك فى استيهاب جُثَّة إبراهيمَ الإمامِ[2] من مَرْوان[3] لئلّا يُمَثِّلَ به ، وقولَكِ وأنت كالحةٌ[4] فى وجهى : ما للنساء والدخولَ فى أمور الرجال ! ثم أمَرْت

---

(١) حرّان : مدينة عظيمة مشهورة ، وهى قصبة ديار مضر . فتحت أيام عمر بن الخطاب ، على يد عياض بن غُنْم ، وبها قبر إبراهيم الإمام . قال سديف :

قد كنت أحسبنى جلداً فضعضعنى ... قبر بحران فيه عصمة الدين

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العبّاس ، زعيم الدعوة العبّاسيّة . انتشرت دعوته ووجه أبا مسلم الخراسانىّ واليا على شيعته بخراسان ، ثم قبض عليه مروان بن محمد وسجنه بحرّان وقتله فى الحبس .

(٣) وقولك : معطوف على دخولى عليك .

(٤) كالحة : عابسة .

بإخراجى من دارك بغلظة ، فلجأتُ إلى مَرْوانَ فوجدتُه على حالٍ أشدَّ تعطُّفا على رَحِمِه منكِ . وقال لى : لقد ساءتنى وفاةُ ابن عمّى وما دَبَّرتُ المُثْلَةَ [١] [به] وقد خيّرنى بين إطلاقِ تجهيزِه له وبين تسليمه إلىّ ، فاخترتُ تسليمَه ، وأمَر له بجَهازٍ فقبِلْتُه منه .

قال إبراهيم : فالتفتَتْ مُرَيَّةُ إلى زينبَ فقالت لها : كأنّك يا بنتَ سليمان حمِدتِ لى عاقبةَ أمرى فى قطيعتى رَحِمى ، فأردْتِ أن تُزَيّنى قطيعةَ الرَحِمِ لأُمّ أمير المؤمنين ! ثم التفتت إلى الخَيْزُران فقالت : قد صدَقتْ زينبُ فيما ذكرت عنّى ، وذلك الفعلُ منّى أحلّنى هذا هذا المحلَّ . والسعيدُ من اتّعظ بغيره . وانصرفتْ .

فبعَثَتْ إليها الخَيْزُرَان ما أعاد إليها [حالَها] وكَفَّ اختلالَها .

* * *

وحدّثنى يُوسُفُ بنُ إبراهيم والدى ، أنّه سمع بِطُوسٍ رجلًا [٢] يُحَدِّث إبراهيم بنَ المهدىّ : أنّ نِقْفُورَ [٣] الملكَ لمّا تأدّى

---

(١) المثلة : التمثيل بالقتيل والتنكيل به .

(٢) رجلا : سيأتى فى هذه القصة أنّ اسم هذا الرجل بطرس .

(٣) كان أبى أن يدفع الخراج إلى الرشيد فحاربه الرشيد وخرّب بلاده ثم صالحه على خراج يحمله إليه فى كل سنة ، ومات نقفور سنة ١٩٣ بعد أن حكم سبع سنين .

إليه الخبر بوفاة الرشيد ، جعل ذلك اليوم عيدًا للروم ، ثم جعل عيدًا أعظمَ منه فى اليوم الذى تأدَّى إليه وقوعُ الشرِّ بين محمدٍ الأمينِ [١] والمأمونِ ، ثم عيَّد عيدًا ثالثا فى الوقت الذى بلغه خروجُ أبى السَرايا [٢] ، ثم خرج إلى البُرْجان [٣] ليُحاربَهم فقُتِل . فسأل بَطارقةُ [٤] الروم

---

(١) هو محمد الأمين الخليفة العبّاسىّ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد سنة ١٩٣ هـ وبعهدمنه ، وقد أعلن سنة ١٩٥ خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فكان هذا سببا فى وقوع حرب بينهما انتهى أمرها بتغلب المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ

(٢) أبو السرايا : هو السرى بن منصور ، كان فى أول أمره يكرى الحمير ، ثم قوى حاله بجمع عصابة لقطع الطرق ، فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون اشترك فيها قائدا وخوطب بالأمير ، ثم شق عصا الطاعة فى عهد المأمون واستولى على بعض البلاد ، ولم يزل شرّه يعظم وأمره يستفحل إلى أن قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ (الأعلام جزء ١)

هذا ، وفيما يذكره المؤلف خطأ تاريخىّ لأن نقفور مات فى السنة التى مات فيها الرشيد ، فلم يكن حيّا حينما وقع الشرّ بين الأمين والمأمون سنة ١٩٥ ، ولم يكن حيّا حينما خرج أبو السرايا على الدولة العباسية سنة ١٩٩

(٣) البرجان : صنف من الروم .

(٤) بطارقة : جمع بطريق : القائد من قواد الروم .

بطريقهم[١] اختيارَ رجل ليُقَلِّدَ مملكتَهم فاتّفق معهم على رجلٍ من أبناء العرب يقال له اليون، فملّكوه[٢]. و كان ذا نكاية[٣] فدفع عنهم وَقْدَةَ[٤] البُرْجانِ ، وقوِىَ اليون على ضبط المملكة ، وكانت الروم فى أيامه أعزَّ منها فى أيام نِقْفُور، إلّا أنّهم أنكروا عليه بَسْطَ اليدِ بالهِبات والعفوَ عن أسرَى المسلمين .

ثم اجتمعت البَطارقةُ الاثنا عشر فى مجلِسٍ على نبيذٍ لهم ، فتذاكروا أمرَه واستشنعوا فعلَه . وكان أغلظَهم كَدْحًا عليه[٥] ميخائيلُ البِطْرِيقُ[٦] الذى ملَكَهم وملَكتْهُم امرأةٌ بعده[٧] . فبلغ اجتماعُهم وما قالوا

---

(١) بطريقهم : يراد به القائد الأكبر .

(٢) لم يكن اليون من أبناء العرب . والذى تزعمة الروم هو أن نقفور من أبناء العرب .

(٣) نكاية : فتك وكيد .

(٤) وقدة : حدّة ، بطش .

(٥) كدحا عليه : سعيا فى الكيد له .

(٦) مات سنة ٢٠٩ بعد أن حكم تسع سنين .

(٧) الذى ملك بعده ابنه نوفيل، ولما مات فى سنة ٢٢٧ ملكت الروم زوجته وابنها ميخائيل .

اليونَ . فوجّه فى يوم سبتٍ إلى ميخائيلَ فأحضره ثم دعا بتَلِّيس [١] من شَعْر بطول ميخائيلَ فأُدْخِل رِجلاه فى قَرارة التَّلِّيس ، ثم أَمَرَ بالتَّلِّيس فرُفِع وأُقيم ميخائيلُ فبلغ رأسُ التَلِّيس إلى رأسه . ثم أَمَرَ أنْ يُحْشَى رَمْلًا فَحُشِى ، فبلَغ الرملُ فَمَ التَّلِّيس . ثم أَمَرَ فخيط بشَعْر جُمَّة [٢] ميخائيلَ ، ودعا الطبّاخين فأمرهم أنْ يُعِدّوا له طعاماً كثيراً مثلَ ما يُعَدُّ فى الأعياد ، ثم قال للبَطارقة ، وميخائيلُ بين يَدَيْه على تلك الحالِ : إذا نحن تَقَرّبْنا [٣] فى غدٍ أَلْقَيْتُ ميخائيلَ فى البحر . ثم تغدّينا وجعلناه يومَ سرور .

قال بطرُس : فاجتمع البَطارقةُ بعد آنصرافهم من عنده ، وقالوا : هذا العربىُّ قد آمتدّت يدُه إلى ميخائيلَ ، ونخاف أنْ يجترئ على كافّتِنا . فأَجْمَعوا على الآشتمال علَى سيوفهم ، والدخولِ إليه وقتلِه . ففعلوا ذلك . ثمّ جلَسوا للمُشاورة فيمن يُنَصَّبُ بمكانه ، واستشرف كلُّ واحدٍ منهم إلى أنْ يكون مَلِكًا . فقال أحدُهم لسائر الجماعة : الصوابُ أنْ تملّكوا ميخائيلَ ، فإنّه يَرى أنّكم أنعمتم عليه بالحياة . فاستشرفوا إلى ذلك ، ورأَوْا موضِعَ السَداد منه ، فأخرجوه من التَّلِّيس وغسَلوه ،

---

(١) تليس : كيس .

(٢) جمة : مجتمع شعر الرأس .

(٣) تقربنا : قدّمنا القرابين .

وأحضروا البِطْرِيقَ [١] وثيابَ المَلِك فألبسوه إياها ، وأعلموه أن اليونَ قد قُتِل وملَّكوه عليهم .

ثم صاروا إلى مجلِس المملكة والموائدُ منصوبةٌ ، فقالوا له : تَغَدَّ أيّها الملكُ بالطعام الذى دبّر اليونُ أنْ يأكلَه بعد قتلِك ! فقال ميخائيلُ : عارٌ بالملِك أن يَطْعَمَ طعاماً ، وفى عنقه يَدٌ لإنسان من أوليائه ورعيّته ، قبل أن يكافئَه عنها ، وقد أحييتمونى بعد موتى ، ولستُ أطْعَمُ طعاما حتى يُخبِرَنى كلُّ إنسان منكم بجميع حوائجه فى مُدَّة عُمُره . فقال كلُّ واحدٍ منهم ما تناهَى إليه أملهُ ممّا يصل ميخائيلُ الملِكُ إليه . فقضَى جميعَ حوائجهم . وسألوه الأكلَ ، فقال : قد فرَغنا ممّا يجب لكم ، وبَقِى [ما] لله وللملِك اليون ، ولا يَحْسُن بى أنْ آكُلَ حتّى أفعلَ ما يجب لهما . ثم قال للبِطْريق [٢] : ما جزاءُ مَن منَع ملِكا عليه مِن شَمِّ النسيم ورَوْح الحياة ؟ قال البِطْريق : يُمْنَعُ النسيمَ ورَوْحَ الحياة . فقال لهم : قد حكَم عليكم البِطْريق بما لا يجوز خلافُه . وأمر بضرب أعناقهم وابتدأ بطعامه .

* * *

(١) البطريق : أى البطريق الأكبر .

(٢) للبطريق : لعله يريد كبير البطارقة .

ومما نقله ابنُ المُقَفَّع عن الفُرْس وتعالَمَه [١] العربُ : أنّ ملك الحَبَشَة لمّا غلَب على مملكة سيفِ بنِ ذى يَزَنَ [٢] خرجَ إلى كِسْرَى مستصرِخاً إليه مستجيراً به عليه . وكان ملك الحبشة يُجْرى على تَرْجُمان كِسْرَى رزقا مُثيباً علَى تحريف دعوَى المتظلّمين منه . وكان لكِسْرَى يومٌ فى كلّ شهرٍ يركَبُ فيه ويقرُب من عامّته ، ومَن لا يَصِلُ إليه ممّن انتجعه [٣] . فتوخّى سيفُ بنُ ذى يَزَنَ ركوبَه فى ذلك اليوم ، فلمّا رآه قال : أسعد الله الملك ؛ أنا سيفُ بنُ ذى يَزَنَ ؛ أغار علَىّ متملِّكُ الحبشة بفَرْط تعدِّيه وسوءِ جِواره فأخرجنى من مملكةٍ عَمَرْتُها أنا وآبائى مذ أكثرَ من مائتى سنة ! وأنا أسأل الملك أنْ يُنْجِدنى عليه ويردَّنى بِطَوْله [٤] إلى مملكتى ومملكة آبائى .

---

(١) تعالمه : علمه .

(٢) من ملوك اليمانيين ودهاتهم ، ولد ونشأ بصنعاء ، ولما غزا بلاده ملك الحبشة مسروق بن أبرهة استنجد بقيصر ملك الروم فلم يلتفت إليه ، فقصد النعمان بن المنذر فأوصله إلى كسرى أنو شروان فساعده ونصره على الحبش ، وأبقى سيف جماعة منهم إشفاقا عليهم فائتمروا عليه وقتلوه بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة.

(٣) انتجعه : قصده .

(٤) بطوله : الطول ، الفضل والقدرة والغنى والسعة .

فسأل التَرْجُمانَ عن قوله ؛ فقال يقول: أنا رجل من جِلَّة[١] العرب وقد اختلّت حالى ؛ واضطَرب شَمْلى لشدّة الفاقة ؛ وقد قَصَدتُ الملك مُستَتِراً به[٢] ؛ ومُستَميراً منه . فأمَرَ له بجائزة ، فرأى سَيْفُ بنُ ذى يَزَنَ مالا يُشْبِهُ ماابتدأه به. وصَبَر إلى اليوم الذى يسهُل فيه كلامه ، وانتظره فيه . فلمّا رآه قال: أنا (أيّد الله الملك) ذو نعمةٍ وكفاية ، وإنما وَفَدْت على الملك لأقتبسَ من عزّه ؛ وأنتصرَ بقوّته . فسأل التَرْجُمان عمّا قال. فقال : يقول أمَرْتَ بما يَقْصُر عن حاجتى . فأمَرَ له بجائزةٍ أخرى . فوقف على تحريف التَرْجُمان لكلامه ؛ فانتظره فى اليوم الثالث ، فلمّا رآه قال : أيّد اللهُ الملك! إنَّ الغادرَ . . . ! فأدّى[٣] إليه هذا الحرفَ فقال[٤] الخائنَ . فرأى فى وجه الملك الاستفهامَ . فقال : الكذّابَ . فأشار إليه الملك بيده : مَنْ هُوَ ! فأومأَ إلَى التَرْجُمان. فأحضر الملك تَرْجُمانا آخَرَ فقصّ عليه قصّته فضرب عُنُقَ التَرْجُمان وأحسن تلقّى سيفِ بنِ ذى يزنَ لمَا تَبَيَّن منه

---

(١) جلة : يقال : جليل من جلة ، ويقال قوم جلة أى عظماء سادة ذوو أخطار .

(٢) مستترا به : محتميا به .

(٣) فأدى : أى الترجمان .

(٤) أى سيف بن ذى يزن .

فى التأنّى لإفهامه . ثم أحضره مجلِسَه . فسأل عن مقدار حاجته . وما الذى يُؤْثره من أصناف الناس . فقال له : أسألُ الملكَ أنْ يُطلِق لى من محابسه الكُهولَ ، فانّهم أصبرُ فى المعارك ، واسمحُ بالنفوس . فأطلق له جملةَ من [فى] الحبس كُهولًا بأسرهم ، فحملهم فى مراكبَ وركِب معهم حتى وافَى مملكتَه . فلمّا نزل جميعُهم أحرق المراكب واعتمد [١] ذلك سِرًّا منهم ، فلما نظروا إلى المراكب قد احترقت . قال للرجال : إنه لايحسُن بكم التعذيرُ [٢] فى القتال فتهلِكوا ، ولكنْ جِدُّوا جِدَّ مَنْ لانجاةَ له فى البحر . فجرّد الجيشُ العنايةَ ، وصَدَقوا حتى بَرَزُوا [٣] على مَنْ أقام بمملكته ، واحتازوا له طائفةً كبيرةً من أرض الحبشة ، وقَهَرَ ملِكَها واتّقَى جانبه .

* * *

---

[١] اعتمد : قصد .

[٢] التعذير : عذّر تعذيرا : لم يثبت له عذر ، والمعنى لايحسن بكم محاولة اعتذار لا يفيد .

[٣] برزوا عليهم : غلبوهم وفاقوهم ، وفى الأصل : بزوا .

وحدّثنى هارونُ بنُ مَلُّول . قال :

تقلَّد أبو الوزير خالُ أبى أيوبَ[١] الخَراجَ على حالِ اضطرابٍ من الأولياء[٢]، واستعمل من فَرْطِ الاستقصاء على أرباب الخَراجات ، وإخراجِ البُقُوط[٣] عليهم[٤] ما ثُقُلت به وَطْأَتُهُ على الناس . وكان له كاتبٌ (ذهب عنّى اسمُه) فى النهاية من الجَزالة[٥] والضبط ، وكان يُعْزَى إليه أكثرُ صنيع أبى الوزير . فقال لى هارونُ : فقصده جماعةٌ من الأولياء فأحسَّ بالشّر فيهم، فأغلق البابَ عنهم ، ثم تأمّلهم حتّى عَرَفهم فكتب بفحمةٍ " ياسيِّدى ! قتلنى فُلانٌ وفُلان " وسمّى جماعةَ رؤسائهم . وكسروا البابَ ودخلوا إليه فقتلوه .

---

(١) هو أحمد بن محمد ولّاه ابن طولون الخراج فى أول عهده بمصر .

(٢) الأولياء : من يتولون أعمال الوالى .

(٣) البقوط : جمع بقط "كسهم" وهو أن تعطى الرجل البستان ليزرعه على أن يكون له الثلث أو الربع من غلّته .

(٤) عليهم : أى الباقية عليهم .

(٥) الجزالة : حدة العقل و إصالة الرأى .

وركب أبو الوزير حتّى شاهده ثم تأمّل حائطَ مجلِسه ، فوجد الكتّابَ بالفحمة فقبَض عليهم فَصَدَّقوه [١] ، وقُتِلوا به .

* * *

وكان لرجلٍ من جِلّة كُتّاب الجيش بمصر يُعرَف بابنِ الأبرد رغبةٌ فى وصفه بالنصح فى أعمال السلطان . ولا بَسَهُ [٢] محمدُ ابنُ أبّا [القائدُ] [٣] فقدّم العنايةَ به والتعصُّبَ له ، ومكّن له عند خُمارويه مَحَلًّا ردّ إليه بعضَ أعماله من الخَراج ؛ واحتاج فيه إلى كاتبٍ يحمِلُ عنه ، فارتاد رجلًا يُعرَف بنصر بنِ القاسم يَخْلُف [ابنَ الأبرد] [٤] فيما أُسنِد إليه . فكان [٥] يَسْعَى به إلى كاتب خُمارويه ، فكتَب يوماً

---

(١) فصدّقوه : فى الأصل فصدقوا عنه .

(٢) لابسه : خالطه ، وعرف باطنه .

(٣) كان محمد بن أبّا من كبار قواد ابن طولون ، أرسله مع جماعة من قواده إلى الاسكندرية لينصح ابنه العبّاس حينما خرج عليه ، وكان أحد القواد الذين وصّى ابنه أبا الجيش بطاعتهم عندما استخلفه على البلد وذهب إلى الشام للقاء الخليفة المعتمد ، وبقى محمد بن أبّا على إخلاصه وولائه لابن طولون إلى أن مات .

(٤) هنا إظهار فى مقام الإضمار ، والمألوف أن يقول : يخلفه فيما أسند إليه .

(٥) فكان : أى نصر بن القاسم .

رُقعةً تشتمل على ما كَرِهه ابنُ الأبردِ من التغميز به [١] والانتقاص له . ويشير فيها بأشياءَ تُفسِدُ محَلّه ! وبعَث بها إلى كاتب خُمارويه ؛ فغلِط الغلام وجاء بها إلى ابن الأبرد ، فاستعرض فيها أشياء قبيحةً وفارق الكاتبَ .

ورأَى [٢] الكاتبُ أنّه قد أحرز بما أتاه من السِعاية مكانةً عند كاتب خُمارويه . وقُتِل خُمارويه وثبتت يدُ كاتبة على الأمر ؛ فرام نصرُ بنُ القاسم أن يدخُل فى جملته ؛ فامتنع منْ ذلك وقال : مَن سعَى إلينا سعى بنا . فمات نصر بنُ القاسم كَمَدا .

* * *

وسمعتُ سعدَ بنَ عبدِ الله بنِ عبد الحَكَم [٣] يقول : وُجِدَ فى أخبار مصر المُسنَدَةِ ، أنّ عَمْرَو بنَ العاصِ [٤] عند تغلُّبِه على

---

(١) التغميز به : غمز (بالتخفيف) بالرجل سعى به شرا .

(٢) ورأى الكاتب : وظنّ الكاتب .

(٣) فى الأصل : سعيد بن عبد الله بن الحكم .

(٤) عمرو بن العاص : هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمىّ القرشىّ فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم ، وكان له شأن عظيم فى الخلاف بين علىّ ومعاوية ، توفى بالقاهرة سنة ٤٣ هـ (الأعلام جزء ٢)

مصر ، كان يتنكّر ويخرُج وحدَه متشبِّها بالرجل من عامته ليرى ماعليه القبْطُ من النيّة للمسلمين . فتمادَى به السيرُ راجلًا حتّى لحِق بطَرَفٍ من الفُسْطاط فرأى جماعةً قد التأمَتْ على سُوءٍ فيه[١] . فقال لها : اعملوا بى كلَّ ما تُؤْثِرون من السوء ولا تردُّونى إلى يد الأمير ! فإنّى هَرَبت منه . فقال بعضُهم ردُّوه إلى يد الأمير فانّه يقتُلُه ويكونُ لكم بذلك عارفةٌ عند الأمير . فساقوه إلى دار الإمارة فأخذ يتضَوَّر[٢] ويتأبَّى فى سِياقته حتَّى قَرُب من الدار ، فقام إليه الشُّرَط[٣] فقال : لايفوتَنَّكم منهم أحدٌ ! فجُمِعوا له فأتَى على آخرهم ولم يعاوِد التنكُّر .

* * *

وكنتُ أعرِف شيخًا فى أيام نُمارويه ، حُلْوَ النادرة ، مليحَ الألفاظ ، يعرف بالدِفانّى . وكان معاشُه من التوصُّل بكُتُب الوُلاة إلى مُعامليهم[٤] . فحدّثنى أنّه خرَج بكُتُبٍ إلى الشرقيّة ، فالتقَى مع رجلٍ فى زِىّ بعضِ المانيّة[٥] من الأطباء ، وهو على حِمارٍ

---

(١) فرأى جماعة الخ : أى فرأى جماعة التفّت حوله لإيقاع الشر به .

(٢) يتضور : يتلوّى ويضطرب .

(٣) الشرط : هم أعوان الوالى وحفظة الأمن الواحد شرطى .

(٤) معامليهم : من يعملون تحت إمرتهم .

(٥) المانية : هم أتباع مانى بن فاتك ويقال لهم الماتومة أيضا .

بخُرْجَيْن ، وكنتُ على حمار ، فاستخبرنى عن صناعتى ، فتحسَّنْتُ عنده[١] بأن قلت: أنا تاجر فى الغَلّات. فطمِع فىَّ، وكان مُبَنِّجا. فقال لى : هذا موضعٌ طيِّب ، فلو أكلنا فيه ! فقلت . ذاك إليك . فأخرج من أحد خُرْجَيْه رَغيفين مشطورين[٢]، فوضَع أحدَهما بين يَدَىَّ والآخرَ بين يَدَيْه . ثم أخذ كوزاً معه ومضَى يسعَى به . فشرِهَتْ نفسى إلى الرغيف الذى كان بين يديه، فأبدلتُه حتى صار بين يَدَىَّ، وصار رغيفى بين يديه ، وجاء بالماء ، وابتدأنا بالأكل فما ابتلع لُقْمَةً حتى شخَص بَصَرُه وتمدّد . وآجتاز بنا جماعة فقالوا : مالِصاحبِك قلت : لا أدرى والله ! فقالوا لى : أنت مُبَنِّجٌ بنَّجْتَ هذا المسكين! وساقونى .

فكان من لطف الله أنّ خليفةً لموسَى بنِ طونيقَ[٣] كان ببلدهم ويُجاورنى[٤] يتقلَّد المَعونةَ، فساقنى القوم إليه ، والرجلُ محمولٌ معنا ،

---

(١) فتحسنت عنده : أظهرت حسن حالتى .

(٢) مشطورين : المشطور والشطير الخبز عليه الكامخ .

(٣) فى النجوم الزاهرة ابن طرنيق بالراء . وموسى هذا كان على شرطة مصر آخر عهد الدولة الطولونية وقد قبض عليه حين زال ملكهم مع من قبض عليهم من بنى طولون وأتباعهم وسيق فى الحديد إلى حلب .

(٤) يجاورنى : يعطف علىّ ويواسينى .

وهم يقودون الحمارين ، وقالوا له : هذا مُبَنِّجٌ وجدناه! فلما رآنى ضحك إلىّ وقال : متى تعلّمتَ التبنيج ؟ قلت : اليومَ ، وقصصت عليه خبرى ، وأخرجت كتابَ موسى بن طونيقَ فى برِّى ، ففتّش خُرْجَه فوجد فيه شطائرَ تبنيجٍ وشطائرَ خالية ، ووجد معها أوتارًا للخنق وأحجارًا للشَّدْخ ، فشَدَخ رأسَه بها ، وخنقه بتلك الأوتار حتّى فاظ[1] .

وإذ وَفَّينا ما وعدناك به من أخبار المُكافأة على الحَسَن والقبيح ما رجونا أنْ يكونَ ذلك عونًا للاستكثار من مُواصلةِ الخير ، وَتَطَلُّب العارفة فى الحَسَن . وزَجْرِ النفسِ عن مُتابعة الشرِّ ، وإبعادها عن سَوْرة الانتقام[2] فى القبيح. وقد قالوا : الخيرُ بالخيرُ والبادئُ أَخْيَرُ، والشرُّ بالشرِّ والبادئُ أَظْلَمُ ؛ رأيتُ أنْ أصِلَ ذلك (حفِظك اللهُ) بطُرَفٍ[3] من أَخْبارِ من ابتُلِىَ فصبَر ، فكان ثمرةُ صبرِه حُسْنَ العُقْبَى ، لأنّ النفسَ إذا لم تُعَنْ عند الشدائد بما يُجدِّدُ قُواها تولّى

---

(١) فاظ : مات .

(٢) سورة الانتقام : حدّته وشدّته .

(٣) بطرف : جمع طرفة ويصح أن تقرأ بطرف (بالتحريك) أى بجزء .

عليها اليأسُ فأهلكها . وقد علِم الإنسانُ أنّ سُفُورَ الحالة عن ضدِّها حَتْمٌ لا بُدَّ عنه . كما علِم أنّ انجلاء الليل يُسْفِر عن النهار . ولكنّ خَوَرَ الطبيعة أشدُّ ما يلازم النفْس عند نزول الكوارث ، فإذا لم تُعالَج بالدواء اشتدّت العِلّة ، وازدادتِ المِحنة . والتفكُّرُ فى أخبار هذا الباب ممّا يُشَجِّع النفس ويبعَثُها على مُلازمة الصبر وحُسْنِ الأدب مع الربِّ (عزَّ وجلَّ) بحُسْنِ الظنِّ فى مواتاة الإحسان عند نهاية الامتحان .

والله ولىُّ التوفيق .

حُسْنُ العُقْبَى

[ومِمّا سمعتُه أنّ ابنَىْ عُمَرَ الأَخبارىّ لمّا مات أبوهما ، وكان من رجال دولة المتوكّل ، هَمَّ المتوكّلُ بمُصادرة أمواله . فعَزَما أن يجعلاها وَديعةً عند شيخٍ كانا يَرَيان فيه الصلاحَ وحُسْنَ المذهبِ ، فكانا يَبْعَثان إليه [١]] بالشىء بعد الشىء ممّا تخلّفَ عن تلك الوَديعة . وعَجوزٌ تختلفُ [٢] بذلك ، لها ولد يتشطَّر [٣] ويلعَب بالحمام . فوردتْ عليهما بَدْرَةٌ [٤] دراهم ، وقد آنتهى بهما السَّعْىُ فى الإيداع [٥] . فقالا للعجوز : صِيرى بها إلى آبنك مع هذا الغلام حتى تُودعيها لنا عنده ، فمضت بها ، والغلامُ معها .

---

(١) أضفنا العبارة التى بين قوسين ليتسق نظام الحكاية ، وقد كان فى موضعها بياض بالأصل .

(٢) تختلف : تتردد .

(٣) يتشطّر : يعمل عمل الشطار ، وهم اللصوص .

(٤) بدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٥) انتهى بهما السعى فى الإيداع : كان هذا آخر ما يريدان إيداعه .

[قالا[١]] فحدّثنا الغلام قال : صرْنا إليه ، وقد فتَحَ باب البُرْج وأخرج فراخاً زُغْباً ، وهو ينظر إليها ، فأدّينا الرسالةَ إليه . فقال : ليس لى خِزانةٌ ولا صُندوق ، ولكن آجعَلها فى هذه المِحْضَنة[٢] الخالية من البُرْج. قال: ففعلتُ وانصرفتُ . فأجْمَعْنا[٣] على أنّه يُمزِّقها مع الغِلمان وسُبّاقِ الحمَام .

ثم صلَح ما كان التـاثَ[٤] من أمرنا ، واطمأنّتْ نفوسُنا ممّا كان أخافنا ، فبعثنا فيما كنّا أودعناه الشيخَ ، فقال للغلام : غلِطْتَ بى ، وليست الرسالةُ إلىَّ . فلما رجَع بالجواب إلينا تحيّرْنا وركِبنا إليه ، فاستمرّ فى الجحُود وتضاحك مما لقيناه به ، ورجَعنا وقد لحِقَنا من فَقْد الوَديعة أكثرُ ممّا كنّا نخافه من النَّكْبَة[٥] . وميَّلنا[٦]

---

(١) زدنا ما بين القوسين ليتسق الكلام .

(٢) المحضنة : المكان الذى يحضن فيه الطائر البيض .

(٣) فأجمعنا : فى الأصل جمعنا .

(٤) التـاث : اختلط واضطرب .

(٥) النكبة : أى فى أموالنا بمصادرتها .

(٦) ميّلنا : ميّل بين الشيئين ومايل : وازن .

بين مُطالبته بما نُنَبِّهُ به[١] على مقدار ما أودعناه ، ونُطْمِعُ مَن خِفْناه ، وبين الإمساك عنه ، وتربُّص[٢] الأيام به ، فمالتْ نفوسُنا إلى الإمساك لمّا اجتمعتْ لنا الضَّمائرُ المُغادِرة للعدل[٣] . واجتازت بنا العجوزُ فقالت : قد رَدَدْنا ما أودعناه[٤] وبقى آبنى . واقتضتْنا[٥] الغلامَ يحمِلُ البَدْرةَ ، فبعثنا به معها .

فحدّثنا الغلام قال : وافيناه بين يَدَيِ البُرْج فأدّت العجوزُ إليه الرسالة . فقال للغلام : ادخُل فُخذْها من المِحْضَنةِ التى خلّفتَها فيها . فصار بها إلينا الغلامُ ، وعليها ذَرْقُ[٦] الحمام ، فوزناها فوجدناها

---

(١) بما ننبه به : الباء للتصوير أى بين مطالبته المصوّرة بأنها تؤدى إلى تنبيه الخليفة إلى ما أودعناه خفية .

(٢) تربّص : انتظار .

(٣) لما اجتمعت لنا الضمائر الخ : يقول آثرنا الإمساك عن الشكوى حينما اجتمعت لمناوأتنا النفوس التى نبذت العدل والإنصاف . وفى الأصل : الصغائر وقد رجّحنا أن تكون الضمائر .

(٤) قد رددنا ما أودعناه : اعتقدت العجوز أنهما استردا وديعتهما التى كانت عند الشيخ لأنهما لم يخبراها بخبره .

(٥) واقتضتنا الغلام الخ : أى وطلبت منا أن تذهب مع الغلام ليحمل البدرة .

(٦) ذرق الحمام : نجوه ، وفعله من بابى نصر وضرب .

على ما كانت عليه ، فكثُر تعجُّبنا من أمانته وأخرجْنا من البَدْرة ألفَ دِرهم وتقدَّمْنا إلى الغلام بالمصير بها إليه ، فرجَع الغلامُ إلينا فقال : رمَى بها إليّ وشتَمَنى . فآثرْنا ارتباطَه[1] وقلنا للعجوز صِيرى به إلينا الساعةَ . فوافانا ، فقلنا : انبسطْنا إليك فانقبضْتَ عنّا ! فقال : الخيانةُ (أعزّكم الله) أسهلُ من أخذِ أُجْرَةٍ على الأمانة . فقلنا : جزاك اللهُ خَيْرًا ! فقد وجدْنا فيك مالم نجِدْه فى غيرك . فقال : وتخلَّف عنكم شىءٌ مما أودعتموه ؟ فقلنا : نعم ، فقال : عرِّفونى فإنّى أرجو أن آخُذَه لكم بألطَفِ حِيلةٍ . فرأيناه لِمَا فيه من فَضْل النفس ، وكَرَم السجِيَّةِ أهلًا لأن نبثَّه وجْدَنا ، فأخبرناه . فقال : ينبغى أنْ تتقدّما إلَى بعضِ مَنْ تثقان به من غلمانكما أنْ يَتَيَقَّظ ، فلعلِّى أنْ أُنادِيَه الليلةَ . فقلنا : وما تريد بذلك ؟ فقال : ما لايجوز أنْ أبْدِيَهُ ، وأرجو عَوْنَ الله عليه ، والتفريجَ عنكما به ، ففعلنا ذلك ، وما يتطاول سُؤْلُنَا إلى ما أتاه[2]

---

(١) ارتباطه : عقد الصلة بيننا و بينه واستخدامه فيما يجدّ من شئوننا .

(٢) وما يتطاول سؤلنا الخ : وما كان يمتد أملنا إلى ما أتاه من الحصول على الوديعة .

فجمع إخواناً له فى عدّةٍ كثيرة من الشُطّار، واقتحم على المُستَودَع وقال له : ما جِئنا لنهبك ، ولا نتعرّض لشىء من مالك ، وما جئنا إلّا لوَديعة ابنَىْ عُمَرَ الأَخبارىِّ ، فإنْ أدّيتَها خرَجنا وكأنّا ما دخلنا ، وإن جَحَدْتَ واعتمدت بصياحٍ، قتلناك الساعةَ ، وسهُل علينا عقوبتُنا فيك، وقَتْلُنا بك ، لأنّا نُرْزَقُ الشهادةَ فى القتل والمَثُوبَةَ ، إذْ كُنّا نُجاهد عمّا اختزلْتَه [١] . وضرب إلى لحيته [٢] وأَعْجَله . فقال : هى فى هذه الخِزانة، ودعا بغلامٍ فقال : أَخْرِج جميعَ ما [أَوْدَعَناه ابنا] عُمَرَ . فأخرج سَفَطًا كان فيه جواهرُ ، وسَفَطاً فيه أثوابٌ وَشْيٍ مُذْهَبَةً صِحاحا ، وبُدورا [٣] فيها مالٌ . فقال : والله لَئِنْ خلَّفْتَ شيئا لنُطلّنّ [٤] دَمَك ، ولَئِنْ كنتَ أدّيْتَ الأمانةَ لنكونَنّ أولياءك ، والمُقيمين بأمْرِك .

فوافَى بابَ منازلنا ، فصاحوا بالغلام ، وهم يحملون الوَديعة ، فوضعوها بين أيدينا وحدّثونا بحديثهم ، وقالوا : استعرضوا وديعتكم

---

(١) اختزلته : اقتطعته لنفسك .

(٢) وضرب إلى لحيته : أى وضرب ابن العجوز الشيخَ موجها الضربة إلى لحيته .

(٣) وبدورا : جمع بدرة .

(٤) لنطلنّ : لنهدرن دمك .

فنحن فى الدِهْليز حتى تفرُغا وتُخْبرانا : هل بَقِيَ منها شىء أم لا[١] ! فلمّا عرضناها على ثَبَتِها[٢] عندنا، مَا[٣] غادرت شيئا منه، وعادت بما رَدّ إلينا نعمتَنا ، وانحسمت فاقتُنا ، ولم نجِدْ فى الجماعة مَنْ قبِل شيئا ممّا بذَلْناه ، وانصرفوا .

*
* *

وحدّثنى أحمَدُ بنُ أيْمَنَ ، قال :

كنتُ أكتُبُ فى حَداثتى للعبّاس بنِ خالدٍ البَرْمَكىّ. وكان طويلَ اللسان[٤]، مخشىَّ الغضب. فإنى لجالس بين يديه فى داره بمدينة السلام حتّى دخل علينا شابٌّ حَسَنُ الصورة ، رَثُّ الهيئة ، فأكَبَّ عليه[٥] فقال : ألَسْتَ ابنَ فُلانٍ صديقِنا ؟ فقال : نعم يا سيِّدى ! فقال : قد كان حَسَنَ الظاهر ، جميل الهيئة ، فما بَلَغ بك إلى ما أرَى ؟

---

(١) هل بقى الخ : التعبير السائغ : أبقى منها شىء أم لا ؟

(٢) ثبتها : الثبت : الدفتر أو القائمة .

(٣) ما : فى الأصل فما .

(٤) طويل اللسان : يقصد المؤلف بطول اللسان ذرابته وقوة حجته

(٥) فأكب عليه : أقبل واتجه .

قال : كان تجمّلُه أوفَى من عائدته[١] وتُوُفِّىَ فكنت أتبلّغ بما يستعمله المُوفى على جاهه[٢]، إلى أنْ خان طبعى البارحةَ ولم أُطِقْ سَتْرَما بى ، فقصَدتك . فدعا بمائة دِرْهم وقال : تمسَّكْ[٣] بهذه إلى أن أنظُر لك فى عائدٍ عليك من الشُغْلْ[٤] .

فلما قام من عنده قال لغلامٍ يَثِقُ به : قُصَّ أثَرَ هذا الفَتَى ، فانظُرْ ما يبتاعه بهذه الدراهم ،وأَحْصِه عليه حتّى يدخُلَ منزله ، وآعرِف المنزلَ وصِرْ إلىّ . فرجَع إليه وقال : يا سيِّدى ! هذا غلامٌ عَيّارٌ[٥] ابتاع بِنَيِّفٍ وثلاثين دِرْهما سَمِيذًا[٦] وسكرا وعسلا ولحما كثيرا وحوائجَ الأعراس ، وأخذ طبّاخا من طبّاخى الأعراس ، وأحسَبُ أنَّ عنده دَعْوَةً ، وقد عرَفتُ منزلَه ، فقال : دعه .

---

(١) كان تجمّله الخ : كانت مظاهره أعظم من موارده .

(٢) أتبلّغ بما يستعمله الخ : اكتفى من القوت بما يصل إليه المشرف على نهاية جاهه .

(٣) تمسّك بهذه : أمسك بها رمقك .

(٤) فى عائد عليك الخ : أى فيما يعود عليك نفعه من العمل .

(٥) عيّار : العيّار فى اللغة الكثير المجيء والذهاب والذكى الكثير التطواف ، وقد استعملت الكلمة فى النشيط الذكى فى ارتكاب الجرائم المباهى بجرائمه .

(٦) سميذا : السميذ . وبالدال : الحوّارى وهو الدقيق الأبيض من خالص لباب البر .

فلم تَمْضِ إلّا أيّام يسيرة حتّى وافَى الفتَى ، فأعرض عنه واستثقل جلوسَه ، بين يديه فقال : يا عمّى وسيّدى ! ليس يُشْبِهُ هذا اللقاءُ ما لَقِيتَنى به فى الأُولَى ! قال : كنت فى الأُولى راجياً لصلاحك ، وأنا اليومَ آيِسٌ منه . فقال : وكيف ظننتَ ذلك ؟ قال : أخبرنى غلامى أنّك أنفقتَ إلى أنْ بلَغت منزلَك نَيِّفًا وثلاثين دِرْهما . وكان حقُّك ألا تَزيدَ على ثلاثة دراهم . فقال : لو عَرَفتَ خَبَرى لقدّمتَ عُذْرى . قال : ما خبرك ؟ قال : كنتُ مع تضايُقِ حالى أُمْسِك نفسى عن المَسْأَلة ، وأَقتصِرُ وأهلى على البُلْغَةِ ، وأنا ساكنٌ وأهلى فى ظهر دارِ فلانٍ (ووصف رجلا ظاهرَ اليَسار من التُجّار) وكان له طاقاتٌ فى مطبَخه تُفْضِى إلى منزلى ، فأوْلم وليمةً لا أشُكُّ فى حضورك إياها ، فشرِق منزلى بروائح الأطعمة ، وكانت الصبيَّةُ من صبيّاتى تخْرُج فتقول : رائحةُ جَدْيٍ يُشْوى ! وأخرى تقول : رائحةُ نُقانِقَ [1] تُقْلى ! وهذه تقول : " يا أَبَهْ أشتَهِى من هذا الفالوذَجِ الذى قد شاعت رائحتُه لُقْمَةً ! وقولهم [2]

---

(١) نقانق : وهى اللقانق باللام أيضا ، وهى الأمعاء المحشوّة ، يرى بعضهم أن الكلمة لاتينية الأصل .

(٢) وقولهم : الضمير يعود على أولاده من بنات وبنين .

يُقَرِّحُ قلبي ، وأَمَّلْتُ أنْ يدعونى فأتحمَّل التزليلَ[١] لهم ، فواللهِ ما رآنى أهلًا لذلك! فقلتُ : ولعلّه إذْ نَقَصْتُ عنده مِنْ منزلة مَنْ يُدْعَوْنَ[٢] أنْ يَبْعَثَ إلىَّ ؟ فواللهِ ما فعل ! فبِتّ بليلةٍ لا يَبِيتُ بها المَلْدُوغ ، فأصبحتُ فى الغَداة، فكنتَ أوْثَقَ[٣] فى نفسى من سائر مَنْ بمدينة السلام . فلمّا أعطيتنى تلك الدراهمَ اشتريتُ بها حوائجَ أُصلح منها ما اشتهَوْه ، فأكلوا أياماً منه ، وهم يدعون الله بالإحسان إليك[٤] ، والخُلْفِ عليك .

فقال له العبّاس : أحسنتَ بارك الله عليك ! ثم صاح ياغِلْمانُ : أسْرِجوا لى ، ولبِس ثيابَه وركِب وركِبتُ معه ، ودخَل إلى

---

(١) التزليل : الزلة (بالفتح) اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك، عراقية أو عامية . وقد صاغ المصدر هنا من زلّل ، وقد كان يستعمل هذا الفعل فى هذا العصر بصيغة المجرد . جاء فى السيرة للبلوىّ فى وصف أطعمة ابن طولون للفقراء والمستورين فى كل جمعة : أنه كان يشرف على ذلك بنفسه حتى يأكلوا ، ويؤمرون ألا يخرج أحد أو يزلّ معه مايقدر على حمله .

(٢) من يدعون : فى الأصل : من يدعونى .

(٣) فكنت أوثق : أى كنت أقوى فى نفسى من حيث التأميل فيك من سائر من ببغداد .

(٤) فى الأصل : فى الإحسان إليك .

صاحب الصنيع[١] فقال : دعوتنى وجماعةَ وجوه بَغْـداد إلى طعامٍ مَقَتَنا اللهُ عليه، وعرّضْتَ نعمتَنا للزوال، وأنفسَنا إلى اختزام الأعمار[٢]! وقصّ قِصّةَ الفَتَى ، وقال : عزمتُ علَى أنْ أَصَّدَّقَ عن كلِّ مَنْ حضَر وليمتَك[٣] ، وتكونُ[٤] سبباً لتخَلُّفِ الناسِ عنك ، والإمساكِ عن إجابتِك أُخْرَى الليالى[٥] ، فقال : أنا أفتدى إذاً عنك بمـا غفَلتُ عنه بخَمْسمائة دينارٍ ، قال : أحْضِرْها فأحضَرَها ، فقال[٦] : اقبِضْها فقبَضْتُها ، ثم ركِب إلَى جماعةٍ فقال : أعطونى فى مَعونة رجلٍ من أبناءِ النعم اختلّتْ حالُه ، فأخذ منهم خمسمائةِ دينارٍ أُخْرَى، ورجَع إلى

---

(١) الصنيع : الدعوة .

(٢) اختزام الأعمار ، ذهابها : يقال اخترم فلان بالبناء للمفعول : مات واخترمته المنية : أخذته كتخترمته .

(٣) عزمت على الخ : أى عزمت على أن أؤدى صدقه عن كل شخص حضر وليمتك حتى أدفع عنهم السوء ، لأنهم حضروا طعاما كان غيرهم أحقّ به .

(٤) وتكون سببا : وتكون أنت بدفعى إلى هذا العمل سببا لتخلف الناس عنك، لأنهم لايقدمون على طعام رجل يقصرفى دعوة من تجب دعوته .

(٥) أخرى الليالى : يقال لا أفعله أخرى الليالى أو أخرى المنون أى أبدا .

(٦) فقال : أى العباس للفتى .

منزله ، وقد كان أَمَرَ الفتَى[١] ألّا يبرَحَ منه ، فأدخله إليه ، وقال : فيم تَهَشُّ إليه من التِجارة ؟ فقال فى صناعة الأَنْماط[٢] فإنها صِناعةُ أسلافنا ، ومَنْ بها يَعرِفُ حقوقَنا ، فدعا برجلٍ منهم حَسَنِ اليَسار فأخرج إليه الألفَ الدينار التى أخذها ، فقال : هـذا المـالُ لهذا الفتَى فليُكْن فى دُكّانِكَ ، واشتَرِ له بها ما يُصْلِحُه من المَتاع وبصِّره به. ثم قال للفتَى : احذَرْ أنْ تُنفقَ إلّا مِنْ رِبْحٍ ! فانصَرف الفتَى وقد رُدَّ عليه سَتْرُه .

فحَلَف لى أحمدُ بنُ أَيْمَنَ : أنّ بضاعتَه ثُمِّرَتْ[٣] وأرباحَه اتّصلَتْ وعامَلَ السلطانَ ، ودخل فى جملة التجار وجِلّتِهم .

* * *

---

(١) وقد كان أمر الخ : حينما ركب فى طلب خمسمائة الدينار الأخرى .

(٢) الأنماط : جمع نمط : ظهارة الفرش وضرب من البسط .

(٣) ثمرّت : فى الأصل تثمرت ، وهو تحريف .

وحدّثنى أحمدُ بنُ أبى عِمْرانَ عن مُسْلِمِ بنِ أبى عُقْبَةَ عن أبيه عُقْبَةَ ، (وكان عُقبةُ هذا مُصادِقا لأبى يُوسُفَ القاضى وتِرْباً [١] له) ، قال :

كان أبو يُوسُفَ قد انقطع إلى أنحاءِ الفِقهِ فأحسن القولَ عن أبى حَنيفة [٢] وكانت زيادتُه فى العلم ، بمقدار نُقْصانه فى الرزق ، وكان كُلُّ من يستعرضُ حالَه بالكُوفة ، يُشير عليه [بالنزوع] إلى بَغْداد ، ويَرَى أبو يُوسُف صوابَ ما يُشار به عليه فيُقْعِدُه نقصانُ حالِه عن المَرْكَبِ الفارِه [٣] ، واللُّبْسةِ التى تُشْبِه مَنْ حَلّ [٤] مَحلّه من العلم ، ونُزِعَ [٥] إليه من أقصَى النواحِى .

وكان له غلامٌ كان لأبيه ، حاذقٌ بِعملِ الجَواشِنِ [٦] والدُروع وكثير مما يُحْتَاج إليه من آلةِ الحرب . وكان يأتيه فى كلِّ شهر بما يقوتُه

---

(١) تربا له : ولد معه ، قاربه فى السن .

(٢) هو النعمان بن ثابت التيمى بالولاء الكوفى إمام الحنفية الفقية المجتهد المحقّق أحد الأئمة الأربعة ، توفى ببغداد سنة ١٥٠

(٣) الفاره : المليح الكريم .

(٤) تشبه من حلّ : تليق بمن حلّ الخ .

(٥) ونزع إليه : ومال الناس للأخذ عنه وقصدوه .

(٦) الجواشن : جمع جوشن وهو زرد يلبس على الصدر لوقايته فى الحرب .

فى حاضرة الكوفة ولا يُعنيه على حَضْرة السلطان . فرغب الغلام فى عاملٍ [١] للمهدىّ علَى الكوفة [٢] (قد ذهب علىّ اسمُه) . فطلَبه من أبى يُوسُف (وهو يومئذٍ من أصاغر رعاياه) فباعه منه بتسعين دينارًا ، وخرج عند ذلك إلى بَغداد . فارتاد دابّة وثياباً .

وكان لعبد الله بنِ القاسم الغَنَوىّ أحدِ أصحاب الأعمش [٣] محلٌّ من المهدىّ ، ولم يكن فى المجالس التى تنعقد ببغداد فى الفِقْه أجلُّ من مجلِسه . فدخل أبو يُوسُفَ مع كافّة مَنْ دخَل من غير تسليم على عبد الله ، ولا مقدِّمةٍ لحضور مجلِسه . وكان أبو يُوسُفَ حَسَنَ الصورة ، جميلَ الإشارة ، لطيفَ التّخلُّص والاحتجاج ، فَقبِلَه قلبُ عبد الله ، ولم يعرفه .

---

[١] فى عامل : فى خدمة عامل .

[٢] الكوفة : كانت مدينة العراق الكبرى وهى قبة الإسلام ودار هجرة المسلمين ، يقال إن أوّل من مصّرها سعد بن أبى وقاص .

[٣] هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدىّ ، تابعىّ مشهور ، أصله من بلاد الرىّ ، وكان عالمـا بالقرآن والحديث والفرائض ، توفى بالكوفة سنة ٢٤٨ هـ .

(الأعلام جزء ١) .

وجرت مسائلُ وأجوبةٌ، كان حظُّ القياس فيها مُقَصِّرا، وكان الاحتجاجُ علَى ظاهر القول [١] . فتكلّم أبو يُوسُفَ فيها فأحْسَنَ الاحتجاجَ وجوَّد ، وأعانه علَى هذا طُولُ لسانه ، وحسنُ بيانه ، ثمّ سألهم فقصَّروا عن الجواب ، فأبان عدولَهم [٢] برفق . فلما تقضّى المجلِسُ عاتبه عبدُ الله علَى تخلُّفه عنه ، أو تعريفه مكانَه ، وسأله أين نزَل، فأخبره . فرغِب له عن الموضع الذى سكَنه ، ودعاه إلى منزلٍ بالقرب منه . وقرّر خبرَه عند أبى عُبَيْدِ الله كاتبِ المهدىّ ، فوصَلَه بالمهدىّ وأسنَى رِزْقَه . ثم قرَنه بالهادِى فأقام معه مدّةَ أيامه ، وبلغ مع الرشيد ما لم يبلُغْهُ عالمٌ بعلمه ، ولا محبوبٌ بمرتبته .

* * *

---

(١) كان حظ القياس الخ : القياس فى علم الأصول هو إلحاق شىء بشىء فى الحكم لمشابهة بينهما، وكان أصحاب أبى حنيفة أصحاب استنباط وقياس. يقول إنّ المناقشة كانت تدور حول ظاهر النصوص، وكان حظ القياس والاستنباط ضعيفا.

(٢) عدولهم : أى عن الصواب .

وحدّثنى علىُّ بنُ سَنَدٍ (وكان انقطاعهُ فى أيام الموفّق والمعتَضد [١] إلى أحمدَ بنِ محمدِ بنِ بِسطام) وكان آل عبيدِ اللهِ بنِ وَهْبٍ يحقِدون [عليه] سوالفَ [٢] مُنكَرَةً . (ولم يكن مع عُبَيْدِ الله من سوء المُباداة [٣] ما مَعَ القاسم ابنِه [٤]) . فلما حُبِسَ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ بِسطام قبِضَ علينا معاشرَ خلفائِه فى الأعمال ، وأُثبِتنا فى جَريدةٍ [٥] . وتُقُدِّم لإحضارنا إلى داره ، فيئِسنا من الحياة .

وقال لى علىُّ بن سَنَد : فلم يكن فى جماعتنا أضعفُ حالًا منّى ، ولا أقلُّ ناصرًا . فرأيتُ الموتَ ، وحُمِلْنا إليه ، وقد أحضَرَ الجلّادين والسِياطَ

---

(١) المعتضد : هو أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أحد الخلفاء العبّاسيّين ، بويع بالخلافة بعد وفاة عمّه المعتمد سنة ٢٧٩ ، وكان شجاعا ذا عزم مهيبا . وفى المؤرخين من يقول : قامت الدولة العبّاسيّة بأبى العبّاس وجدّدت بأبى العبّاس ، يريدون السفّاح والمعتضد . توفى ببغداد سنة ٢٨٩ هـ .(الأعلام جزء ١) .

(٢) سوالف : أمورا حصلت منه .

(٣) سوء المباداة : يقال بادى بالعداوة : جاهر بها .

(٤) هو القاسم بن عبيد الله وزير المكتفى . كان شاعرا وكان قليل الخبرة بأمور السياسة ، و إنما استوزره المكتفى لأنه أخذ له البيعة وحفظ عليه الأموال . توفى سنة ٢٩١

(٥) جريدة : قائمة تدوّن بها الأسماء .

والموكّلين بالمَعابر[١] . قال : فقُدِّم منا رجلٌ من جلّة أصحاب أحمدَ بنِ بِسطام فضُرِب، وأُخذَ خطُّه بما أعلم أنه لا تَصل إليه يدُه، وبين يديه رجلٌ، ظهرُه إلينا، لا نعرِفُه . فلما فَرَغ [من] أمْره ، سمِعْتُ الذى بين يديه ، وهو يقول : هَنْبى عارفتَك [٢] ، فقال : ذَرْهُ حتّى يرَى عِظَمَ ما سَلِم منه بك[٣] . فقال : هو يراه غدًا [٤] . فقال القاسم : سلِّموا علىَّ بنَ سَنَدٍ (لا رعاه اللهُ) إلى صاحبه أبى الجيش ثابتٍ . فرأيتُه، وقد قبَّل يدَه، ورُدَّت علىّ الحياةُ بشفاعته، وأُطْلِقتُ من غير مُصادرة ولا عُقوبة . فلمّا رجَع ثابتٌ إلى مكانه، وسار بى رسولُ القاسم إليه، قال لى : مرَّ بى اسمُك فى الجَريدة فاستوهبتُك لأنّ أباك كان من إخوانى فجزَّيته[٥] الخيرَ على رِعايته والدى فىّ .

* * *

---

(١) بالمعابر : جمع معبر كمنبر، وهو ما عبر به النهر (القارب) ولعلهم كانوا بعد تعذيب المحكوم عليهم يقذفونهم فى النهر، ويجوز أنها محرفه عن المقابر أى إنهم كانوا يحضرون أصحاب المقابر لدفن من يموت بالتعذيب .

(٢) هبنى عارفتك : أى هبنى فضلا ومكرمة منك .

(٣) بك : بسببك :

(٤) غدا : أى حين يسمع بما جرى لأمثاله .

(٥) فجزّيته الخير : دعوت له بأن يجزى خيرا .

وحدّثنى محمدُ بنُ صالحٍ الغُورىُّ قال :

كانت لى بضاعة أعودُ بفضلها على شَمْلى [١] فافترقتُ فى مُعاملات فى الصَّعيد وخرجتُ إلى من عاملتُه فجمعتُها ، وكان مقدارُها خمسمائة دينارٍ . وخرجتُ أريد الفُسطاط فى رُفْقة كثيرة الجمع . فلمّا كان منتصَفُ طريقنا وافَى جمعٌ من الصعاليك فسلَب الناسَ جميعًا ، ودُهشْتُ ، فرأيتُ منهم شابًّا حَسَنَ الصورة . فقلت له : واللهِ ما أملِكُ غيرَ هذا الكيسِ فارْفَعْه [٢] لى عندك فقال : وأينَ بيتُك بالفُسطاط ؟ فقلت : فى دُور عبّاس ابنِ وَليد . فقال : ما آسمُك ؟ قلت : محمدٌ الغورىُّ . قال : امضِ لشأنك . وجاء منهم من قلَع ثيابى وسراويلى ، وانصرفوا عنّا ، ولم أزِدْ أن سوّغْتُ واحدًا منهم جميعَ ما كان [٣] معى ، ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجعَ كلُّ واحد منهم إلى ما تخلّف له ، وبَقيتُ ، ليس معى دِرْهَمٌ أُنْفِقُه .

وإنى لجالسٌ على دَرَجة المسجد [٤] بين المغرب والعِشاء الآخرة حتّى رأيتُ رجلًا قد وقَف بى فقال لى : هاهنا منزلُ محمدٍ الغُورىِّ ؟ قلت

---

(١) شملى : أهلى ومن أعول

(٢) فارفعه لى عندك : قصد بهذا التعبير أن يتملق اللص وأن يفهمه أنه يودعه المال لأنه فى الحقيقة كان يائسا من عودته .

(٣) سوّغت واحدا منهم الخ . سوّغته إياه : أعطيته إياه .

(٤) المسجد : مسجد عمرو بن العاص .

أنا هو ، ولا واللهِ ما اهتَديتُ إلى الرجل الذى أعطيتُه المـالَ ! لأنّه كان عندى أولَ مالٍ ذاهب[١] فقال لى : عنَّيْتَنى ! وأخرج الكيس فدفعه إلىّ فَرُدَّتْ علىّ جدَتى ، وتطعَّمْتُ الحياةَ . وكان بالقرب منا قائدٌ يُعْرَفُ بابن قَرا ، كنتُ معاملًا له ، وكان له مَحلٌّ[٢] . فسألتُ اللصَّ المبيتَ عندى ففعَل . فأصبحتُ وصِرْتُ إلى ابنِ قَرا وقصصت عليه قصّةَ الرجل . فقال لى : الُطف[٣] لى فيه ، فوالله لأُنوِّهَنّ باسمه ، ولأُكفأنّه عنك ! فرجَعتُ إليه فاخبرتُه . فوالله ماارتاع ، ولا اضطرب ! ومضَى معى . فأحسنَ تلقّيَه ، وخلَع عليه ، وصيّره سِيارةً[٤] لعمله وضمّ إليه عدّةً[٥] وافرة . ولم يزل فى حَيِّزه إلى أنْ تُوُفِّى

*
* *

---

(١) لأنه كان عنـدى الخ : لأنه كان فى اعتقادى أسبق مال إلى الضياع ، وذلك لليأس من الحصول عليه

(٢) محل : مكانة عظيمة .

(٣) الطف لى فيه : قدّمه لى فى لطف ورفق .

(٤) سيارة : مصدر سار ، يدل على حرفة ، ويظهر أن المراد به حسن السير بالبلد أو العمل ، وقد كان ذلك عملا من أعمال الشرطة ، وأطلقه هنا على العامل نفسه .

(٥) عدّة : تقرأ بضم العين وكسرها ، ولكل وجه .

حدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوبَ عن أبيه عن جدّه واضح . قال : كانت بين المهدىّ وأخيه جعفرِ بن أبى جعفرٍ[١] عداوةٌ فى أيام المنصور . وكان مَصْقَلةُ بنُ حبيبٍ ينقُل عنه إلى جعفرٍ ما يَكْرَهُ ، ولا يمكنُ المهدىَّ أنْ يسطوَ على مَصْقَلَةَ ولا يمسّه بسوء . فلمّا تولّى الخلافةَ نذَر دَمَه فاختفَى .

فحدّثنى مَصْقلةُ أنّه نبابه موضعُه الذى كان به فخرج مستتِرًا يريد غيرَه ، فلحقه رجل من أعدائه ، وصاح فى أصحاب الأرباع[٢] : هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين . فتسرّع إلىّ الشُرَطُ ورأيتُ الموتَ عياناً . فبينا أنا فى أيديهم اجتاز بى مَعْنُ بنُ زائدة[٣] فصحت به : ياسيِّدى ! يا أبا المُنْذر ! أجِرنى أجارك الله . فقال للشُرَط والرجلِ المتشبِّث بى : خَلُّوا عنه . فقال الرجل : ما ذا أقول لأمير المؤمنين ؟ قال : تقول له إنّه عندى . ثمّ أمَرَ بحملى على جَنيبةٍ[٤]

---

(١) مات فى حياة أبيه المنصور .

(٢) الأرباع : رؤساء الأقسام بالبلد الموكول إليهم حفظ الأمن بها . وهو جمع ربع (بضم فسكون) .

(٣) المعروف فى التاريخ أنّ معن بن زائدة قتله الخوارج بسجستان سنة ١٥١ وأنّ المهدىّ تولى الخلافة سنة ١٥٨

(٤) الجنيبة : الدابة تقاد إلى جنب الراكب .

من جنائبه، وسار بى إلى منزله، وقُدِّمَ طعامُه فأكلتُ معه ومع وَلَده.

فلمّا فرغنا من الطعام قيل له : وافَى رسولُ أمير المؤمنين ، فقال لولده : اقضُوا حقّى عليكم بألّا تُسْلِموا مَصْقَلَةَ ، فقد استجار بى . فحلَفوا له على ذلك وركِب . فلمّا رآه المهدىّ قال : تجيرُ علىّ يا مَعْنُ ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنينَ ! قال : ونعم أيضا ! قال : يا أمير المؤمنين ! قتلتُ فى دولتك زُهاءَ ثلاثين ألفِ عدُوٍّ ، ولا أستحقُّ أنْ أُجير فِيها عدوًّا واحدًا ؟ قال : نعم تستحِقُّ ذلك ، قد وهبناك دَمَه . فقال : يا أمير المؤمنين ! ليس هكذا يُنْعِمُ مثلُك بالحياة ، إذا تصدّقْتَ على أحد بحياته فاجعلْها فى خَفْضِ عيشٍ من نعمتك . قال : يُعْطَى ألفَ دينار، قال : يا أمير المؤمنين لا تستوِى جائزتُك وجائزةُ عبدِك مَعْنٍ ، هذا ما سَمَحْتُ له به . فقال : ادفعوا إلى جار مَعْن ألفَىْ دينارٍ .

فحملتُ معى إلى منزلى ثلاثةَ الآفِ دينارٍ وأمِنْتُ علَى نفسى .

*
* *

وحدّثنى رَبيعةُ بنُ أحمدَ بنِ طُولون[١] . قال : لما تُوُفِّى خُمارويه قَبَضَ علىّ وعلى مُضَرَ وشَيْبانَ[٢] ابنى أحمدَ بنِ طُولون ، جَيْشُ[٣] بنُ خُمارويه ، وحَبَسَنا بدِمَشْقَ . فلمّا قَفَل إلى مِصْر حَبَسَنا فى حُجْرة من المَيْدان معه ، وكانت لنا فى كل يوم مائدةٌ نجتمع عليها . وكان فى الحُجْرة رِواقٌ وبيتان ، وجلوسُنا فى الرِواق ، فوافَى خَدَمٌ له فأدخلوا أخانا مُضَرَ فى البيت ، وأغلقوا عليه البابَ . فانفصل عنّا ، وكانت المائدةُ تُقَدَّم إلينا ونُمْنَعُ أنْ نُلْقِىَ إليه منها شيئا . فأقام خمسة أيام لا يَطْعَمُ ولا يستغيث . ثم وافانا ثلاثةٌ من أصحاب جَيْش . فقالوا : مامات أخوكم بعدُ ؟ فقلنا : ما نسمَع له حِسًّا ، ففتحوا البابَ فوجدوه حيًّا ، ورام القيام

---

(١) نفى إلى الاسكندرية حينما ولى هارون بن خمارويه ، ثم كاتبه أهل مصر يطلبون إليه الحضور ليتولّى عرش مصر ، فسبق جيشَه ، فما يشعر الناس إلا وهو بالجبل المقطم ، وكان يطمع فى أن ينضم إليه الناس فلم يفعلوا ، فأخذ يقاتل وحده حتى كلّ وتكاثرت عليه الجنود فاعتقل ، وضرب بالسياط حتى مات سنة ٢٨٤

(٢) ولى أمر مصر بعد قتل هارون بن خمارويه سنة ٢٩٢ ولم يستقم له الأمر فبعث إليه محمد بن سليمان يؤمّنه على نفسه وأهله ، فذهب إليه ثم فرّ تحت ستار الليل ، وبه انتهت الدولة الطولونية .

(٣) ولى مصر بعد قتل خمارويه سنة ٢٨٢ وكان سيئ السيرة ضعيف السياسة فخرج عليه كبار قوّاد دولته ، وقتل سنة ٢٨٣

فلم يصل إليه . ورماه الثلاثةُ بثلاثةِ أسهم فى مقاتله فطفا[١] . وكانت الليلةُ التى دخلوا فيها ليلةَ جُمُعَةٍ ، وأخرجوه وأغلقوا البـاب علينا . وأقمنا يومَ الجُمُعَة والسبتِ فلم يُقَدَّمْ إلينا طعامٌ . فظننّا أنّهم يسلُكون بنا طريقَه . فلمّا كان يومُ الأحد سمِعنا رجَّةً فى الدار ، وفُتِح بابُ الحُجْرة ، وأُدْخِل إلينا جَيْشُ بنُ خُمارويه ! فقلنا : ما خبرُك ؟ فقال غلَب أخى علَى أمرى ، وتولّى إمارَةَ البلد هارونُ بنُ خُمارويه [٢] . فقلنا : الحمدُ لله الذى قَبَضَ يدَك ، وأضرعَ[٣] خدَّك ! فقال : ما كان عزمى إلّا أن أُلحِقَكما بأخيكما .

وأنفذ [هارون][٤] إلى جماعتنا مائدةً ، فلمَّا طعِمْنا بعَث إلينا خادما : أنَّ جَيْشًا كان قد عَزَم على قتلكما كما قتل أخاكما فاقْتُلاه وخذا بثأْرِكما منه وانصرِفا على أمان . وبعَث إلينا خَدَمًا فتسرَّعوا إليه فقُتِل .

وانصَرفنا إلى منازلنا وقد كُفِينا عدُوَّنا .

*
* *

---

(١) طفا : مات .

(٢) ولى مصر سنة ٢٨٣ وهو صبىّ ، والأمر كله مردود إلى ابن أبالى ، ثم خرج لقتال محمد بن سليمان فانهزم بتنيس وتفرق عنه جنده ، فدخل خيمته عليه عماه شيبان وعدىّ وقتلاه سنة ٢٩٢

(٣) أضرع : أذل .

(٤) زيد ما بين القوسين ليتسق نظام الكلام .

وحدّثنى منصورُ بنُ إسماعيل [١] الفقيهُ . قال :

خرَج رجل نعرِفه بتجارة ، قصدُه إلى الهند. فرجَع إلينا بأنواعٍ من الطِيب كثيرةٍ لها قيمةٌ خطيرةٌ ، وهو فى نهاية السرور . فقلنا له : كم ربِحَت التجارة التى خرجت بها من عندِنا ! فقال :

غرِقتُ وسائرُ مَنْ كان معى ، فسلِمتُ بُحشاشة [٢] نفسى فى جزيرة من جزائر الهند . فتلقّانى قومٌ فيها وجاءوا بى إلى مَلِكهم . فقال لى : قد نفِدت المَوْهِبَةُ [٣] الخارجةُ عنك فما معك من المَوْهبَة الثابتةِ عليك؟ قلتُ: معى الكتابُ [٤] والحسابُ . فقال الملك : ما بَقِىَ لك أفضلُ من الذى ذهب منك ! والصوابُ أنْ تُعَلِّم ابنى الكتابَ بالعربية والحسابَ ، فأرجو أن نعوِّضك أكثرَ مما [فقدتَه] . وسلَّم إلىّ من ابنه أذكَى صبىٍّ وألطفَه . فتعلّم فى مدّة يسيرة ما يتعلَّمُه غيرهُ فى مدّة طويلة .

---

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى ، فقيه شافعى أصله من رأس عين الجزيرة وقد رحل إلى مصر وسكنها إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ . (الأعلام ج ٣)

(٢) حشاشة : الحشاشة بقية الروح فى المريض والجريح ونحوهما .

(٣) الموهبة الخارجة عنك : يريد الموهبة الزائلة وهى المال .

(٤) الكتاب : الكتابة .

فلمّا رأى أنّه قد توجّه [١] واستحققت منه الإحسانَ ، صار إلىّ صاحبُ الملك . فقال : معى هدّيةٌ من المَلِك إليك . وأدخل إلىّ بقرة فَتِيّةً . ثم قال : أدفعُها لك إلى الراعى ؟ فقلت : افعَلْ . وصغُر فى عينى أمرُ المَلِكِ على عِظَمِ شأنه . فما مضَى زمنٌ قصير حتى جاء الراعى فقال : ماتت البقرة . واستقبلنى كلُّ خاصّة المَلِكِ بالتّغَمْغُم [٢] . ثم ظهر فى ابنه تزيدٌ [٣] ، فبعَث إلىّ ببقرة فتيّة أخرى فرددتُها إلى الراعى . فما مضت مدّة يسيرة حتى وافَى يبشّرُنى ، فقال : قد حَمَلت البقرة . فلمّا انتَهَى حملُها وضعتْ ، فهنّأنى حاشيةُ المَلِك بأسْرِهم . ثم جلَس المَلِك مجلِسًا عامًا ، وأحْضَر التجارةَ التى رأيتموها معى . ثم قال :

" لم يذهب علىّ ما يجبُ لك فى تعليم ابنى ، ولم أبعَث بالبقرة الأولَى لفضلِ البقرة عِندى ، ولكنْ نزلتْ بك مِحْنَةٌ فى البحر أتَتْ علَى مالِك

---

(١) توجه : أى توجه إلى ما وجهته إليه من صنوف العلم .

(٢) التغمغم : الهمس والكلام الذى لا يبين الدالّ على السخط والتذمر . وفى الأصل : التغمم ، وهو تحريف .

(٣) تزيد : تقدم فى العلم .

فامتحنتُ بالبقرة ما أنت عليه منها [١] . وعلِمْت أنّى لو أعطيتُك جميعَ ما ملكتْ يدِى ، وقد بَقِىَ منها [٢] شىءٌ لضاع منك ، وهلَك لديك . فلما أُخْبِرْتُ أنّها ماتت علِمْتُ أنّك فيها [٣] . ثم امتحنتُ أمرَك بالبقرة الثانية فلما أُخْبِرْتُ أنّها قد حمَلَتْ علِمْت أنّها قد انحسرتْ عنك . فسُرِرْتُ لك بذلك . واستظهرتُ [٤] بانتظار الولادة . فلمّا ولدتْ شخصًا كاملًا صحيحَ الأعضاء علِمْتُ أنّك قد فارقتَ مِحْنَتَك . وهذا ما أعدَدْتُهُ لك . ثمّ وَصَلَنى بطِيبٍ قَوّمْتُهُ بعشرينَ [٥] ألفَ دينارٍ . وحمَلَنى فى البحر فسلِمتُ ، وزاد بأرض العرب ثمنُه على ماقوّمتُه .

قال منصور : فرأيتُهُ قد أيسر بعد الخَلّةِ [٦] والتلفيقِ [٧] فى المعاش .

* * *

---

(١) ما أنت عليه منها : حالك من حيث اتصافك بالمحنة ألا تزال عالقة بك أم فارقتك ؟

(٢) وقد بقى منها : من المحنة .

(٣) فيها . فى المحنة ، لم تتخلص منها .

(٤) استظهرت : استوثقت

(٥) فى الأصل : قومته عشرين .

(٦) الخلة : الحاجة .

(٧) التلفيق فى المعاش : جمع الرزق من طرق متعددة ، لأن طريقة واحدة لاتقوم بصاحبها .

وحدّثنى أبو محمد يحيى بنُ الفَضْل . قال : اختفَى عند والدى كاتبٌ للفَضْل بنِ [١] يحيَى بنِ برْمَكَ عند إيقاع الرشيد بهم . وكان يواصل البكاءَ عليهم، ولا يسمَع الوعظَ فيهم . فقال له أبى : أنا أرجو أنْ يخلُف اللهُ عليك ولا يُضيعَك ! فقال : واللهِ ما بكائى لما فاتنى منهم ، وإنّما بكائى لجلالة أخطارهم ، ونفاسة أقدارهم ، ولقد كان لصاحبى [٢] فى الجُمعَةِ السالفةِ ما لم أسمَعْ بمثله لقديمٍ ولا حديثٍ: قال لى : قد كَثُرَ الزُّوّار [٣] علينا فانظر مقدارَ ما انصرف وارفَعْ إلىّ عدّةَ مَنْ بقِىَ من الزُّوّار لأتقدَّمَ فى بِرِّهِمْ ، واحذَرْ أنْ ترفَعَ إلىّ رجلًا من أهل الشام،لأنّه كان يتشيّعُ [٤] . فخرجتُ فألفَيْتُ من فَضَل عن المنصرفين أربعةً وثلاثين رجلًا . وجاءنى رجلٌ من أهل الشام

---

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكىّ وزير الرشيد العباسىّ وأخوه فى الرضاع ؛ استوزره الرشيد مدة ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ هـ . ولمّا فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ . قبض عليه وسجنه بالرقة إلى أن توفى فى سجنه سنة ١٩٣ : (الأعلام جزء ٢) .

(٢) لصاحبى : للفضل بن يحيى .

(٣) الزوّار : المجتدون وطلّاب الحاجات .

(٤) لأنّه كان يتشيّع : يرى رأى الشيعة وهم أصحاب علىّ بن أبى طالب . وكان الفضل يبغض أهل الشام لأنهم خذلوا عليا ونصروا معاوية .

كاملُ الأدب ، ظريفُ الشاهد ، فأعلمْتُه ما تقدّم به إلىّ[١] .

فقال : يا أخى ! أسألُك أنْ تغالِطَ بى وتُثْبتَنى فى وَسَط الجريدة ! ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثمّ قال : ألم أتقدَّمْ إليكَ ألّا يكونَ فى الجريدة شامىٌّ ؟ فقلتُ : وأين الشامىُّ ؟ فوضَع (شهد اللهُ) يدَه على اسمه وحلّق . ووقّع بيده لكلِّ واحد غيرَ الشامىِّ ، فما قصَّر بأحدٍ عن مائةِ دينار ، وأمرَنى بإطلاقها وإنفاقها فيهم . فجلستُ أفرِّقها ، ووافَى إلىّ الشامىّ فأريْتُه اسمَه خالياً ، وحدّثْتُه حديثَه . فقال : لو قُضِىَ شىءٌ لكان ! وأحسن اللهُ جزاءك على ما قدّمْتَه من العناية بى ! وانصرف . وقد غمّنى أمرهُ ولم يبقَ فى الزُوّار أحدٌ حتى أخَذَ .

فأنا فى منزلى قريباً من نصف الليل حتّى وافانى رسولُه[٢] ، فصِرْتُ إليه ، فقال : أوَيْتُ الساعةَ إلى فِراشى واستعرضتُ بفكرى شُغْلَ الزُوّار ، وما أمرتُ به لهم فحُسن عندى ، ثم قبّحه فى عينى حِرمانُ الشامىِّ المسكينِ ، ورأيته نقصاً فى مُروءَتى . فتقدَّمْ فى دفع مقدار ماوصل إلَى جماعة الزُوّار إليه . فقلت ياسيّدى ! وصل إلى جماعة

---

(١) ما تقدّم به إلى : ما أمرنى به الفضل بن يحيى .

(٢) رسوله : رسول الفضل .

الزُّوّار خمسةَ عَشَرَ ألفَ دينار ، وهذا يكفيه ألفُ دينار . فقال : والله ماتفِى ألفُ دينار بغمِّه ، وقد رأى غيرَه يأخُذُ ، وقيامِه عنك محـــرومًا . قُمْ فادفَعْ إليه الخمسةَ عَشَرَ ألفـاً ؛ ولا تعذِلْنى ، فالخطأ فى الجميل أحسنُ من الصواب فى القبيح ؛ وليس يَشْكُرُ الناسُ من البِّر إلّا ما أفرط ، فأمّا مابلَغ الحاجةَ فمنسِىٌّ عند أكثرهم ، والواجبُ على مَنْ آثَرَ جميلَ الذِكر أنْ يتَغَنَّمَ أيامَه ، ولا يسوِّفَ بشىء من فعْله .

قال أبو محمد : فبكَى والله أبى عند هـذا الفصل من حديثه حتّى خِفْتُ عليـه . وقال : ما أجهلَ الناسَ بقدرِ ما فقدوه من هـذا الرجل !

قال الـكاتبُ : فخرجتُ وبثثتُ الرُسُـلَ فى طلب الشامىِّ حتّى وجدوه ، فوافانى وقد انحطَّ أكثرُ لحمِه فى يوم واحدٍ . فقصصتُ عليه القصَّةَ فحمِد الله وأثنَى عليه ، وشكَرَنا جميعا ، وقبَض المالَ وانصرف على أحسنِ حال .

*
* *

وسمعتُ يوسُفَ بنَ إبراهيمَ والدى . وهو يقول :

كانت بينى وبين أحمدَ بنِ محمّد بنِ مُدَبَّر سوالفُ [١] تُرْعَى ويُحافَظُ عليها، فلمّا تولّى مِصْرَ رأَى حُسْنَ ظاهرى فظنّ ذلك عن أموالٍ جَمَّةٍ لدىّ . فجدَّ بى فى المُطالبة ، وأخرج علىّ بقايا لعقودٍ آنكسرتْ [٢] من آفاتٍ عرضَتْ لِضياعِها ، ولم يسمع الاحتجاجَ فيها ، واستقصر ما أوردتُه و[ظنّ] أنّ ما كان عن حِيلةٍ [٣] . فاحتبسنى مع المُتَضَمِّنين [٤] . فكان يغدو فى كُلِّ يوم غلامٌ له يحجُبُه [٥] يُعْرَفُ بفَضْل ، فيكتُب علَى كلِّ رجل ما يؤديه فى يومه ، فإن شكا أنّه لا يصل إلى شىء أخرجه فحُمِلَتْ عليه الحجارةُ وطُولب أعنفَ مُطالبةٍ، فلم يزَلْ بى إلحاحُه حتّى بِعْتُ حُصُرَ [٦] دارى فضلًا عمّا فيها، وعرَضْتُ دارى فمنعنى من

---

(١) سوالف : صلات قديمة .

(٢) انكسرت : لم يؤدَّ كل ما قرر فيها من مال السلطان .

(٣) وظنّ الخ : أى إنه ظن أن الذى حصل من إصابة الضياع بالآفات والعجز عن أداء مالها للسلطان إنما كان احتيالا لا حقيقة واقعة، فيكون الجار والمجرور (عن حيلة) خبر أنّ .

(٤) المتضمنين : الضامنين لأموالٍ هى ديون عليهم للدولة .

(٥) يحجبه : يؤدى عمل الحجابة له .

(٦) حصر : مفرده حصير .

بيعها ، ووجّه إلىّ : فأين يكونُ حَرَمُك ؟ فوافانى كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى : يشهَد اللهُ أنّا مانصل لك اليومَ إلَى ما يُقيمك فضلًا عن شىءٍ تُؤَدّيه ! وأمسك فَضْلُ غلامُه عن الدخول فى ذلك اليومِ علينا وتعرُّف مايُؤَدّيه كلُّ واحد منا ، فلمّا صَلَّيْتُ الظهر من ذلك اليوم أنفذ إلىّ توقيعًا ، نُسْخَتُه :

"يا أبا الحسنِ أعزّك الله . قد ألويتَ[1] بما بقِىَ عليك ، وهو سبعةَ عَشَرَ ألفَ دينار ، وآثَرْنا صيانتَك عن خُطَّة المُطالبة هذه المُدَّةَ . فإن أزحتَ[2] العلّةَ فيها وإلّا سلّمناك إلَى أبى الفوارس مُزاحِم ابنِ خاقانَ[3] (أيّده اللهُ) وسبّبْتُ به عليك لأصحابه[4]" .

فكتبتُ إليه رُقْعَةً أَحْلِفُ فيها إنى ماأملك عدَدَ هذا المال حبَّ حِنطةٍ ، ولوكان لى شىءٌ لصُنْتُ به نفسى . فانْ رأى السيِّدُ رعايةَ

---

(١) الويت : مطلت .

(٢) أزحت العلة فيها : أزلت علّة المطالبة وهى المطل .

(٣) ولى مصر فى عهد المعتزّ بالله وتوفى بها فى المحرم سنة ٢٥٤ وكانت ولايته على مصر سنة وعشرة أشهر و يومين ، وكان من المتشدّدين فى الدين ، وهو أخو الفتح بن خاقان (النجوم الزاهرة) .

(٤) وسبّبت به عليك لأصحابه : وحوّلت ما عليك من المال إليه ليطالبك به أصحابه .

السالف بينى وبينه ، وسَتْرَ مُخَالِفِىَّ كان أهلًا لما يأتيه ، وإنْ سلَّمنى إلى هذا الرجل رجوتُ من الله عزّ وجلّ مَنْ[1] لا يُخْطئُ مَنْ رجاه .

فرجَع إلىّ بعضُ غلمانه ، ومعه رُقْعَةٌ مختومةٌ ، فاستركبنى وسار بى إلَى مُزاحِمٍ . فلمّا قُرِئَتْ عليه الرُّقْعَة أدخَلَنى إليه ، وعنده كاتبٌ له يُعْرَفُ بالمَرْوَزِىِّ ، فعَرَفنى مزاحمٌ ولم أعْرِفْه . وكان أبوه فى الحارة التى فيها دار أبى بِسُرّ مَنْ رَأَى[2] وربّته أمُّ أمرأةٍ لى تُعْرَفُ بمَيْمُونةَ مولاةِ أمِّ محمّدٍ بنتِ الرشيد ، ولاعلمَ لى بشىءٍ من هذا . فقال : أنت كاتبُ إبراهيمَ بنِ المهدى ؟ فقلت : نعم ، أيّد الله الأمير ! قال : كنتُ أراك ، وأنا صبىٌّ فى حارتنا ، ووالله ماطلَب ابن المدبَّر أن يُرَوِّجَ علىَّ[3] مالًا . وإنما أراد أنْ أقتلَك بالمُطالبة . وقد قَبِلْتُ التسبيبَ[4] ، ورأيتُ أنْ أكتُب إلى أمير المؤمنين أُعَرِّفُه رُزُوحَك[5] وقُصورَ يدِك

---

(١) فى الأصل : ما .

(٢) مدينة بناها المعتصم سنة ٢٢٠ و بقيت حاضرة الخلافة العباسية نحو سبعين سنة .

(٣) يروّج علىّ : روّج الشىء : عجله .

(٤) التسبيب : الحوالة .

(٥) رزوحك ؟ الرزوح السقوط إعياء أو هزالا . والكلام على المجاز .

عن هـذا المـال . فإن سَهُل وإلّا نجّمَـه علىّ وعلَى رجالى حتّى يُقَاضَوْا به[١] فى كلّ نَجْم . ثم قال للمَرْوَزِىّ : هذا رجلٌ من مشايخى، وأمُّ زوجته ببغدادَ تولّت تربيتى ، وقد استكتبتُه[٢] علَى أُمورى وما أحتاج إلى قَبالته[٣] من الضياع بمصر . وليس يُزِيلُك عن رَسْمك . وأخذ خاتَمـاً قد كان يُختَمُ به الكُتُب بحضرته فأعطانيه ، وسألنى عن العجوز التى ربّتْه . فقلت : هى بمصر معى . وانصرفتُ من عنده إلى منزلى . فكان أوّلَ منْ هنّأنى بمَحَلّى منه ابنُ المدبّر . ورجَعَتْ إلىّ نعمتى معه فى مدّة يسيرة .

* * *

وحدّثنى أبو كامل شجاعُ بنُ أَسْلَمَ الحاسبُ[٤] . قال :

كان إبراهيم بنُ الأعجمىّ المهندسُ قد تقاصرت يَدُه، واختلّت حالُه، فتكلّم علَى شكل من أشكال الهندسة، ورَفَعه إلى مَن أوصله إلَى

---

(١) يقاضوا به : يطالبوا به .

(٢) استكتبته : جعلته كاتبا .

(٣) قبالة : القبالة هنا الانتفاع بأرض الدولة فى مقابل جزء من غلّتها .

(٤) كان مصريا وكان عالم زمانه فى علوم الرياضة ، تخرج عليه كثيرون ، وله مصنفات جليلة (أخبار العلماء للقفطى) .

المأمون . قال أبو كاملٍ : فحدّثنى سَنَدُ بنُ علىٍّ[١] فقال : سأل المأمون محمدًا وأحمدَ ابنَىْ موسَى بنِ شاكر المنجّم[٢] عن منزلة إبراهيم بنِ الأعجمىّ فى الهندسة فقالا : منزلةٌ ضعيفةٌ، وفيه عاميّة . فقال المأمون للسِندىّ بن شاهَك أحضِرنى إبراهيمَ بنَ الأعجمىّ . فلمّا أحضره ووقف بين يدَى المأمون تهيّبَه فلم تَبْدُ منه كلمةٌ . قال: فرأيتُ انقطاعَه[٣] قد سَرّ ابنىْ موسَى، وقالا للمأمون : قد عرّفنا أمير المؤمنين أنّه ليس بمحَلٍّ مَن يدخُل إليه . فقلتُ يا أمير المؤمنين: لولا أنّك تَبْسُطُنا بمناجاتك والمواظبةِ عليها لكنّا بمنزلة إبراهيم فى الانقطاع من كلامك . فأمّا تقصيرُ هذين به فى الهندسة فإنّى أُشْهد سيّدى أميرَ المؤمنين أنّى من بعض تلاميذه، وعليه ابتدأتُ قراءةَ الهندسة . فأمر بإيصاله إليه مع خاصّته وأجرَى عليه ما وَسِعَه .

---

(١) المنجّم المأمونىّ، فاضل خبير بتسيير النجوم وعمل آلات الأرصاد، وكان يهوديًا وأسلم على يد المأمون .

(٢) موسى بن شاكر: عالم فى الهندسة هو و بنوه محمد وأحمد والحسن، وكانوا جميعا متقدّمين فى علوم الرياضة والهيئة وحركات النجوم وعلم الحيل والموسيقا .

(٣) انقطاعه : أى عن الكلام و إظهار مواهبه .

فقلت للسِندىّ : متى قرأتَ الهندسة[١] . فقال : امتعضتُ[٢] واللهِ فيما لحِقه من تعسُّف هذين الرجلين . فنزّلتُ[٣] هذا القولَ لأُرُدّ به الإصغارَ عنه . فصَلَحت حالُه ورجَع إلى أفضلِ ما كان عليه .

* * *

وحدّثنى [أبو كامل] شجاعُ بنُ أَسلَمَ الحاسبُ أيضا . قال : كان محمد وأحمدُ ابنا شاكر ، فى أيام المتوكّل ، يكيدان كلّ مَنْ ذُكِر [بالتقدُّم] فى معرفةٍ . فأشخصا سَنَدَ بنَ علىٍّ إلى مدينة السلام وباعداه عن المتوكّل ، ودبّرا على الكِندىّ[٤] حتى ضربه المتوكّلُ ؛ ووجّها إلى داره فأخذا كُتُبَه بأَسْرِها فأفرداها فى خِزانةٍ سُمّيَت الكِنديّةَ، ومكّن هذا لهما استهتارُ[٥] المتوكّل بالآلات المتحرّكة.

---

(١) متى قرأت الهندسة : أى على إبرهيم بن الأعجمى .

(٢) امتعضت : غضبت .

(٣) فنزلت : نزّلت الشىء أحللته، والمراد من نزلت القول وضعته واخترعته.

(٤) هو يعقوب بن إسحاق فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة وانتقل إلى بغداد فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقا والهندسة والفلك ، وألّف وترجم وشرح كتبا كثيرة يزيد عددها على الثمانية . توفى سنة ٢٦٠

(٥) استهتار : الاستهتار شدة الولوع .

وتقدّم[١] إليهما فى حَفرِ النهر المعروف بالجعفرىّ . فاسندا أمرَه إلى أحمدَ[٢] بنِ كَثير الفَرْغانىّ الذى عمِل المقياسَ[٣] الجديد بمصر (وكانت معرفته أوفَى من توفيقه، لأنّه ما تمّ له عملٌ قطُّ) فغلِط فى فُوَّهةِ النهر، وجعَلها أخفضَ من سائره . فصار ما يَغْمُرُ الفُوَّهَةَ لا يغمُر سائرَه . فدافع محمد وأحمد ابنا شاكر فى أمره. واقتضاهما[٤] المتوكّلُ، فسُعِىَ[٥] بهما إليه فيـــه . فأنفذ مُسْتَحِثًّا فى إحضار سَنَدِ بنِ علىٍّ من مدينـة السلام، فوافَى، فلمّا تحقّق محمد وأحمد ابنـا شاكر أنّ سَنَدًا قد شخَص أيْقَنا بالهلَكَة ويئِسا من رَوْح الحياة .

---

(١) وتقدم إليهما : أمرهما المتوكل .

(٢) فى تاريخ ابن خلكان أن الذى أنشأ المقياس أحمد بن محمد الحاسب القرصانى (ولعل القرصانى محرفة عن الفرغانى) ثم وصف ابن خلكان هذا المقياس وصفا دقيقا . انظر ترجمة ابن الرداد .

(٣) عمل المقياس الجديد : أمر المتوكل ببناء هذا المقياس سنة ٢٤٧ فى ولاية يزيد بن عبد الله وهو المعروف بالجديد (النجوم الزاهرة) .

(٤) واقتضاهما : وطلبهما ليحاكمهما .

(٥) فسعى بهما إليه : أى أحضرا إلى المتوكل للمحاكمة. وقوله (فيه) أى بسبب هذا الأمر أو بسبب ابن كثير وغلطه .

فدعا المتوكل سَنَدا . وقال [له] : ما ترك هـذان الرديئان شيئا من سُوء القول إلّا وقد ذكراك عندى به ! وقد أتلفا جملةً من مالى فى هذا النهر ؛ فاخرُجْ إليه حتى تتأمَّلَه وتخبرَنى بالغَلَط فيه . فإنّى قد آليتُ على نفسى إن كان الأمرُ على ما وُصِفَ أنْ أصلُبَهما علَى شاطئه . وكلُّ هذا بعينِ محمدٍ وأحمدَ وسَمْعهما ، فخرَجَ وهما معه .

فقال محمد [بن موسَى لسَنَد] : يا أبا أحمـد ! " إنَّ قدرةَ الحُرِّ تُذهب حَفيظته ! ، وقد فَزِعنا إليك فى أنفسنا التى هى أنفسُ أعلاقِنا ، وما نُنْكِر أنّا قد أسأنا — والاعترافُ يهدِم الاقترافَ — فتُخلِّصُنا كيف شِئتَ" . قال لهما : أنتما تعلمان ما بينى وبين الكِندىِّ من العداوة والمُباعدة ، ولكنّ الحقَّ أولَى ما اتُّبِع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخذِ كتبه؟ والله لا ذكرتُكما [بصالحةٍ] حتى تردّاها عليه ! فتقدّم محمدُ بنُ شاكر فى حَمْل الكُتُب إليه ، وأَخَذِ خطّه باستيفائها ، فوردت رُقعةُ الكِندِىّ أنّه تسلّمها عن آخرِها . فقال لهما : قد وجَب لكما علىّ ذِمامٌ[1] بردِّ كتب هذا الرجلِ ، ولكما علىّ ذِمامٌ بالمَعْرفة التى

---

[1] ذمام : حق وحرمة .

لم ترْعَياها[١] فيّ. والخطأ فى هذا النهر يَسْتَتِرُ مدّةَ أربعة أشهر، بزيادة دجْلَةَ. وقد أجْمَع الحُسّابُ[٢] علَى أنّ أميرَ المؤمنين لايبلُغ هذا المدَى، وأنا أُخبِرُه الساعةَ أنّه لم يقع خطأٌ فى النهر إبقاءً على أرْواحكما. فإنْ صَدَق المُنجّمون أُفْتِنا الثلاثةُ، وإنْ كذبوا وجازت[٣] مدّتُه حتّى تنقُصَ دِجْلَةُ وينضُبَ النهرُ أوقع بنا ثلاثتِنا.

فشكر محمد وأحمد هذا القولَ منه، واستتر الأمرُ واسترقّهما به، ودخَل إلى المتوكّل فقال [له] : ما غلِطا. وزادت دِجْلَةُ وأُجْرِىَ الماء فيه[٤]، واستَتَر حالُ النهر، وقُتِل المتوكّلُ بعد شهرين من إجرائه، وسَلِم محمدٌ وأحمدُ بعد شِدّة الخوف مما توقّعا.

* * *

---

(١) ولكما على ذمام بالمعرفة الخ : أى ولكما على حق بصله العلم التى تربطنا والتى لم ترعياها فىّ.

(٢) الحسّاب : المنجمون الذين يحاولون معرفة الغيب بالنظر فى النجوم وحساب مواقيتها وسيرها.

(٣) وجازت مدته : وتجاوز عمره المدة التى حدّدها المنجمون.

(٤) فيه : فى النهر.

وحدّثنى الحَسَنُ بنُ مُسْلِمٍ الأقْرِيطِشِىُّ (ورأيتُه بعد أنْ علَتْ سنُّه وبلَغ المـاَ سنةٍ . وكان صحيحَ التمييز ، سليم الحواسِّ) قال :

ألَحّ غزُونا علَى الروم ، ونالهم منـا مكروه عظِيم ، فوجد [١] متملكُ الروم من هـذا ، ونذَر أنْ يُخْرِبَ أقْرِيطِشَ [٢] ، ولو أنفق ذخائر مملكته ، فنظَر إلى راهب محبوبٍ تتعالَمُ الروم زهادَتَه . فأنزله من مُتَعَبَّده ، وضمّ إليه أكثَر جيوشه ، فوافَى جَمْعٌ لم يُحِطْ بأقْرِيطِشَ مثـلُه قط . ففزِعنا إلى غَلَق الحصْن ، وتسرَّع الروم إلى بناء مساكنَ لهم ، وخرجوا من المراكب ، وغلبونا على مِيرة البلد وما يكون فى جِواره ، واشتدَّ الحِصار ، ونَزَع السِعْر [٣] ، وتحلّق المـأكولُ [٤] ، وشاع الجَهْدُ ، ثم زادت المَكاره حتّى أكل النـاسُ ما مات من البهائم جوعًا ،

---

(١) وجد : حزن وغضب .

(٢) أقريطش : كريت ، جزيرة مشهورة ببحر الروم أول من غزاها جنادة ابن أمية الأزدى فى سنة ٥٤ فى عهد معاوية ثم غزاها حميد بن معيوف الهمذانى فى خلافة الرشيد ، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى سنة ٢١٢ إلى أن تملكها أرمانوس فى عهد المطيع سنة ٣٤٩

(٣) نزع السعر : أسرع فى الصعود ، يقال نزع الفرس سننا إذا جرى طلقا .

(٤) تحلّق المأكول ، يقال تحلّق ضرع الناقة : ارتفع لبنها ، فتحلّق المأكول : قلته وامتناع وروده .

وأجمعوا على أنْ يفتحوا البابَ له[١]. فقال لهم شيخٌ : إنّى قد أراكم قد حُرِمْتم التوفيقَ فى قوّتِكم وضعفِكم . والصوابُ أنْ تقبَلوا منّى ما أُشير به عليكم . قالوا : قل . قال : تَزَكَّوْا لله[٢] من قبيح ما يحمِلُكم عليه تظاهُرُ النعمةِ والسلامةِ ، وأخلِصوا له إخلاصَ مَن لا يجد فُرْجَةً إلّا عنده ، وافصِلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالَكم من نسائكم . فلمّا ميّزهم هذا التمييزَ صاح بهم : عِجُّوا[٣] بنا إلَى الله. فعجُّوا عَجَّةً واحدةً ، وبكَى الشيخُ وبكَى أكثرُ الناس. ثم قال : عِجُّوا أُخرَى ولا تشتغلوا بغير الله . فعجُّوا عَجَّةً أعظمَ من الأُولَى وبكَى الناس أيضا . ثم عجَّ الثالثةَ وعجَّ الناسُ معه .

وقال : تشرَّفوا[٤] من الحِصْن فإنّى أرجو أنْ يكونَ لله قد فَرَّج عنّا . فحلَف لى الحَسَنُ : إنى تشرّفتُ مع جماعة فرأيتُ الرومَ قد قوّضوا [رحالهم[٥]] وركِبوا مراكِبَهم . وفُتِحَ بابُ الحِصْن فوجدوا

---

(١) له : الضمير يعود على الجمع المحيط بالمدينة .

(٢) تزكوا : تطهروا وأصلحوا نفوسكم. وفى الأصل اتركوا ، وهو تحريف .

(٣) عجوا : ارفعوا أصواتكم .

(٤) تشرّفوا من الحصن : تشرّف المرء أو المكان العالى علاه ، وقد ضمّن الفعل معنى تطلعوا .

(٥) رحالهم : مساكنهم .

قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم . فقالوا : كان عميد الجيش بأفضلِ سلامةٍ إلى اليومِ حتّى سَمِعَ ضجّتَكم فى المدينة ، فوضَع يَدَهُ على قلبه وصاح : " قلبى قلبى " . ثم طَفا [1] . فانصرَف من كان معه إلى بلد الروم .

وخرَجْنا عن الحِصْن فوجدنا فى تلك الأبنية من القمح والشعير ما وَسِعَ المدينةَ وأعاد إليها خِصْبَها [وكُفِينا] جماعتَهم من غير قتال .

* * *

قال أبو جعفرٍ :

ولمّا غلَب ابنُ الخَلِيج على مِصْر ونواحيها لم يكن بمصر أسْوَأُ قدرةً على أسبابِ [2] أبى علىٍّ الحسينِ بنِ أحمدَ الماذرائىِّ [3] من أحمدَ بنِ سَهْلِ

---

(١) طفا : مات .

(٢) أسباب : عمال وأتباع .

(٣) كان أبو علىّ الحسين بن أحمد وأبو بكر محمد بن علىّ من كبار رجال دولة ابن طولون ، وقد دبّرا أمور دولته فى الرجال والمال ولهما فى الكتابة وتدبير شئون المملكة معرفة ودراية والماذرائى نسبة إلى ماذرايا قرية بالبصرة ، وفى النجوم الزاهرة : أنّه كان هو وعيسى النوشرى على رأس الجند الذين قدموا مصر للقضاء على الدولة الطولونية ، وقد تولى خراج مصر بعد ذلك ، ثم توفى بدمشق سنة ٣١٤ هـ وكان كاتبا فاضلا .

بنِ شُنَيف ، فلم يمض ، شهورٌ حتى انهزم ابنُ الخليج وظُفِر به وحُمِل إلى العراق ، ودخَل بعد ذلك بشهورٍ أبو العباس أحمدُ بنُ محمدِ بنِ بِسْطامٍ إلى مصر متولِّيًا بالأمانةِ علَى الحسين بنِ أحمدَ [١] وكاشفًا لما جرَى عليه أمرُ الضِياع بعد ابن الخليج وأصحابه [٢] .

فقرّر أبو علىٍّ أمرَ المُتَضَمِّنين [٣] بالحضرة عند أبى العبّاس ، فعرَّض بسهل بن شُنَيف ولم يَدَعْ سوءًا إلّا ذَكَرَه به . فقال أبو العبَّاس : سيعلم ما يجرِى عليه منى ! واتّصل [الخبر] بسهل ابنِ شنيف فاستُطير قلبُه ، وكُسِف بالُه . وأُحْضِر مع جماعةٍ أجْلبوا [٤] من الكُتّاب مع ابنِ الخلَيج . فلمّا دخَلوا عليه كاد يقوم إلَى سهلِ بنِ شُنيف ، ثم رفَعه حتّى كان أقربَ إليه من أخصِّ أصحابه . ودعا

---

(١) متوليا بالأمانة الخ : أى إنه تولّى ليكون أمينا على الحسين ، وهى وظيفة كان يقصد بها ضمان متولى الخراج . جاء فى السيرة : وأقر أحمد بن طولون أبا أيوب على الخراج من قبله ، وجعل عبد الله بن دشومة أمينا عليه .

(٢) وكاشفا الخ : أى ومزيلا لما جرى على الضياع من الاغتصاب والمصادرة وغيرهما فى حكم ابن الخليج .

(٣) المتضمنين : المدينين للدولة بالخراج وما فرض عليهم من الغلات .

(٤) أجلبوا : أجلب : توعّد بشر و جمع الجموع للمناوأة ، والمعنى تجمعوا مع ابن الخليج وناصروه .

ابنَ حُبَيْش فسارهَّ ، فنظر إلَى سَهْلٍ ، وقال لأبى العبَّاس : الأمرُ على ما وصَفْتَ،ثم أطلق سهْلًا من ساعته إلى منزله. فسأله أبو على : هل تعرِفُه قبل هذا ؟ فقال : لا واللهِ ولكنّه وَرد علىَّ منه[١] أشْبَهُ الناسِ بأبى .

وأُفْرَخَ[٢] رَوْع سَهْلٍ بتوفيق الله ولطفه. وما زال حَفِيًّا به حتّى مات .

* * *

قال : وكنتُ قد عمِلْتُ فى أيّام ابنِ الخليج لحماية ضِياعٍ[٣] كانت فى يدى . فلما تمخَّضَتْ[٤] دولتُه اختفَيْتُ ونُهِبْتُ وخِفْتُ الإيقاعَ بى ، واعتور[٥] ضِياعى العُمّالُ ، وأضاقت[٦] حالى . فاجتمع الخوف والفاقة، فرأيتُ بعد قدوم أبى العبّاس بنِ بسطام فيما يَرى النائمُ يُوسُفَ بنَ إبراهيم والدى ، وأنا أشكو إليه خَلَّتى وخوفى . فكأنّه

---

(١) ورد علىّ منه : رأيت فيه .

(٢) أفرخ روع سهل : ذهب خوفه .

(٣) لحماية ضياع : المراد من حماية الضياع الإشراف عليها والانتفاع بنصيب من غلّاتها .

(٤) تمخضت دولته : أى بالفتنة يقال تمخض الدهر بالفتنة : أتى بها .

(٥) اعتور : تداول وأخذ .

(٦) أضاقت حالى : ذهب مالى ، يقال : أضاق فلان : إذا ذهب ماله .

يقول : أنا أتكلّمُ فى أمرك حتى تعودَ إلَى محبّتك . فلما أصبحتُ قصصتُ الرؤيا على مَنْ كنتُ مختفيا عنده،وكان حاذقا بالعِبارة[١] . فقال : يجرِى لك فَرَجٌ بذِكرِ أبيك[٢] .وطلب أبو العبّاس بنُ بسطام الدُّسْتُورات[٣] القديمةَ ليعتبر[٤] منها عَبْرَ الضياع[٥] فأُخرِج إليه ما كان لسنة خمسين ومائتين وما قبلَها . فرأى فيها اسمَ والدى فى ضِياعٍ كثيرة . فقال : من هذا يُوسُفُ بن إبراهيم ؟ فقال له أبو علىّ : هذا صاحبُ إبراهيمَ بنِ المهدىّ ، ورضيعُ المعتَصِم[٦] . قال أبو العبّاس : وصاحبُ كتابِ الطبيخ ؟ قال أبو علىٍّ : نعم . قال فله ولدٌ ؟ قال: نعم فى ناحيتى . قال : فخُذ لى منه كتابَ الطبيخ وكتابَ

---

(١) بالعبارة : عبر الرؤيا عبرا وعبارة فسّرها .

(٢) بذكر أبيك : بسبب ما ذكره له أبوك .

(٣) الدستورات : الدستور : قانون الجماعات ، والمراد به هنا السجلات المحتوية على أوصاف الأراضى وحدودها والمشرفين عليها .

(٤) يعتبر : يتدبر و يتأمل .

(٥) عبر الضياع : العبر الشاطئ ، والمراد بعبر الضياع حدودها وكل ما يتعلق بها .

(٦) المعتصم هو ثامن الخلفاء العباسيين ، بويع بالخلافة سنة ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون و بعهد منه ، وهو بانى مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده ، وقد توفى بها سنة ٢٢٧ هـ . [الأعلام جزء ثالث] .

أخبار إبراهيمَ بنِ المهدى ، وصِرْ به إلىَّ حتى يقرأَهما علىّ ، قال : أَفْعَلُ .

وكان إسحاقُ بنُ نُصَيرٍ يعرِف موضعى . فقال له[1] : أحتاجُ إلى أحمدَ بنِ يُوسُفَ . قال : تُؤَمِّنُه وعلىَّ إحضارُه ! فكتَب له أماناً بخطِّه وحلَف فيه ألّا يسوءَنى، ولا يطالبَنى . فخرجت إليه وأحضَرتُه الكتابين ، وفرّج الله عُنّى بأضعف سبب .

* * *

وحدّثتنى أُمُّ آسِيَةَ قابلةُ أولاد خُمارَوَيْه بنِ طُولون (وكان لها دينٌ ، ومذهَب جميل ، ومحَلٌّ لطيف من خُمارويه) وقد تذاكرنا لطفَ الله (عزّ وجلّ) فى أرزاق عباده ، وحسنَ الدفاع عنهم : أنّه تزوّجَها وأختَها أخَوان . فاقبلتْ حالُ زَوْج أُختها ، وأدبرت حالُ زوجها . قالت : وتُوُفِّىَ زَوجُها بأسوإ حالةٍ ، وخلّف لها بناتٍ ، وتعذّر عليها تجهيزُه من اختلاله . وتُوُفِّىَ زوجُ أختها ، وقد خلّف[2] من العَيْنِ والمساكن والأوانى لولَدَ أُختها .

---

(١) فقال له : أى قال أبو على لإسحاق بن نصير .

(٢) خلّف : المفعول به محذوف وتقديره " كثيرا " أو نحوها .

قالت: فكنتُ أُجاهد فى مَؤُونة ولدى ، وإذا وقَف أمرى صِرْتُ إلى أُختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا استحياءً من أنْ أقول لها : هَبى لى . ودخَل شهرُ رمضان، فلمّا مضَى نصفُه اشتهَوْا[1] علىّ صبيانى حَلْوَاءَ فى العيد ، فصِرْتُ إلى أختى فقلتُ لها : أقرضينى ديناراً أعمَلُ به للصبيان حَلْوَاء فى العيد . فقالت : يا أختى تَغيظينِى بقولك : " أقرضينى " وإذا أقرضتُك من أين تُعطينى ؟ أمِن غلَّة دُورك أو بُستانك ؟ ! لو قلتِ هَبى لى كان أحسنَ . فقلتُ لها : أقضيك من لُطْف الله تعالَى الذى لَا يُحْتَسَبُ[2] ، وجودِه الذى يأتى من حيثُ لا يُرْتَقَب . فتضاحكت وقالت : يا أُختى ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بضائع النَوْكَى[3] ! فانصرفتُ عنها أجُرُّ رِجْلَىَّ إلى منزلى .

وكان فى جِوارنا خادمٌ أسودُ لبنت اليتيم امرأةِ خُمارويه . فلمّا بلغتُ حارتنا قال لى : فى جِوارنا امرأةٌ تُطْلَقُ[4] قد أوْجَعَتْ

---

(١) اشتهوا على صبيانى : لغة ضعيفة .

(٢) يحتسب : يظنّ و يقدّر .

(٣) النوكى : الحمق .

(٤) تطلق : بالبناء للعلوم ، أصابها المخاض .

قلبى ! ادخُلى إليها فليس لها قابلة . قالت أُمُّ آسِيَةَ : ووالله ماعانيت مَمْخوضةً [١] قطُّ ! فدخلتُ إليها فمسحتُ جوفَها وأجلستُها كما كان القوابلُ يُجْلِسْنَنى فى طَلْقى ، فولدتْ من ساعتها . فلما أمْسَكَ [٢] صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها . فقلتُ : قد ولدت . فعجب من سرعة أمرها ، وظنّ أنّ هذا شيء قد اعتمدته [٣] بحِذْقِ صناعةٍ ، ولُطْفٍ فى مِهْنةٍ ، فمضَى إلى سِتِّه [٤] بنتِ اليتيم وكانتْ مُقْرِبًا [٥] بأوّلِ ولدٍ حُمِل لأبى الجيش ، وقد عُرِض عليها قوابلُ استثقلتهنّ . فقال : فى جِوارنا قابِلَةٌ أحضرناها لِمَرْأَةٍ فى حارتنا تُطْلَقُ فوضعتْ يدَها على جَوْفِها فسقَط ولدُها . ووصفنى بما لايُوجد فى قدرة أحدٍ إلّا بالله [٦] عزّ وجلّ . فقالت للخادم : إذا كان غَدٌ [٧] فجئنى بها . فأتَى الغلام ودعانى إلى مولاته فأجبتُ بانشراح صَدْرٍ وثِقَةٍ بالله تعالَى .

---

(١) ممخوضة : تعانى الولادة .

(٢) أمسك : امتنع واحتبس .

(٣) اعتمدته : قصدته .

(٤) سته : سيّدته وهى مولدة ، وأول ما وجدت هذه الكلمة فى هذا العصر .

(٥) مقربا : قربت ولادتها .

(٦) بالله : بمعونة الله .

(٧) فى الأصل : غدا .

فاستخفَّتْ رُوحى وقالت : إلى التَّمَام [١] تقديرُ الله تبارك وتعالَى . ثم شكَتْ مَغْساً [٢] تجدُه المُقْرِبُ ، فأدخلتُ يدِى فى ثيابها ومسَحْت جوفَها وعجَجْتُ [٣] إلى الله تعالى فى سرِّى بتوفيقى [٤] ، وكنتُ أدعو ، ومن حضَر من أهلها يتوهَّمُ أنّى أَرْقِى [٥] ، فسكَن ما وجَدَته وتبرّكتْ بى ، ودخَل إليها خُمارويه ، وقال : ما وجَدْتِ ؟ فقالت مَغْساً فى جَوْفى فوضعتْ قابِلةٌ أرَدْتُها [٦] يدَها عليه فزال ما أجِدُه ، وأخرجتْنى إليه (وكان قريباً من حَرَمِه [٧]) . فقال لى : أرجو أنْ يُخَلِّصَها اللهُ (عزّ وجلّ) ببركتك .

قالت أمُّ آسِيَةَ : ودخلنا فى العَشْرِ الأواخِرِ من شهر رمضان . وقد تمسَّكْتُ من الإخلاص لله (عزّ وجلّ) بما لا يصِلُ إليه

---

(١) إلى التمام : الوصول إلى تمام الولادة .

(٢) مغسا : المغس ، ويحرك : كالمغص بالصاد ، وجع فى البطن .

(٣) عججت : الأصل فى العج رفع الصوت وضمّنه معنى الالتجاء .

(٤) بتوفيق : أى داعية بتوفيق .

(٥) أرقى : رقى المريض ونحوه يرقيه رقيا : عوّذه بكلمات وأدعية لإزالة الضرّ عنه

(٦) أردتها : اخترتها .

(٧) الحرم : مايحميه الرجل ويقاتل دونه ، والمراد هنا مكان النساء من القصر .

مَنْ ساح فى الجبال [١] ، خوفاً من شماتة أُختى بى . فلم تمضِ إلّا ثلاثةُ أيام حتى مَخضَتْ [٢] فأجلستُها على كرسىّ الولادة (وكان مقدارُ طَلْقِها ساعتين) فولدت ابناً أسهلَ ولادةٍ ، وأبو الجيش يقومُ ويقعدُ ويذهبُ ويجىءُ . فلمّا وَلَدَتْ وكانت تتوقّعُ من الولادة أمراً عظيماً ، فلمّا [٣] ألقَتْه : قالت لى : هـذا [٤] الطَلْقُ ؟ قلتُ : نعم . فقبّلتْ — يعلم اللهُ — عينىَّ من الفرح . وصاح نُمارويه : أَخبرينى يامُبارَكةُ بخبرها . فقلت : وحياة الأمير إنّها فى عافيةٍ ، وقد ولَدَتْ غُلاماً سَوىّ الخَلْقِ بحمدِ الله ، فوجَّهَ إلىّ بألفِ دينار ، وأَلَحّ أبو الجيش فى النظر إليها لفَرْطِ إشفاقه عليها . فاستوقفتُه إلَى أنْ نقلتُ حوائجَ الولادة ، وقلت لها ياسيِّدتى ! اضحكى فى وجهه كما [٥] تَرَيْنَه . فلمّا دخَل إليها ضحكَتْ فى وجهه ؛ فتقدّم بصدقة بمالٍ كثيرٍ عنها وعن وَلَدِه .

---

(١) وقد تمسكت الخ : تمسكت اعتصمت بمالا يصل إليه من ساح فى الجبال تريد بذلك الزهّاد والعبّاد الذين هجروا الدنيا حبا لله ورغبة فى رضاه من الإخلاص.

(٢) مخضت كسمع ومنع وعُنى مخاضا (بالفتح والكسر) أخذها الطلق .

(٣) كثرت "لمّا" على أسلوب الحديث والمشافهة .

(٤) هذا الطلق : أى الطلق الأخير .

(٥) كما ترينه : أى عندما ترينه ، وقد سبق أن استعمل المؤلف "كما" بهذا المعنى ويظهر أنّه من تعبيرات العصر .

وقالت لى أُمُّ آسِيَةَ: لمَّا كان يومُ الأُسْبُوع (ووقَع قبلَ العيد بيوم واحد) أَمَرَتْ لى بخمسمائة دِينارٍ؛ وحصَل من أتباعها ألفُ دينار.

فحصَل لى ألفان وخمسُمائة دينار. وخلعتْ علىَّ وسائرُ حَشَمِها أكثرَ من ثلاثينَ خِلْعَةً. وحُمِل إلىّ مما أُعِدَّ للعيد ثلاثُ موائدَ خاصّةٍ. وانصرفتُ إلى منزلى فأرسلتُ إلى أُختى مائدةً، ووافتنى مُهَنِّئَةً، وقد تقاصَر طولها[1]، فأريتُها ما حصَل لى من المال والخِلَع والطِيب، وقلت لها: يا أُختى! أنكرْتِ علىّ قولى: "أقرضينى!" ومن هذا كنتُ أقضيك[2]. فلا تستصغرى مَنْ كان الله مادَّتَه، وعليه مَدارُ ثِقَته وتعويضه.

واكتسبت هذه المرأةُ بحَلِّها من أبى الجيش مالًا كثيرا، وقضتْ لجماعة من وجوه البلد حوائجَ خطيرةً.

* * *

---

(١) طولها: الطول (بفتح وسكون) الفضل والقدرة والغنى والسعة، ويصح أن تقرأ بضم الطاء أى تواضعت.

(٢) ومن هذا كنت الخ: أى وكانت نيّتى أن أقضى دينى من هذا الذى كنت أرجوه من فضل الله وكرمه.

وحدّثنى شجاعُ بنُ أسْلَمَ الحاسبُ . قال :

قلت لسَنَدِ بنِ علىٍّ : مَن كان سَبَبَك[١] إلى المأمون حتّى اتصلتَ به وكنتَ [من جُلَسائه] من العلماء[٢] . فقال : أُحدّثك به، كان والدى يتكسَّب بصناعةِ أحكام[٣] النجوم مع قوم من أسباب[٤] السلطان يَوَدُّونه ويُحبونه ، وتعلّق قلبى بعد فَراغى من قراءة كتاب أُقْلِيدِسَ[٥] بكتاب المِجْسطى[٦] . وكان فى أيام المأمون بسوق الوَرّاقين رجلٌ يُعْرَفُ بمعروفٍ ، يُورِّق[٧] هذا الكتابَ ويبيعه بعد تكامل خطّه وأشْكاله وتجليده بعشرين ديناراً . فسألت والدى ابتياعَه لى . فقال :

---

(١) سببك : وسيلتك .

(٢) من العلماء : بيان لمن .

(٣) أحكام النجوم : علم الهيئة ، أو معرفة المستقبل من النجوم .

(٤) أسباب السلطان : عمّاله .

(٥) كتاب أقليدس : كان أقليدس من حكماء اليونان، وقد ألّف كتابه فى الهندسة، ويسمّى علماء الإسلام هذا الكتاب بالأصول ، وأول من نقله إلى العربية الحجاج بين مطر الكوفىّ ، ثم نقله إسحاق بن حنين ثم ثابت بن قرّة .

(٦) المجسطى : كتاب وضعه بطليموس فى علم الهيئة وحركات النجوم وترجم إلى العربية ليحيى بن خالد بن برمك .

(٧) يورّق : يستعمل المؤلف التوريق بمعنى النسخ للبيع .

أنظرنى[١] يا بُنَىَّ إلى أن يتهيَّأ لى شىء آخذُه إمَّا من رزق ، وإمّا من من فضل[٢] ، وأبتاعهُ لك (وكان لى أخٌ لا يشتهى ممّا [تقدمتُ] أنا فيه من العلم شيئًا، إلاّ أنّه كان يخدُمُ أبى فى حوائجه و [يظهر][٣] الإشفاق عليه .

فلمّا سوّفنى أبى بالكتاب وطالت المُدّةُ فيه . ركبتُ معه لأُمْسِك دابّتَه فى دُخوله إلى مَنْ يدخُل إليه ، ولى إذْ ذاك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً . فخرج إلىَّ غِلمانُ مَنْ كان عنده، فقالوا: انصرِفْ فقد أقام أبوك عند مولانا . فمضَيْتُ بالدّابّةِ فبعتُها بسَرْجها ولجامها بأقلَّ من ثلاثين دينارا ، ومضَيْتُ إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين دينارا . وكان لى بيتٌ أخلو فيه . وجِئْتُ إلى أُمّى فقلتُ لها : قد جَنَيْتُ عليكم جنايةً ، واقتصَصْتُ عليها القصّةَ ، وحلَفْتُ لها إنْ شَحَذَتْ[٤] أبى علىّ حتّى يمنعَنى من النظر فى الكتابِ لأَخْرُجَنَّ عنهم إلى أبعدِ غاية ، وردَدْتُ عليها فضلَ ثمنِ الدّابّةِ . وقلتُ لها: أنا أُغْلِقُ بابَ هذا المنزل الذى

---

(١) أنظرنى : تمهّل علىّ وأخر مطالبتى .

(٢) من فضل : من عطاء .

(٣) زيد ما بين القوسين .

(٤) شحذت : شحذ السكين أحدّها ، ويريد من الشحذ هنا التحريض .

لى ، وأرضى منكم برَغيف يُلْقَى إلىّ كما يُلْقَى إلى المحبوس إلَى أنْ أقرأَه جميعَه . فتضمّنَتْ[1] لى بتسكين فَوْرَتِه ، ودخَلْتُ البيتَ وأغلقتُه من عنـدى[2] . فمضَى أخى إلَى والدى فى الموضِع الذى كان فيه فأسرّ إليه الخـبَر ، فتغيّر وجهُه ، وتلجلج فى حديثـه ، فقال له مَنْ كان عنـده : قد شـغَلْتَ قلبى وقلبَ من حضَر بمـا ظهَر منك فبحقّى عليك إلَّا أَخْبَرْتنا بماذا ؟ قال : فحدّثه . فقال : هذا واللهِ يسرُّنا فى وَلَدِك فاتّعِدْ فيه بكلِّ جميل . ثم استحضر من إصْطَبْله بَغْلًا أَفْرَهَ من بغل أبى ، وسَرْجًا خيرًا من سرجه . وقال لأبى : اركَبْ هذا البغلَ ولا تُكَلِّم ابنَك بحرف .

قال سَنَدٌ : وأقمتُ ثلاثَ سِنينَ كيومٍ واحد ، لا يَرَى لى أبى صورةَ وجهٍ ، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المِجسْطِى ، ثم خرجتُ وقد عمِلْتُ أشْكالا مستصعَباتٍ ، ووضعتُها فى كُمّى ، وسألت هل للهندسين والحُسَّاب موضِعٌ يجتمعون فيـه ؟ فقيل لى : لهم مجلِسٌ

---

(١) فتضمنت : أصل تضمن : التعدى بنفسه : يقال ضمّنته الشى فتضمنه عنّى ، ولكن المؤلف استعمله بمعنى ضمن يقال ضمن الشىء و به كفله .

(٢) من عندى : من الداخل .

فى دار العبّاس بنِ سعيدٍ الجوهرى[1] تِرْبِ المأمونِ ، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالهيئة والهندسة . فحضرتُه ، فرأيت جميعَ مَنْ حضَر مشايخَ ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيرى ، لأنّى كنتُ فى العشرين سنةً .

فقال العبّاس : مَنْ تكونُ وفيم نظرتَ ؟ فقلتُ : غلامٌ يُحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة . قال : ما قرأتَ . قلتُ : أُقْلِيدِسَ والمِجسْطِى قال : قراءةَ إحاطةٍ ؟ قلتُ : نعم ، فسألنى عن شىءٍ مستصعَب فى كتاب المجسْطِى كان تفسيرُه فى الأوراقِ التى كانت فى كُمِّى ، فأجبتُه فعجِب وقال : من أفادك هذا الجوابَ ؟ قلتُ : استخرجتُه قريحتى ، وما سمعتُه من غيرى ، وهو وغيرُه فيما مرَّ بى فى ورقٍ معى . قال : هاتِهِ فلمّا رآه اغتاظَ واضطربَ . ثم قال لبعض مَنْ بين يديه من غِلمانه : السَّفَطَ[2] . فجىء به فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله ، ثم فضّه وأخرج منه كُرّاسةً فجعل يُقابل بها الورقَ الذى كان معى ، فكان الكلامُ فيما معه أَحْسَنَ وصفًا من الكلام الذى معى ، والمعنَى واحدٌ .

---

(١) خبير بحساب الفلك وعمل آلات الأرصاد ، صحب المأمون وندبه إلى مباشرة الرصد فى جملة المتولين لذلك بالشمّاسية ببغداد .

(٢) السفط : وعاء كالجوالق أو القفة كانوا يضعون فيه الكتب .

فقال : هذا شيءٌ توليتُ تبييتَه من كتاب المجسطى ، فلمَّا أحضرتنيه توهَّمْتُ أنَّه سُرِق منّى حتَّى تبيَّنْتُ اختلافَ اللفظين مع اتفاق المعنى ، ثمَّ أمرَ أنْ يُقْطَع لى أقْبِيَةٌ ، ويرتادَ لى[1] منطَقَةٌ مُذْهَبَةٌ ، ففُرِغ من جميع ذلك فى تلك الليلة ، وأُدْخِل بى إلى المأمون . وأمرَنى[2] بملازمته وأجرَى لى أنزالاً[3] ورِزْقا .

* * *

وحدّثنى أحمدُ بنُ أبى يعقوبَ قال :

حدّثنى أبى أنّ جِبرِيلَ بنَ بَخْتَيْشُوعَ[4] كان يخلُف[5] الأطبّاءَ فى دار الرشيد ، وكانت به نزاهةٌ وبه فاقةٌ شديدة ؛ ورزقُه يومئذٍ ثلثمائة درهم فى كلّ شهر . فوقع الرشيدُ فى غَشْيَةٍ لم يتقدّمْها علّةٌ . فأجمع الأطبّاء على أنّه تالف ،

---

(١) يرتاد لى : يطلب لى .

(٢) أمرنى : أى المأمون .

(٣) أنزال : جمع نزل : (بضم فسكون) وهو الأجر الشهرىّ أو السنوىّ .

(٤) هو جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وجليسه ، خدم الأمين بعد وفاة الرشيد ، ولما ولى المأمون سجنه ثم أطلقه ورفعه إلى مثل مكانته فى عهد الرشيد ، توفى سنة ٢١٣ هـ ودفن بالمدائن (الأعلام ج ١) .

(٥) يخلف الأطباء : يأتى بعدهم فى المنزلة ويقوم بعملهم إذا غابوا .

وأُخبِرَ ابنُ بَخْتَيشُوعَ فقال : ما له إلّا علاجٌ واحد، وهو أن يحجموه. فقال محمدٌ الأمينُ : أخافُ أنْ أُخاطِرَ به . ثم قال : قد أَيِسنا منه ، والصوابُ أنْ نمتحنَ هـذا[1] فيه . فأَحضَروا الحَجّامَ فجمَع الدم فى أخدَعَيه[2] وهو مُستَلْقٍ . ثم أخرج من دَمِهِ مِحجَمَتَيْن[3] ففتَح الرشيدُ عينيه ، واستدعَى طعامَه وأكل ونام . فلما انتبه اقتصّ عليه المأمُونُ ما جرَى عليه [أمرُه ، وأذِنَ] للداخلين فى تهنئته بالسلامة. فلمَّا اكتملوا قال لهم : يا معاشرَ الأمراء والأطبّاء إنما ارتبطتكم[4] لحِراسة نفسى ، وقد حَدَثَ علىّ حادثٌ لم يُغنِ عنّى فيه بعدَ اللهِ (عزّ وجلّ) إلّا هذا الغلامُ ! ونصيبُه منى نَزْرٌ ونصيبُكم وافر ، فاعْدِلوا مَيْلَ المَمْلَكةِ بأنْ يَجْعَلَ له كُلُّ رجلٍ منكم نصيبًا من إنعامى عليه ، وإحسانى إليه ، حتّى يكونَ له من جماعتكم ما يوازى ما تقدَّم عليه[5] به فى حسن الدِفاع عنّى .

---

(١) هذا : أى الحجم .

(٢) أخدعيه : الأخدع : شعبة من الوريد فى جانب العنق .

(٣) محجمتين : المحجمة : وعاء يحجم به . والمراد ملء محجمتين .

(٤) ارتبطتكم : عيّنتكم وخصصتكم بخدمتى .

(٥) عليه : أى على كل رجل منكم .

فتسرّع الناسُ إلى جِبْرِيلَ ، فأعطَوْه الضِياعَ والدورَ والأموالَ ، وما برِح حتّى كان أيْسَرَ مَنْ فى المملكة ، وتربّتِ النعمةُ لديه وولدِه حتى وازتْ نِعَمَ الخلفاء .

* * *

وحدّثنى عَمْرُو بنُ محمدِ بنِ عَمْرِو بنِ عُثْمانَ عن أبيه عن جدِّه قال :

كان لى مجلِسٌ فى ديوان الإنشاء قليلُ الجَدْوى علىّ ، وحالى حالٌ لا تنهَض بما يَحتاج إليه المقتصِد ، وقد لزِمَتْنى يمينٌ لا كفّارةَ لها فى ترك النبيذ [1] .

فكان جماعةُ الكتّاب يجلِسون ماجَلَسَ الوزيرُ ، وهو يومئذ الفضلُ ابنُ الربيع ، فاذا آنصرف إلى منزله آنصرفوا إلى ماعقَدوا عليه أمرَهم من الآجتماع ، وأُقيم وحدى فى الديوان إلى أن يُغلَق . فبكَرْتُ إليه فى يوم من الأيّام ، وجاءت مَطَرةٌ تطرَّبَ الوزيرُ فيها إلَى الشرب ، لتشاغل الرشيد فى دعوةٍ لزبيدةَ ، فلم يَبْقَ فى ديوان الإنشاء غيرى . فإنّى لجالس حتّى دخَل إلىّ خادمٌ من خاصّة الرشيد فأخذ بيدى وأدخلنى إلَى الرشيد . فلما مَثَلْتُ بين يديه ، قال : اقرأْ هذا الكتاب .

---

(١) فى ترك النبيذ : حلف على ترك النبيذ .

فقرأتُه فبيّنتُه وأعربتُه[١] . فقال : أجِبْ عنه بين يدَىّ . فأجبتُ عنه بأحسنِ مَعانٍ ، وأجودِ لفظٍ ، فقال : إقرأه علىّ ، فقرأتُه . فقال لمسرور الكبير : ألَف دينار[٢]، فجاء بها . فقال : ادفَعْها إليه وقُلْ للفَضْل يصرِفْ إليه ديوانَ الإنشاء[٣] ، فهو أحقُّ به ممّن غادره . ثم قال لى : خُذْ هذا المالَ وسأنظُر لك فى الوقت بعد الوقت مايزيد فى اصطناعى لك . فلا يُفْسِدِ الغِنَى ما أصلحتْه الفاقةُ من حسن مَلازمتك ،واستزِدْنى . أزِدْك .

قال عَمْرٌو[٤] فاجتهد الفَضْلُ بنُ[٥] الربيع أن يَشْرَكَ بينى وبين مَن كان يتولَّى الإنشاء فلم يُطلِقْ له الرشيد ذلك . وأفردنى به حتّى فرّقتِ الأيّام بيننا .

---

(١) أعربته : وضّحته وأفصحت عنه .

(٢) ألف دينار : أى أعطه ألف دينار .

(٣) يصرف إليه ديوان الإنشاء : يتولى رياسته .

(٤) قال عمرو : أى راويا خبر جدّه .

(٥) الفضل بن الربيع : هو الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد بعد عهد البرامكة ووزير الأمين بعد وفاة الرشيد ، وقد عاش فى عهد المأمون مهملا مجفوّا توفى بطوس سنة ٢٠٨ هـ (الأعلام جزء ثان) .

خاتمـــة

قال أبو جعفر . قال بُزُرْجَمِهْر : "الشدائدُ قبل المواهب تُشْبِه الجوعَ قبل الطعام : يحسُن به موقعُه ، ويلَذُّ معه تناوُلُه" .

وقال أفلاطون : الشدائدُ تُصلِح من النفس بمقدارِ ما تُفسِد من العَيْش ، والتَرَفُّ[1] يُفسِد من النفس بمقدار ما يُصْلِح من العيش . وقال : حافِظْ على كُلِّ صديق أهْدَتْه إليك الشدائدُ ، وآلْهُ عن كل صديق أهدته إليك النعمة . وقال أيضا : التَرَفُّهُ كالليل ، لا تتأملُ فيه ما تُصْدرُه وتتناولُه ، والشدَّةُ كالنهارِ ترَى فيها سعيك وسَعْيَ غيرك .

وقال أَرْدَشِيرُ[2] : الشِدّة كُحْلٌ ترى به مالا تراه بالنعمة . وملاكُ[3] مصلحة الأمر فى الشدّة شيئانِ ، أصغرُهما قوّةُ قلبِ صاحبِها على ما ينوبُه ، وأعظمُهما حسنُ تفويضه إلى مالِكه ورازِقه . وإذا صَمَدَ الرجلُ بفكره نحو خالقه عِلم أنّه لم يمتحِنه إلّا بما يُوجبُ له مَثُوبةً ،

---

(١) التترف : التنعم .

(٢) كان ملكا من ملوك الفرس حازما صائب التفكير كتب لابنه سابور عهدا ليكون له ولمن بعده نبراسا وناموسا لضبط المملكة . ملك نحو أربع عشرة سنة .

(٣) ملاك : ملاك الشيء قوامه الذى يمسك به .

أو يُمَحِّصُ [١] عنه كبيرةً ، وهو مع هذا مع الله فى أرباح متّصلة ، وفوائدَ متتابعة .

فأمّا إذا آشتد فكرهُ تِلْقَاء الخليقةِ كثُرت رذائلُه ، وزاد تصنُّعه وبرِم بمُقامه فيما قصَّر عن تأميله ، واستطال من المِحَنِ ما عسَى أنْ ينقضِى فى يومه ، وخاف من المكروه مالعلّه أن يُخْطِئَه .

وإنّما تصدُق المُناجاةُ بين الرجل وبين ربِّه لعلمه بما فى السرائر ، وتأييده البصائرَ ، وهى بين الرجل وبين أشباهه كثيرةُ الأذيّة ، خارجةٌ عن المصلحة .

ولله تعالَى رَوْحٌ [٢] يأتى عند اليأسِ منه [٣] ، يُصيبُ بهِ من يشاء من خَلْقه . وإليه الرغبةُ فى تقريبِ الفرج ، . وتسهيلِ الأمر والرجوعِ إلَى أفضلِ ما تطاول إليه السُؤْلُ ، وهُوَ حَسْبى ونِعْمَ الوكيلُ .

* * *

---

(١) يمحص عنه : يخلّصه ممّا يشوبه .

(٢) روح : راحة ورحمة .

(٣) منه : أى من روح الله وفرجه .

فهرس الكتاب

صفحة

تقديم ... ... ج
خطبة المؤلف ١

المكافأة على الحسن

قصة خالد القسرى والديوانيان ٥
« ما شاء الله بن مرزوق ومتضمن ٨
« أحمد بن دعيم وأعرابيين ١١
« موسى بن مصلح ومحبوس... ... ... ١٥
« اسماعيل بن اسباط والخنّاق ٢٥
« مسلمة بن عبد الملك ومحمد بن على أبى الخلفاء ٢٥
« اسحاق بن نصير ووراق ٢٩
« ابن الزنق والقاسم بن شعبة ٣٢
« هارون بن ملول و إسحاق بن ابراهيم... ... ... ٣٤
« المؤلف مع نفر من القيسية... ... ... ٣٧
« المؤلف مع عباسى من ولد المأمون ٤١
« يحيى بن نجحة وعمر بن فرج ٤٣
« يوسف بن ابراهيم ومن كان يحسن إليهم ٤٨
« المؤلف وبعض التجار ٥٠
« أحمد بن بسطام وصاعد ٥٣
« نجاح بن سلمة واسحاق بن تميم ٥٦
« محمد بن يزيد ومسافر ٦٠
« أبى حبيب المقرى وعبد يرعى الغنم ٦٤
« أحمد بن أبى عصمة وأحمد بن أبى طغان ٦٦
« النصرانى المصرى والهارب من المتوكل ٦٨

صفحة

قصة يحيى بن خالد والفضل بن سهل ٧٤
« على المتطبب وبعض ولد أفلاطون ٧٨
« المؤلف ومحمد بن سليمان ٨٠
« المؤلف ومحمد بن سليمان ٨٢
« علّان بن المغيرة وبعض الفقهاء ٨٤
« إحسان يوسف بن ابراهيم على الأشراف والمستورين ٨٨
« موسى بن مصلح وبعض النجار المسجونين ٨٩
« التاجر وزوجه ٩١
« هرثمة بن أعين والخليفة الهادى ٩٦
« أبى يوسف والرشيد ٩٨
« أبى يوسف وبذل الجارية ١٠٠
« المنصور وأحد رجال هشام ١٠٣
أقوال بعض الفلاسفة فى حسن المكافأة ١٠٤

المكافأة على القبيح

قصة ملك الهياطلة وفيروز ملك الفرس ١٠٦
« محمد بن عبد الملك الزيات والمتوكل ١١٢
« وشاية ابن سليمان بأبيه ١١٤
« ابن طولون وبعض غلمان العمرى ١١٧
« عامل ظالم وبعض الخوارج ١١٨
« المصدق الباغى ١٢٠
« ابن عدى والنعمان ١٢٢
« رجل من أشراف المدينة مع أحد رجال الأمويين ١٢٤
« مولى لبنى العباس وأحد أصحاب بنى أمية ١٢٦
« أحد الأكاسرة وابنه ١٢٨
« خالد بن سهم ومروان الجعدى ١٢٨
« أحمد بن طولون وأحمد بن المدبر ١٣١

صفحة

قصة أحمد بن المدبر ومتقبل ١٣٩
« خمارويه ومحمد بن أبي الساج ١٤١
« أحمد أقارب ابن يعفر وعجوز يمانية ١٤٣
« امرأة هشام بن عبد الملك وزينب بنت سليمان... ... ... ١٤٥
« اليون وميخائيل ملكي الروم ١٤٧
« سيف بن ذي يزن وترجمان كسرى ١٥٢
« كاتب أبي الوزير وبعض العمال... ... ... ١٥٥
« ابن الأبرد وكاتبه ١٥٦
« عمرو بن العاص وبعض أشراف مصر... ... ... ١٥٧
« الدنانى والخناق ١٥٩
تمهيد المؤلف للقسم الثالث من الكتاب ١٦٠

حسن العقبي

قصة ابني عمر الاخبارى وأحد الشطار ١٦٢
« الفتى المملق والعباس بن خالد ١٦٧
« أبي يوسف وابن القاسم الغنوى ١٧٣
« على بن سند وأبي الجيش ثابت ١٧٦
« محمد الغورى ولص ١٧٨
« مصقلة بن حبيب ومعن بن زائدة ١٨٠
« أبناء أحمد بن طولون وهارون بن خمارويه ١٨٢
« التاجر وأحد ملوك الهند ١٨٤
« الشامى والفضل بن يحيى ١٨٧
« يوسف بن ابراهيم ومزاحم بن خاقان ١٩٠
« ابراهيم بن الأعجمى والسندى بن شاهك ١٩٣
« ابني موسى بن شاكر وسند بن على ١٩٥
« غزاة أقريطش والشيخ الصالح ١٩٩
« سهل بن شنيف وأحمد بن بسطام ٢٠١

صفحة

قصة المؤلف وابن بسطام ٢٠٣
« أم آسيا القابلة واتصالها بقصر هارويه ٢٠٥
« سند بن على وابن سعيد الجوهرى ٢١١
« جبريل بن بختيشوع والرشيد ٢١٥
« عمرو بن عثمان الكاتب والرشيد ٢١٧
خاتمة الكتاب ٢١٩

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢٤ ذى الحجة من سنة ١٣٥٩
(٢٢ من يناير سنة ١٩٤١) ﻫ
مدير المطبعة الأميرية
محمود أكى إبراهيم

المطبعة الاميرية ٤٠٠٥-١٩٤٠-٧٠٠٠

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28(946)M100			

893.7Ah54 T1

11184394

MAY 8 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58865926
893.7Ah54 T1 Mukafaah /